الطبعة الرابعة

مطر حزيران

جبّور الدويهي

رواية

دار الساقي

جبور الدويـهي

مطر حزيران

رواية

دار النـهار

I

أخبرونا في اليوم التالي . تركونا ننام ليل الاحد غافلين . فوق، في قاعة الجناح الشرقي من الطابق العلوي حيث تدخل علينا من الشبابيك المشرَّعة رائحة النهر القريب واصوات المؤذِّنين عند الفجر ، حيث نتسلى عن حرّ ليالي حزيران بمتابعة السيارات القليلة العابرة شوارع السوق. وبشجار يثأر به الكسالى الاشقياء المفوّهون من أصحاب النظّارات السميكة الذين يضرب بهم الاساتذة المثل في الاجتهاد.

كانت الساعة تقترب من السابعة في قاعة الدروس عندما دخل علينا المدير يتبعه بوّاب المدرسة. من كانوا يغالبون النعاس منّا، وهم كثر صبيحة يوم الاثنين هذا، رفعوا رؤوسهم. فرير امبرواز لا يصطحب معه جميل الراسي لو كان الداعي نتائج مسابقة الحساب السيئة، او ما بلغه من إقدامنا في اليوم السابق على خلط الاغاني الشائعة بالتراتيل اللاتينية على مسمع عائلات المدينة من الموارنة والكاثوليك الذين تفتح كنيسة المدرسة ابوابها لهم ايام الآحاد فقط. فتلك شواذات كان المدير يعالجها بلغته الفرنسية المرصعة بقارص الكلام. تُربكنا لهجته اكثر من فهمنا لاسماء الطيور الاستوائية وزواحف الصحراء التي يوزعها علينا جماعة وفرادى. كان جميل على هزال بنيته وطبعه الصموت عين المدرسة وصلة وصلها مع الخارج. يفاوض المتظاهرين

إذا ما جنح بهم هتّافو الصفوف الامامية الى باب المدرسة المُفضي الى سوق النحّاسين، طمعاً ولو لمرة واحدة بتعطيل الدروس وانضمام التلامذة الى المسيرة الغاضبة من العدوان الثلاثي على مصر. يقرض اصحاب الحاجات الطارئة مالا، يحمل الى الداخليين منّا توصيات مقتضبة من الأهل:

. يا أنيس يجب ان تأكل جيدا وأن لا تغادر المدرسة سرا للتسكع في الشوارع، فالاحوال ليست على ما يرام...

اذا نزل واحدهم الى المدينة يتبضّع او يفكّ رهنا عقاريا في السرايا، يعرّج على جميل ويودِع لنا عنده شيئا من جبنة الماعز او المعكرون بالسكّر. كانت مرمية عليه وحده، جميل، تلك الشؤون التي كنا نشعر أنه يستحيل ايصالها الينا بالفرنسية. فاللغة التي كنا نعارك لفك رموزها في كتبنا الكئيبة الصور، وتجري بطلاقة على ألسنة الفريرات المتشحين بالسواد، كانت تشير في نظرنا الى اشياء موجودة في مناخات اخرى لا نظير لها حولنا. أما احوالنا واسماؤنا فلغتها منها وفيها. لذا أسند جميل الراسي ظهره الى حاجب الباب وقال بلهجة ميتة:

. ولاد برقا ضبّوا كتبكم...

هذا ما كان يُكلّف به. أن يزفّ الى التلامذة المسلمين خبر يوم عطلة اضافي لهم وحدهم في عيد الاضحى وكذلك للروم الارثوذكس في عيد الفصح الشرقي أو ان يصرف قبل ساعتين من الدوام ابناء القرى الجبلية المغطاة بالثلوج. بلاغاته تُقابل بالهتاف والصفير اذا كانت رقابة الاساتذة متراخية. أما نحن، "ولاد برقا"، فانقلب الابلاغ بالانصراف على الكبار منا وجوما وعلى الصغار فرحة صامتة بتخريب الاسبوع من اوله، وقلقاً من الاخبار الصعبة التي لا بد ستلفحنا بعد قليل.

عند سماعنا كلام جميل الراسي لم نسارع الى افتعال الضجيج وجمع لوازمنا كما كانت تفعل في كل مرة الفئة المعنية باعلاناته. لكن فرير امبرواز وبالرغم من الوجوم البادي علينا لم يستطع منع نفسه من اطلاق اوامره بالفرنسية في اكثر اللحظات تأكيدا لظنوننا انه يفهم العربية ويخفي ذلك كي يوقع بنا:

. حذار الضجيج على السلالم!

كأنه حاول استرجاع بعض هيبة المدرسة التي عبث بها استسلامه لاطلاق سراحنا بعد الشرح الذي قُدِّم له على الأرجح حول الضرورة الحيوية لهذا الاطلاق. سقط صمت مفاجئ على مئات التلامذة الخارجيين الذين كانوا قد بدأوا يتوافدون الى المدرسة، فراحوا ينظرون الينا كأنهم يشاهدوننا للمرة الاولى في حياتهم نخترق الملعب وحوائجنا على ظهورنا. نمر الى جانب المسرح الخشبي الصغير حيث نقف كل صف بصفّه امام فوتو دافيديان لأخذ الصورة التذكارية نحن واساتذتنا. نحن اولاد برقا لن نظهر في صور نهاية الدروس لهذه السنة، 1957، المشؤومة.

اعتصم جميل الذي قادنا الى الباب بصمته رغم اسئلتنا المتطايرة حوله والايدي الصغيرة التي كانت تشده من كتفه وتمسك سترته تكاد تمزقها الى ان قال اخيرا كمن يرفع عن نفسه اي تبعة:

. اسألوا موريس.

سائق الباص. وجميل محقّ في رمي الامر على موريس لان سائق البوسطة من عندنا، بينما جميل من قرية بعيدة في عكار، مجاورة للحدود السورية. موريس يحملنا الى اهلنا عندما تُفرج عنا المدرسة بعد الحاح، مرة في الشهر على الاكثر. كلما طالت اقامتنا بعيدا عن احياء البلدة اعتقد أهلنا ان حظنا اكبر في النجاة. كان موريس يمسك المقود بيديه الاثنين ينظر في الفراغ وهو ينتظر صعودنا.

. موريس!؟

هو ايضا لم يجب.

ناديناه، سألناه بجميع الالحان. كان يمكن الاعتقاد انه لا يريد التكلم على مسامع شخص غريب، جميل الراسي، الواقف يشهد على مغادرتنا ويتأكد من انضباطنا في الامتار القليلة من الرصيف التي تفصل حرم المدرسة عن الحافلة المتوقفة الى جانب الباب، في الدائرة الخارجية القريبة الواقعة تحت رقابته.

. موريس! شو الاخبار؟ من وين جايي؟

عشرون سؤالاً كل منها بلهفة خاصة لم تنتزع منه كلمة واحدة. ولا التفاتة الى الوراء او حتى نظرة في المرآة على جري عادته كي يطمئن الى انضباطنا واكتمال عقدنا. جميل الراسي انتظر حتى صعد آخر واحد منا ليغلق وراءه باب الحافلة الخلفي وهو يكرر خفراً كمن يسرّ لنا باكبر قدر يعرفه من المعلومات او كأنه يودّعنا بوصية أخيرة:

. انتبهوا عحالكم.

سمع موريس ضربة الباب فأدار المحرك وانطلق بنا دون أن يرسم اشارة الصليب. نحن ايضا لم نتشاجر على افضلية احتلال المواقع الملاصقة للشبابيك. ولم نتدافع لتقاسم المقعد الخلفي الواسع حيث نرخي اجسامنا بطولها ونمد ارجلنا على هوانا، فلا يذكّرنا جلوسنا هناك بالانضباط المتعب في قاعات المدرسة.

انشغل موريس اولا بالخروج من المدينة. وكان كأنه يتذرع بصعوبة العبور بالحافلة في الشوارع الضيقة كي يؤجل الاجابة عن الاستفهامات المتوالية. وكأنه يبرر عدم تفرغه للاجابة بالتبرم المفرط البادي على وجهه وهو يسعى لتفادي الارتطام بعربات الفواكه وباعة السوس المتجولين او براكبي الدراجات الهوائية وقيادتهم البهلوانية وهم يحملون طلبات الفول او الحمص الى الزبائن. حافظ على صمته ولم يتأفف عاليا في ذلك اليوم من الفوضى الضاربة في سوق القمح. لم يشتم العتّالين الذين يسدّون الشارع وهم مكسورون تحت احمالهم الثقيلة. حتى أنه صبر

على عربجي عالق مع حصانه وسط بسطات الخضر يعوق المرور، وكانت كلها في نظره، وكما أشبعنا خطابات، براهين ساطعة على عجز العرب عن كسب الحروب دون ان يفصح اذا كان سعيدا بخسارتهم هذه أم متألماً منها. لكنه بدا غير قادر على الكلام في تلك الصبيحة وهو يجاهد بذراعيه القصيرتين يلف بهما المقود المستدير الواسع في المنعطفات القاسية المتوالية صعودا الى مدرسة الاميركان. في كل حال كنا نشعر أن موريس وللمرة الاولى في تاريخ نقلنا الى بيوتنا لم يكن مستعجلا الوصول. ولا نحن كنا مستعجلين كما أتذكر.

تجاوزنا الابنية الاخيرة المتناثرة على جهتي شارع الارز، انعطفنا عند خزان المياه. بعد ان ارتاح في القيادة على الطريق المستقيمة، وفي الوقت الذي كان يفترض به ان يبدأ باخبارنا لماذا يعود بنا الى بيوتنا يوم الاثنين، وما ان ظهرت علينا الجبال العالية التي كانت لا تزال غارقة حتى تلك الساعة في ضباب صباحي خفيف، سمعنا شهقته. أدركنا فجأة أنه لن يحكي فتوقفنا جميعا عن الاسئلة ورحنا ننظر اليه في المرآة العريضة التي كانت تساعده على مراقبتنا... كانت عيناه الواسعتان خضراوين بلون التفاح. مثل تلك التي كان يمنعنا جدي لوالدي من قطافها مدعيا دائما انها لم تنضج بعد.

انكشف امامنا السهل المؤدي الى البلدة وموريس يبكي. لم يخرج الجالسون الى جهة الشبابيك رؤوسهم ليعرّضوها للهواء وللتمتع بمنظر اشجار الزيتون تهرع في الاتجاه المعاكس، صوب المدينة، وتحرك رتابة السهل. في انبساط السهل، نظرنا الى بعضنا، أحصينا بعضنا. كنا ثمانية عشر تلميذا من مختلف الصفوف، لكننا لم نكن جميعاً من برقا. إندس بيننا اثنان غريبان. أهلهما في الواقع يقيمون في البلدة لكنهم غرباء. جميل لم يكن يميّزهم عنا. كانوا من سكان برقا وليسوا من اولادها، فاختاروا الركوب معنا مخاطرين بمشاطرتنا ما ينتظرنا من اخطار على البقاء جالسين على مقاعد الصف الكئيبة.

موريس يبكي كأنه وحده لا تحدق فيه كل تلك العيون. بينه وبين نفسه. جارنا موريس. لم يرزق باولاد، كنت اراه يجلس بعد فراغه من ايصال التلامذة الى منازلهم الى جانب زوجته على مقعد خشبي تحت شجرة عنّاب كأنهما ينتظران هبوط المساء والى جانبهما راديو يبث بصوت عال اغاني محمد عبد الوهاب. كان موريس اول شخص رأيته يبكي مستسلما، لا يمسح دموعه بل يتركها تسيل على خديه وتسقط قطرات منها فوق مقود البوسطة. لم يكن شائعا البكاء هكذا الا في بعض افلام الغرام التي كان يهرب الطلاب الكبار من المدرسة الى سينما الروكسي لحضورها. عيناه الخضراوان كانتا تكبران في المرآة الواسعة. يبكي ونحن نتفرج عليه في سكوت تام اكتشفنا معه مقدار ما تصدره الحافلة من انواع الصرير والارتجاج الذي كنا نغطيه بصراخنا الدائم خلال رحلاتنا العادية في حافلة موريس المترنحة.

لم يشغلنا عن موريس الا وصولنا الى العقبة حيث ظهرت علينا البلدة المتجمعة فوق التلة وبقايا ضباب ابيض طالع من النهر ما زال يلفّها. بعد تمهل قصير قبل السحبة الاخيرة، انحدر بنا وسط زغردة الكوابح الى أن بان امامنا الجسر الحديدي والحشد المتحلق حول دبابة عسكرية يطل من برجها جندي يلبس خوذة يفترض انها مطلية تمويها بالوان الطبيعة. لم يكن هناك سوى نساء وجنود. رأيت بينهن خالتي. كانت ترتدي فستانا أحمر اللون وشعرها منفوش. كانت غالبية النساء ترتدي الاسود. لا أعرف لماذا أرسلوها هي وليس غيرها لاصطحابي، افترضت أن أمي وأبي مشغولان بما يحدث. رأيتها عن بعد، تشبك ذراعيها على صدرها وهي تهز كتفيها بعصبية. كن حوالى العشرين امرأة متجمعات في كتلة واحدة وفرقة صغيرة من الجنود المنتشرين فوق الجسر وحوله. ولما نزلنا من الباص سمعنا جندياً يخبر رفيقه وبنادقهما على كتفيهما وهما ينظران الى الماء الموحل كيف تأخر ذوبان الثلوج العام الماضي وكيف طاف النهر وأخذ جسر الحجر وركّبوا جسرا حديديا مكانه. حاولت ان اسأل خالتي ماذا يحدث فأسكتتني. وضعت يدها على فمي كأني ارتكب خطأ جسيما. تحركت النساء برفقة التلامذة في اتجاه البلدة سيرا على الاقدام. كان الموكب غريباً. أمسكتني خالتي من يدي ومشت بي. أعتقد أني تلفتّ كثيرا لاعرف ماذا سيفعل رفاقي الذين لم يأت أحد لاصطحابهم فبقوا واقفين ينتظرون بصحبة الجنود. التلميذان الغريبان، لم يأت أحد لاصطحابهما، ربما لم يتوقع أهلهما أن يحضرا على هذه الصورة المباغتة، لا اعرف لماذا كنت قلقا عليهما مع ان الخطر لا يطال الغرب.

الغرب، بكسر الغين أو بضمّها في بعض اللهجات، وهي جمع الغريب اي الغرباء أنفسهم، علما ان الغَرب بفتح الغين هو نفسه الاتجاه الذي يأتي منه من ليسوا منّا، الطارئون علينا، فنتشدق بالقول بمناسبة او بدونها انه لا يأتينا من بينهم مَنْ يسرّ القلب. يحمل هؤلاء الداخلون علينا معهم ما يدل عليهم وعلى غربتهم ما ان يتكلمون. فالغريب تشي به اولا لهجته وهي عموما مضحكة ونحن نستغرب كثيرا كيف تصبح احيانا لهجة واحد منا، ابن عمّ أو جار، أمضى سنة او سنتين في مدرسة قريبة من العاصمة، تتغير لهجته لتصبح اقرب الى كلام البيارتة او أهل كسروان. وتلك لهجات لا نستسيغها اطلاقا، نحاول تقليدها دون نجاح كي نسخر من المتكلمين بها وهم يُلحقون بآخر كلماتهم حرف الشين او يلفظون القاف كاملة على غرار أهل الشوف، وليس بتخفيفها الى همزة المخفف كما نفعل نحن. كأن هذه الخصوصيات الساخرة تجعل المتلفظين بها على درجة لا جدال فيها من البلاهة وخفة العقل لا يمكننا تحمّلها. واذا ردّوا لنا الصاع بالهزء من لهجتنا التي نكثر فيها من اصوات الضم، فتتحول معها مناداة الشقيق، "خيي"، الى "خيّو" والوالد، "بيي"، الى "بيّو"، نقول تلطيفا وتبريرا اننا ورثناها من السريانية التي ندّعي احيانا انها لغتنا الأصل وأن لا عيب في ذلك بل فيه شيء من الفخر والعراقة. والغريب

يُعرف ايضا ويُفتضح خاصة من أكله. و"أكل الغرابة" موصوف ويكشفهم على وجه الخصوص صنعهم الكبة التي تخرج من بين ايديهم سميكة يضيفون اليها البهار لتطيبيها، او مآكل نسمع باسمها ولا نرى لها أثرا على موائدنا كالأرنبية والأبلمة وغيرهما. والغريب لا يُحصى، ففي استعادة الحوادث التي يسقط فيها قتلى وجرحى لا يرد ذكر الاغراب لا في اسمائهم ولا في اعداد الضحايا من بينهم. واذا انتشر خبر حادث، قتل او اصطدام سيارة، افضل طريقة للتطمين ولتبريد القلق ان يعلن احدهم ان الضحية "غريب"، فينتهي الاستنفار والترقب ويعود الجميع الى ما كانوا عليه. اما الزوجة التي يأتي بها شاب من خارج البلدة فلا اسم لها، فهي "غريبة" ولا ينصح بها عموما لأنها ستكون بالضرورة متطلبة ترهق الزوج الذي لا تتحمله الا بنت بلدته. ولا تبدأ "الغربة" من على بعد كيلومترات بل بمجرد الخروج من البلدة مئات الامتار، تبدأ الغربة من اول قرية تختلط بساتينها ببساتيننا... اما الزمن المطلوب من اجل "التبلّد" فليس مضمونا، ولا يمكنك ان تعرف ابدا متى يتوقف القول فيك وفي أهلك وعائلتك، همسا، انكم "غرباء" جاء بكم أسعد بك من عكار لتبنوا له بيتا. وقد يعتقد السامع غير المطلع ان هذا النزوح المهني حدث البارحة، فاذا به عند التدقيق الاولي في سيرة هذا الوجيه ابن البيت الكبير، قد حصل بالتأكيد قبل العام 1887، وهي السنة التي أكتمل فيها البيت الذي بنى اجدادك عقده ورفعوا حجارته المصقولة...

بقيت منشغلا بمصير التلميذين الغريبين اللذين انضما الينا حتى سمعت زمّور البوسطة فألهاني عنهما. فيما نحن تفرقنا على النساء اللواتي قدمن لاصطحابنا، بقي موريس جالسا في مقعد القيادة ينتظر. كان يرخي بيديه على المقود وعيناه الخضراوان لا تزالان مبتلّتين بدموعه الصامتة. وكان من جلسته هذه وارخائه يديه بثقلهما على المقود أن أطلق دون ارادة منه بوق الحافلة فارتعدت النساء وتمسك بعض منهن بالصغار في حركة لاشعورية. سألت خالتي لماذا لم يكمل بنا موريس الى جوار بيوتنا كما يفعل عادة، فنهرتني بأن اتوقف عن التطلع الى الخلف وأن أسرع في المسير. دخلنا مفترقا فغابت عن ناظريّ الحافلة والجنود وجسر الحديد فوق النهر. كانت مجموعة النساء والتلامذة تتقلّص مع سلوك البعض الطرقات المتفرعة من الشارع العام سعيا للوصول الى بيوتهم باقصى سرعة، وكانت النساء ينظرن في جميع الاتجاهات. كانت تصلنا دقات جرس كنيسة السيدة العذراء في الحارة التحتا، لم تكن دقات القداس العادية ولا دقات الحزن الثلاثية، بل دقة واحدة لم نعتد سماعها من قبل، تتموج فوق صمت البلدة يعقبها سكوت طويل، فضربة، فسكوت... لاحظت ان خالتي كانت تعمد كلما اقتربنا من العبور امام احد هذه الزواريب المؤدية الى الحارات الداخلية، الى جعلي أسير من الجهة المقابلة محاوِلة ان تخبئني

بجسمها عندما نصبح مكشوفين من داخل الزاروب. لم ادرك في تلك اللحظة عندما كانت تنقلني من يمينها الى يسارها انها كانت تفضل احتمال اصابتها هي بالطلق الناري الذي سيوجه الينا من عمق احد هذه الشوارع الضيقة. كانت تسرع الخطى وتسحبني معها الى ان انعطفت بي نزولا.

هناك انقلبت الادوار. جاء دورها في التلفت وراءها لتتأكد انه لم يعد هناك احد في مجال صوتها. انتابني شعور باننا مطاردون فاسرعت الخطى هذه المرة دون ان تطلب مني. لكن ما ان تقدمنا قليلاً داخل الحيّ بدا عليها انها ارتاحت قليلا. بدأت تحكي. لا اعرف لماذا راحت تقول ان أفضل شيء حدث لها في حياتها كلها انها لم تتزوج بالرغم من ان أحسن الشباب "طلبوها" وراحت تعدهم: سلمان أبو شلحه وسعيد انطون وثالث سافر الى المكسيك حيث صار واسع الثراء وساهم في بناء الكنيسة الجديدة في البلدة. ساعة خير أنها رفضت الزواج، تتوقف وتقول بنفور مبالغ فيه انها تكره الرجال وغلاظة الرجال ورائحة الرجال، وكذلك الاولاد، ما الفائدة من الاولاد؟

عند مرورنا امام انفراج بين البيوت يسمح بانكشاف الافق توقّفَتْ عن الكلام. أمسكتني من كتفي وأوقفتني كي تدلني الى البلدة الصغيرة الجالسة فوق احدى شرفات الجبل المطل علينا من جهة الشرق لتنبئني بانه لن يبقى فيها حجر على حجر. لم أكوّن فكرة عما يحدث سوى انه ضربة عظيمة لا يريد الكبار اخبارنا بتفاصيلها لكنهم بتلميحاتهم وبما يرتسم على وجوهم كانوا يشعروننا فعلا ان الدنيا تنهار من حولنا. لم افهم ما يحدث الا ساعة التقيت رفيقا من عمري، من أشقياء حارة "العصابة"، فكلمني بلغتي وما قاله لي بقي محفورا في ذهني على انه الرواية "الاولى" لما حدث.

عند دخولنا في الدهليز ضربت خالتي الحازوقة. كانت الشهقة الاولى مفاجئة وقوية بحيث انخلع صدرها الى الوراء وأهتز جسمها كله فتوقفت عن السير وكادت تلتفت حولها لترى من اين خرج هذا الصوت. لكنها لم تتوقف عن الكلام، كانت تسرع في الكلام، تتحدث وحدها، لم تعد تتوجه اليّ، أدركت في ما بعد انها كانت تزيد من سرعتها وانفعالها برمي الكلام في جميع الاتجاهات كلما اقترينا من ساحة الكنيسة. كانت تشتم الرطوبة التي هي حصتنا وداء المفاصل الذي يصيب الصغار وقلة الدين والطمع. تذكر اسماء اناس خانوا الأمانة وآخرين سرقوا وقتلوا... طلبت منها ان تكف عن الحديث هكذا لانها ستحوزق مجددا.

كانت تلك هي الجملة الوحيدة التي تلفظت بها منذ امسكتني بيدي عند نزولي من حافلة موريس. لكنها لم تعرني اهتماما وراحت تكمل وتلعن من اختار هذا المكان لاقامتنا، لماذا لم يختاروا مكانا آخر، على شاطئ البحر نرى منه وجه ربنا، حشرونا هنا بين النهرين... وصلنا الى باب دير الراهبات فسمعنا صوت امرأة تندب عاليا... جمدت خالتي من جديد في مكانها عند سماعها الصوت الابح ثم انهالت على صاحبته باقسى الكلام.

. القحباء هنا منذ الساعة السادسة صباحا، لم تسكت، لم تلتقط انفاسها، لن تبقي احدا حيّا!

ثم سألتني والحازوقة لا تزال تقاطعها بوتيرة متسارعة اذا كنت أعرف كيف أصل وحدي الى البيت. فأومأت برأسي ايجاباً. قل لأمك ان خالتك لم تعد صالحة لشيء. ثم انحنت عليّ واعترفت لي بصوت هامس في اذني انها لم تدخل ساحة الكنيسة حيث نسكن منذ يوم امس. وانها أمضت ساعات النهار والليل وهي تدور حولها، تسترق النظر من خلف البيوت ولا تجرؤ على اطالة النظر، تغمض عينيها وتهرب.

أكملت الطريق وحدي. مئتا متر على الاكثر. قبل ان تتكشف الساحة أمام عيني، رأيت شاعر الوردة واقفا في قبة الكنيسة. فوق، حيث تبيت عصافير السنونو بعد طيرانها الاستعراضي في الربيع على علو منخفض يلامس احيانا رؤوسنا الصغيرة قبيل غروب شمس النهارات. يبني مغارة عيد الميلاد، يسكنها شخوصا كبيرة ويسيّل فيها سواقي الماء شلالات. شاعر الوردة، يصنع طائرات الورق ويملأ جدران الحي كتابات باصابع الفحم تدعو الى وحدة "الهلال الخصيب" وتمجّد "الزعيم"، يوقّعها باسمه المستعار: شاعر الوردة. رأيته يسند ظهره الى الجرس محركا جسمه بهدوء الى الامام والى الوراء دون ان يصدر الجرس اي صوت وهو ينظر الى الساحة من فوق. يشير بيده الى نقاط محددة تحت وهو يعدّ بصوت عال، واحد، أثنين، ثلاثة... الى ان يصل الى العشرة فيضرب يده بقوة على صدره فترجعه الضربة الى الوراء فيدق الجرس ضربة واحدة. ثم يعيد الكرة من جديد، واحد، اثنين، ثلاثة... كانوا عشرة رجال على عشرة أسرّة.

أخرجوا الأسرّة من المنازل المجاورة ومدّدوا القتلى فوقها، أعطتهم أمي سرير أخي الذي يكبرني سنتين وقد ظل هذا التفضيل موضوع جدل بيننا يتكرر طوال مراهقتنا، هو يتباهى وانا أدّعي الاشمئزاز منه. وأعجب من جارتنا التي أصرت على أن يُمدِّد أخوها فوق سريرها هي وكيف لم تعد تغسل الشراشف لتبقى رائحته فيها تشمها على مشتهاها. صارت متسخة سوداء، توقفت عن شمِّها على ما اعتقد لكنها لم تغسلها لانها كلما همّت بذلك تذكرت أخاها.

كانت الساحة مليئة بالنساء والاولاد، مجموعات موزعة حول الاسرّة. الزوجات، الامهات، الاخوات، خصوصا الاخوات، بنات الجيران الصغيرات يقلدن الكبار بامساك شعورهن ربطتين وترقيص رؤوسهن يمينا ويسارا. رأيت بينهم بائع الاقمشة الاحدب ذا الصوت النسائي الرفيع الذي كان يردد اغاني الغرام بفرنسيته الركيكة للفتيات الصغيرات قبل ان يقرصهن في افخاذهن متى سنحت له الفرصة. رأيت كاهنا يبكي. لم أر أثراً للرجال الا الممدين فوق الاسرّة في ثياب ايام الآحاد وقد ارتسمت تعابير وجوههم الى الابد. رأيت امرأة لم أرها في حارتنا من قبل، طويلة بيضاء، تنتقل من سرير الى سرير، تجلس الى جانبهم، ترتب لهم ربطات العنق، ترفع خصلة شعر متدلية على الجبين او تمسح عن الخد بقعة دم او غبار، تتأمل الوجه قليلا وتكمل دورتها.

- II -

ايليا ابن حارتنا، حارة "العصابة" بتسكين العين كما كنا نسميها نحن الصغار افتخارا، وحيّ "السيّدة الغربي" كما هو مسجّل على بطاقات هوية من كانوا يقيمون فيها يوم دهمهم احصاء 1932 للسكان. يومها عمد موظف مغمور في وزارة الداخلية الى تقسيم البلدة احياء خمسة لا نتذكرها أو نعيد رسم حدودها غير المألوفة إلاّ يوم الانتخاب. وكانت لايليا في الحيّ حصانة يتفق الجميع عليها وتجعل من بطحه أرضا عند الشِجار او قذفه بالحجارة عن بُعد، عملاً غير مأمون النتائج. الحقيقة أنه لم يكن وحده على هذه الحالة من الحصانة، وكنا ندرك انه يتشاطر المعاملة الخاصة مع عدد من الصبية من ابناء اولئك الذين كان يقال فيهم انهم "دفعوا دماً". بينما يسري القانون العام علينا نحن الذين لم يُقتل لنا احد وبقينا نعيش في دَلال أهلنا. فلا ضيم في أن نُعاقب بالشتم او بالجلافة على ما ارتكبه أهلنا من تقاعس وانكفاء. أما اذا تعرض احدهم لايليا . كم كان التقاتل بالأيدي والتقاذف بالشتائم والحجارة رائجا وكم كانت الحاجة دائمة الى العضلات والمقدرة الجسدية . فتقصد أمه كاملة المتجرئ الى بيته ما ان يوافق ايليا بعد تردد وبكاء على التفوه باسمه. ولم يكن ايليا من عزّة نفسه يشي باسم مضطهده الا اذا استنفد وسائل الثأر التي في متناول يده. كان يعرف ربما انه اذا استخدم "امتيازه" في كل مرة لن يبقى له صاحب او نصير بيننا. تخرج عندها كاملة كالعاصفة والشرّ في عينيها، تنطلق ودبّوس الشعر في فمها وهي تربط شعرها خلف رأسها. نرافقها صاخبين مهللين بعد ان يكون بعضنا قد "هرّب" المذنب نزولا الى النهر. تقف كاملة عند باب بيته ولا تدخل، تسند يديها على خصرها وتصرخ على أمه:

. ربّيه وإلاّ اضطر انا لتربيته...

تسايرها المرأة وتروح تتوعّد ابنها "الشيطان" بالعقاب، لكن سرعان ما تتغامز عليها مع جارة اخرى ما ان تدير ظهرها.

كان ايليا من الاولاد القلائل الذين يضعون نظارات سميكة في تلك الايام، في أواخر الستينات.

صحته "رقيقة"!

تفتي فيه أمه دون سوابق صحية له تُذكر، فتُلزمه على الدوام وبعد ممانعة طويلة منه بسترة أضافية او كنزة صوف يلفّ طوقها رقبته وصولا الى أذنيه بينما رفاقه يتباهون في هذه الاثناء والسماء تُنذر بالمطر بقمصان نصف الكمّ. في خروجه النادر الى الطرقات، كان ايليا يحب المشاركة في الشجار ولو لم يكن طرفا فيه. ما ان يبدأ التحدي حتى ينزع نظارتيه خوفاً على عينيه عملا بتوصية أمه. يسلّمها الى رفيق له ويندفع فرحا وسط المعمعة، دون ادنى تقدير للعواقب. يختار الطرف الاقل بأساً والأكثر حاجة للعون، يتسلل بين أرجل الكبار الملتحمين في العراك، يخرمش بأظافره، يقرص، يعضّ، وهو يطلق صيحات حرب ونعوتاً مركّبة ومتسلسلة لتحقير الاخصام في آبائهم وأخوالهم، لم نكن نعرف من اين تأتيه هذه السهولة في ابتداعها. لكن قبل ان ينتبهوا اليه وقبل أن ينال قسطه لطماً وركلاً هذه المرة لأنه المعتدي، يلعلع صوت أمه فينكفئ ايليا تحت صفير رفاقه حزينا متأسفاً، كأنّ حرص أمه عليه حَرَمَه تحقيق انتصار أكيد ووفّر على منازليه عقاباً مبرّحاً.

طفح معها الكيل يوم عاد الى البيت وقد كسر نظّارتيه وعلامات الذعر على وجهه. لم تضطر لتكرار السؤال عليه فهو كان بحاجة ملحّة ايضا لان يخبرها ما حدث معه. راح يحكي وهو يلهث، فوضعت يدها على صدره لتشعر بخفقان قلبه المتواصل وهو يروي لها كيف رافق اثنين من الصيادين الاشقياء الى التلّة بالقرب من "كرخانة" الحرير القديمة. كانا يومها قررا التخلص من الكلب المرافق لهما عادة لانه، بحسب ادعائهما، أصابه الخرف وبدأ منذ شهر يأكل طيور الفرّي التي يسقطانها بدل جلبها اليهما. ايليا يحكي وكاملة تضرب يديها على فخذيها تحسبا للاسوأ. لم يُبلغا ايليا بمخططهما فاستدرجا الكلب الى منحدر.

. هناك هناك، تعالي انظري!

قال ايليا لأمه وهو يقترب من الشبّاك. قرب السياج فتح احدهما قنبلة يدوية ورماها امام الكلب كي يلحق بها، فما كان من الكلب الا أن هرع لالتقاطها حيث أمسك بصاعقها بين فكّيه مانعا انفجارها الذي سيكون محتما في اللحظة التي سيعود ويرميها من فمه. كان ايليا وهو يسرد التفاصيل يحسن استعادة الخوف الذي انتابه هناك بحيث اطلقت كاملة صرخة عند اقتراب الخطر من ابنها، وراحت تتلمّسه في جميع انحاء جسمه خشية ان يكون اصيب ولا يجرؤ على الافصاح. المهم ان الكلب وخلافا لشراهته في أكل الطيور في الآونة الاخيرة قرر، يا أمي، جلب "الطريدة" الى اصحابه، فأصبنا بالهلع وصرخنا الى بعضنا ان يفرّ كل منا في درب مختلف كي نوزّع الخطر. اختار الكلب وبعكس المتوقع منه ان يهمل صاحبيه الصيادين ويلحق برفيقهما الطارئ:

. لحق بي أنا يا أمي كي يسلّمني القنبلة اليدوية!

صرخت كاملة من جديد لكن لحسن الحظ تعثر ايليا وهو يركض فتدحرج ارضا وسحق نظارتيه. ختم ايليا روايته لاهثا كيف نفر الكلب منه، فجأة ودون سبب، في اتجاه آخر سُمع بعده انفجار كبير تتطايرت اثره اشلاء الحيوان المسكين فوق اغصان اشجار الليمون اليافاوي.

. ادخل اغسل وجهك، قالت له كاملة، ودّع اولاد الحرام هؤلاء!

قررت بالصوت العالي وبشهادة الجيران عليها مرتين وثلاثاً في اليوم ابعاد ايليا نهائيا من حارة "العصابة" ومن البلدة كلها. اتصلت بابنة عمها الراهبة في جمعية اخوات الصليب لتساعدها في تسجيله في احدى المدارس الداخلية بالقرب من العاصمة. توسّطت مع ادارة المدرسة من أجل السماح لها بزيارة تفتيشية للمطبخ ولمهجع التلامذة. راحت تشمّ رائحة الشراشف عميقا وتنحني لتنظر تحت الاسرّة وتتأكد من خلوّ المكان من "بعر" فئران، فتحت الشباك لتتأكد من عدم وجود تيارات هوائية قد تصيب ايليا بنزلة صدرية. في هذه الاثناء كان ايليا قد افلت مرتين على الاقل من رقابة أمه ليشارك مرة في صيد السمك الحنكليس بواسطة اصابع الديناميت ومرة في التباري بقياس اعضاء الذكورة بين اولاد الحارة وقوفاً في صف طويل على سطح الطاحون أمام خبير يكبرهم سنّاً يختار البارزين من بينهم فيكسبهم صيتا ومفخرة لا يزولان لسنوات.

وحيدها ايليا، لم تحصل عليه الا بعد جهد جهيد وها هي تراه بعينيها يسلك طريق السوء. لكن الحق يقال انها امرأة قديرة نجحت في انقاذه. فالبعد فعل فعله سريعا، ربما أسرع مما توقعت كاملة. لو سافر الى بلد بعيد وعاد لكنا قلنا على جري عادتنا أن البحر "لطشه"، لكنه لم يتجاوز بيروت، رحلة ساعة ونصف ساعة بالسيارة. لا نعرف ماذا حدث له في مدرسته الجديدة او ربما، كما يعتقد بعضنا الآن بعد أن درس وعركته الحياة، ربما يكون خرج في تلك الفترة بالذات من طفولة متأخرة ليدخل دون سابق انذار في مراهقة حزينة ومكبوتة. تحدثنا في شأنه مرارا لكن المهم أن انقلابه المفاجئ زاد من الصيت الحسن الذي كانت تتمتع به مدارس بيروت عندنا. صار خجولا بين عيد الميلاد وعيد الفصح، هذّبته المدرسة، انقلب في غيبة ثلاثة أشهر فقط. رجع الى أمه يوم خميس الغسل ليبقى عندها اسبوعا واحدا.

كان يمضي وقته مستلقياً على الشرفة، مكتفياً بهذا المربّع الصغير المطوّق بالنباتات المتفتحة على اول زهور الربيع بالوانها الزاهية. كأنه صار هنا، في بيته في حارة "العصابة"، منفياً موقتاً عن موطنه الاصلي يعدّ الأيام التي تفصله عن العودة اليه. يحمل في يده كتابا سميكا لا يرفع رأسه عنه، فترمي كاملة عليه حِراماً من الصوف ما ان تشعر بنسمة باردة يمكن أن تتسبب له بـ"صفقة هواء" هي في غنى عنها. يناديه رفاق الامس اذا مرّوا عمداً او صدفة في محاذاة البيت فلا يجيب. يرمونه بحجارة رفيعة للفت انتباهه بغفلة عن كاملة المشغولة في الداخل أمام المجلى تطبخ وتنفخ، او يصفّرون باصبعين في الفم لاستفزازه، فلا يأبه. كأنه لا يسمعهم،

كأنه سابح في عالم كُتُبه. فيتبادلون نظرات الاستغراب، يرفع أحدهم كتفيه لامبالياً ويقررون الانصراف لانهم بلغوا سناً ما عادوا يستَجدون فيها الصداقات.

ذات يوم، في أحدى زياراته، في عيد رأس السنة التالية، جاء ومعه أكورديون. أنزلته سيارة التاكسي بعيدا في ذلك اليوم فحزّم الآلة النبيذية اللون اللمّاعة فوق ظهره ومشى تحت رذاذ المطر صوب البيت كالجندي المنضبط الحامل متاعه ليلحق به رهط من المتسكعين الفضوليين الصغار. بعد الظهر، توقف المطر. تنادى اولاد الحي الصغار أنفسهم للتجمع بالقرب من شرفة منزل كاملة ما ان نفخ فيه اول لحن له. راحوا ينظرون اليه صامتين وهو يفتح الآلة الى آخرها، على مدى ذراعيه، يفتحها ليعود ويضمها، منحنيا فوقها تارة، مغمضا عينيه احيانا، كأنه يتألم مع لحنها الحزين او يرقّص رجليه فرحاً بايقاعها المتسارع. يتمايل معها راقصاً وينقر برشاقة مفاتيحها السوداء والبيضاء العديدة فيخرج منها هذا الصوت الرقراق الجديد الذي لم تعتده يوماً أزقة الحي المتعرجة والرطبة. يتوقف المزيد من المارة للاصغاء اليه. بالرغم من انه عزف في البداية للحشد الصغير المشدوه لحناً شائعاً يعرفونه من الاذاعات، "زوروني كل سنة مرة"، الا انهم أدركوا وهم يتابعونه مذهولين يعزف بعدها بشغف الحاناً غريبة لا يعرفونها، أدركوا انهم عبثا يحاولون، فايليا هجر عالمهم. هجر ضفاف النهر وسرقة الخوخ والاكي دنيا في مواسمها والعاب التحدي والمكابدة، هجرها دون رجعة هذه المرة. انتقل الى حيّز آخر لا يعرفونه وحتى ان البعض أحس أن ايليا نسي اسماءهم. لم يتغير من باب الحذر على مستقبله كما تريد أمه، ولا تكبّراً كما يمكن الافتراض، بل كأنه أنشغل فجأة بأمور أخرى أكثر أهمية. لم يتمكنوا مثلاً من فهم الاقدار التي جعلته مؤهّلاً للفوز بالمرتبة الاولى في مسابقة الشعر باللغة الفرنسية لتلامذة المدارس، وقد رأوا صورته في جريدة "التلغراف" وهو يتسلّم من منظمي المسابقة طائراً معدنياً برّاقاً فارداً جناحيه يقف على رجل واحدة. وبقوا هم في جلافة احوال آبائهم اذا تعثروا بحجر في الطريق شتموا القديسين والأموات، واذا رماهم عابر سبيل بنظرة متفحصة أوقفوه ليسألوه عن مراده بلهجة يملأها الوعيد... لكنهم اقلعوا عن دعوة ايليا الى العابهم او حتى عن مجرد التحرش به.

اندلعت الحرب وكانت مدرسة ايليا قريبة من خطوط التماس، فقالت كاملة:

. أكلنا نصيبنا مرة، يكفينا...

حاولت تهريب ابنها موقتاً من بيروت الى احد المصايف في الجبل حيث لرهبنة ابنة عمّها دير تقيم فيه فوقعوا في طريقهم صعوداً على حاجز مسلح. لم يعرفوا في زحمة السيارات وبسبب جهلهم للمنطقة التي كانوا يعبرونها اذا كان المسلحون يوقفون المسيحيين او المسلمين. اكتفت كاملة بفزعتها وسلّمته للراهبة حيث لم ينم أكثر من ليلتين إذ بدأت الحرب تنتشر صعودا

والقذائف تقترب من محيط الدير. فوضعت الراهبات له سريرا في القبو لينام قبل ان تهرع كاملة من جديد لتعيده اليها، الى بيتها في حارة "العصابة" وقد سلكا قبل ان يصلا من بيروت الى البلدة طرقات جبلية متعرجة.

اضطر ايليا الى الاقامة الجبرية عندنا. ومن جديد لم يبق طويلا في الاسر اذ لم تتأخر المخاطر في اللحاق به عندنا. الحرب كانت تتسرب كالماء الى كل المناطق التي يمكن ان تصل اليها. وصلت الينا اولاً على صورة شائعات لم تنقطع عن هجوم وشيك حشد له الطرف المقابل مقاتلين من جنسيات وحتى من الوان مختلفة. ولما بدأ رفع المتاريس وظهور شبان يرتدون ثياب القتال ويقودون سيارات جيب شبه عسكرية رسمت عليها شعارات حروب قديمة جرت قبل الف عام، اتخذت كاملة القرار الاصعب.

. الى الخارج، الى بلاد الله الواسعة. مات واحد، لن يموت الثاني.

استغلت احدى فترات وقف اطلاق النار لتنظم رحلته. حزمت حقائبه وحشرت فيها الكنزات والقمصان والثياب الداخلية حتى بلغت حمولته ضعف المسموح به. اضطرت الى التوسط مع صاحب مكتب السفريات الذي لجأ الى معارفه من المسؤولين في المطار كي لا يُفرض عليها دفع غرامة كبيرة. ولم يعرف احد بأي حيلة نجحت كاملة في مرافقة ايليا الى داخل غرفة المسافرين ومن هناك الى نقطة التفتيش الاخيرة حيث تشاجرت مع رجال الجمارك حرصا منها على ألا يرموا له بشيء من اغراضه. رافقتها منتهى التي أخبرت في الحارة ان كاملة كانت منشغلة طوال الوقت بحقائب ايليا ومؤونته من الأكل فلم يتسن لها ذرف دمعة واحدة على ذهابه.

لم يرجع. كان يصلها منه مرتين او ثلاثاً في العام رسالة من مدينة نيويورك. صفحة صغيرة وبضعة اسطر كالعادة، ما يكفي ليؤكد لها انه لا يزال على قيد الحياة. اضافة الى ما كان يخبرها به طلاب عائدون أنهوا دراستهم في ولايات أميركية مجاورة سمعوا عنه اكثر مما رأوه. لا بل يمكن الجزم تقريبا بأن جميع شبان البلدة، وقد بلغ عددهم العشرة تقريباً في أوج الحرب، الذين ألّفوا في ما بينهم هناك مجتمعاً مشدود الاواصر لم يشاهدوه مرة في لقاءاتهم الدورية. لا في قداس صبيحة يوم الاحد الذي لا مفر منه في كنيسة مار مارون ولا في ما يليه من غداء وشرب عرق وتحضير التبولة والدموع المتلألئة في العيون عند سماع اغاني فيروز. كان بعضهم يأتي بالطائرة من ولايات أخرى كي لا يفوّتوا فرصة اللقاء هذه. لم يلتقوا به لكنهم سمعوا عنه الكثير، كان اسمه يرِد في قائمة شفهية متداولة لابناء البلدة الذين برزوا في بعض

المجالات ولو أن "أختصاصه" بقي غامضاً... ومن رأوه لمرة أو مرتين يصفونه كأنه شخص آخر، وقفة المعجب بنفسه، المنشغل بذكائه، يتحدث بلهجة سكان ولايات الميدل ويست، يمسح كل شيء بنظراته المتيقظة. كأنه من الاميركيين المهتمين بالمشرق يلقون مواعظ بلغة الخشب حول الاصلاح "البنيوي" في العالم العربي من على شاشة "سي أن أن" في اوقات متأخرة من الليل او مبكرة جدا من الصباح. يشبههم فعلا. طويل، نحيف، ربطة عنق فاقعة بألوان تلفزيونية، طليق اللسان، يجد التعابير المناسبة بسرعة مذهلة، كأنه يقرأ أجوبته في كتاب...

غرق هناك الى أن اكتشفه منذ وقت قصير واحد من أبناء الحارة عندنا، هنا في حارة "العصابة" نفسها، من الذين ادار لهم ايليا ظهره ومشى الى دنيا الله الواسعة. لم يفلت منهم، استرجعوه. وجده واحد من النوابغ المحليين الصغار على شبكة الانترنيت وهو يقتل السويداء بالملاحة عبرها دون هدف في ليالي البلدة التي تنام باكرا. بحث عنه في "غوغل" الذي كانت شهرته قد ذاعت حديثا فحوّله "غوغل" الى مواقع أخرى ومن عنوان الى عنوان حتى وصل أخيرا الى موقع خاص راح يجزم بين رفاقه انه لايليا ولو انه لا يحمل اسم ايليا بل اشتقاق يمكن التكهن بصعوبة أنه يرمز الى نبي التوراة.

وزّع الشاب عنوان الموقع على رفاقه الذين راحوا يزورونه من وقت لآخر، بين موقع اباحي ودردشة باسماء مستعارة سرعان ما تتحول الى تبادل للشتائم بواسطة الكلمات الانكليزية المعدودة التي اكتسبوها من مشاهدة افلام العنف الاميركية. لم يكتشفوا ما يدل على سيرة ايليا الذاتية او مكان ولادته. فعل كل شيء، ايليا، كي لا يترك وراءه أثرا يدل عليه. لا أسم علم ولا اشارة الى لبنان او الى بلدته او حتى الى بلاد العرب او لغتهم. وقد أنزل على موقعه ذات يوم صورة له نصف عار فوق رمال احد الشواطئ والى جانبه تقف فتاة شقراء بلباس البحر ايضا يلقي عليها نظرة شغف، فتأكدوا من هويته ولو انه كان من دون نظارات. وكانوا يتسلون من وقت الى آخر بقراءة ما يزيّن به مفكرته اليومية من اقوال مأثورة، وكان اختار منها واحداً استخدمه شعارا ثابتاً له: "سأدوّن افكاري هنا، دون ترتيب وربما في ارتباك مقصود. انه النظام الحقيقي الذي سيطبع مشروعي هذا بطابع الفوضى".

في هذه الاثناء كانت "الماء السوداء" حولت أمه كاملة الى شبه عمياء. عالمها راح يضيق، كلما ضاق سهل عليها التنقل. هجرت الغرف وصالون البيت لتمضي يومها واقفة في مطبخها المعتم خلف المجلى او جالسة على الشرفة التي يعصى فيئها العميق حتى على حرّ شهر آب. يدها خضراء، كاملة. تضيف كل يوم آنية نبات جديدة وتقول انها تفضل زهرة المحكمة التي تغلق اوراقها ظهراً، ساعة انفضاض عقد المحكمة. جالسة لا تحدق في شيء، تعرف الجيران من وقع خطواتهم. معلمة المدرسة التي تطقطق بكعبها العالي فرحة بسيارتها

الجديدة بعد ان استأنفت الشركات التقسيط للزبائن من ذوي الدخل المحدود. المغنّي الاعمى تقوده ابنته الى مقاهي النهر أو حتى وقع حوافر الحمار العائد محملا حزمة قصب يصنع منها الرجل صاحب الشروال الذي يقوده سلالاً من كل الاحجام. وتعرف الغرباء ايضا، وقع الاقدام الجديدة. تكلم من تشاء وإن لامها أحدهم لتجاهلها أياه تذرّعت بقصر نظرها. تجلس طويلاً وحدها. يبدو احيانا ان كاملة عاشت خفوت نظرها كما يتابع المتأمل الهادئ أفول الضوء في الغسق، بُعيد غياب الشمس...

ذات يوم، وصلتها رسالة من ايليا، كأنها جاءت في غير وقتها، مباشرة بعد رسالة سابقة أو بعد طول انقطاع، فانتابها شعور غريب. باتت عاجزة عن القراءة. اضطرت لمناداة منتهى، جارتها ورفيقة حياتها، كي تقرأ لها الرسالة. منتهى قرأت لنفسها اولا وراحت تخبرها شيئا فشيئا. معتادتان الواحدة منهما على الاخرى وعلى المناكدة اللطيفة. ابتسمت كاملة لما عرفت ان ابنها آت لزيارتها. لكنها لم تصرخ فرحا.

وصل ايليا الى مطار بيروت يوم الاحد بعد الظهر. كانت كاملة في انتظاره هناك مع نفر من جيرانها الذين رافقوها في سيارتين واقنعوها بعد جدال طويل بكسر الحداد وارتداء الفستان الازرق الذي خاطته ليوم خروجها الاخير. رافقوها ولم ينتبهوا إلاّ هناك، في ردهة الوصول وسط خلق الله المزدحمين ينتظرون أقاربهم العائدين، ان كاملة لا يمكن ان ترى ابنها وهم لا يعرفونه، واذا كان منهم من رآه صغيرا فقد لا يتعرف عليه اليوم بعد أن يكون قد شاب او فقد شعره.

. هو يعرفني!

حسمت كاملة الارتباك واخرجت من كيسها الكبير صورته يوم حاز شهادة البكالوريا بعلامات عالية. صورة من الحجم الكبير ضمن اطار عريض رفعتها فوق رأسها وهم يدفعون بها الى الصف الامامي من المستقبلين. انتظروا علّه يكون في عداد من يدفعون بحقائبهم وهم يتطلعون بلهفة الى اقاربهم المنتظرين. مرّ ايليا دون أن يلتفت لكنه سمع صوتا ينادي:

. ايليا! ايليا!

فعاد أدراجه وكان العناق طويلا. كاملة تشمّه في وجهه وثيابه وتتلمسه بيديها والجيران ينتظرون واقفين. تسببت بعرقلة سير في بهو المطار وهي ممسكة برأس ايليا تقبّله ولم ينجح في الافلات منها الا تحت ضغط طابور المسافرين وحقائبهم. ابتعد عنها قليلا ليتمكن من تأملها فانتبه بسبب حركتها البطيئة وطريقة استخدامها ليديها انها قد تكون فقدت بصرها. دمعت عيناه حتى كادت عدسته اللاصقة تسقط من عينه اليمنى. بقي ممسكا بيدها طوال الطريق في السيارة حتى بلغوا البلدة وكان الوقت ليلا.

بعد يومين على وصول ايليا التأم شمل بعض الاقارب عند كاملة في فيء شرفتها يهنئونها بسلامته ويتسقطون اخباره. زياراتهم لها كانت نادرة، يخشونها، بالرغم من تقدمها في السن لا تزال تخرمش وبقساوة. عودة ايليا ربما تليّن من عريكتها. بدأوا يدلون بدلوهم:

. اذا كنت شاطرة يا كاملة، لن تدعيه يسافر مجددا، ألا تخوله شهاداته ان يجد وظيفة له هنا؟

تبدو مستسلمة:

. يا ريت! أخذ فرصة من شغله هناك لشهر واحد فقط، انه مضطر الى العودة.

تكذب ثم تتنهد:

. يلاّ! راح العمر، لم يبق سوى يومين...

يرفعون من معنوياتها، يقترحون مشروعا متكاملا:

. بيتك واسع، واذا اراد يمكنه ان يضيف طابقاً علوياً، تقنعينه ان ينجب لك ولدين او ثلاثة، تبدأين باجراء العملية لعينيك، انها سهلة تتم من دون جراحة، باللايزر فقط وتنقضي بالاقامة يوما واحدا فقط في المستشفى...

تنفعل. كأنهم لسعوها:

. لماذا أجري العملية؟ حفظت المنظر عن ظهر قلب. ثم ماذا تريدونني ان أرى من هنا؟ هذه البقرة زوجة ابراهيم الحلبي على السطح تنشّر ثيابها الداخلية وهي تتمخطر؟ أم واجهة بيت ابو منصور الجرداء؟ أكيد لن أعيش الى اليوم الذي سيعيدون فيه طلاءها، فالدين عليهم شعر كلبين...

ها هي تعود. ما ان تتكلم حتى تطلق النار رشقاً في كل الاتجاهات.

لا فائدة ترجى، يغيّرون الحديث ويفكّرون في تحيّن الفرصة للانصراف الى بيوتهم واشغالهم.

كأنها تشعر انها خيّبت أملهم. لا بد لها ان تسايرهم بكلمة:

. كنت اعرف ان ايليا جايي هذه السنة وفي هذه الايام بالذات...

كيف يصدّقونها؟

. قلت انك تسلمت منه مكتوبا يقول فيه انه راجع...

. قبل المكتوب كنت اتوقع قدومه. تخيلت انه سيحضر فجأة دون ان يبلغني... صرت، حتى قبل أن تقرأ لي منتهى رسالته، كلما دق الباب أصرخ "من؟" لعله يجيبني...

. كيف عرفت؟

. الأم تعرف.

ادعاء يشبهها. تعرف كل شيء ولا يمكن مجادلتها. سألوها من ضجرهم منها:

. كيف ذلك وهو لم يعد مرة واحدة في أكثر من عشرين عاما؟

. لأنه في آخر شهر نيسان المقبل يكون قد أصبح في عمر والده يوم قتل في حادثة برج الهوا...

لم يضف احد من الاقارب كلمة ولا حتى تنهيدة. انتظروا اشارة او حركة لكي يتغامزوا وينهضوا معاً. الحمدلله على سلامته، من جديد.

من زمان لم تعد كاملة تقف لتودع زوارها.

III

يوم نجح فريد في تفصيل بنطلون رجّالي دون ان يستشير المعلم بولس ودون ان "يزوّع" "ثوب" الجوخ، لم يخبر أحدا. لم يفاخر بكلمة واحدة بانجازه. فالصمت فكرته عن الرجولة، وفي تلك الأيام كانت الرجولة في أوجها. لكن اتقانه التفصيل وحده لم يكن ليمنح فريد لقب "معلّم". يَدُه لا تزال ثقيلة بعض الشيء وهو يضرب المقص في القماش، ولم يكن قد جلس بعد وراء ماكينة

الدرز. الزمن وحده ينتزع له اللقب، ليس قبل ان يفتح محله الخاص في كل حال وأن "يربّي" لنفسه بعض الزبائن.

كان نجاحه في التفصيل دون مشورة ودون تزويع في العام 1956 وكان الجوخ الانكليزي الرمادي اللون والمقلّم رفيعا مفخرة الشباب. الى جانب تدخين "اللاكي سترايك" وعلبتها الورق الناعمة ظاهرة في جيب القميص الشفّاف. وكان جمال عبد الناصر يؤمم قناة السويس، "شركة قناة السويس العالمية" كما سمّاها في خطابه.

فريد بدوي السمعاني.

24 عاما.

رقم السجل: 65/124

عازب.

اسم الأم: سوسان ورده.

المهنة: لا شيء.

العينان: عسليّتان.

الشاربان: خفيفان.

الشعر: اسود جعدي.

علامات فارقة: تؤلولة على الخد الايسر.

اقتربت الانتخابات. مقعدان للقضاء واربعة مرشحين، أربع عائلات. المنافسة حادة، لن يترك فريد أقاربه عند حاجتهم اليه، يلقّبونه "ابو علي" بين الحين والآخر، لقب القبضايات، انهم يتّكلون عليه. النساء، عندما يمرّ أمام البيوت المفتوحة أبوابها على الطريق، النساء يأكلنه بنظراتهن. لن يخيّب أمل النساء. صار الجميع يعرفون أفعاله، يتناقلونها وهو يكثر منها. يفعل ولا يخبر. يندفع دون اشارة، دون طلب.

سمع ان مختار قرية علمات الفوقا يهدد انصارهم بعظائم الامور اذا اقترعوا الى جانب آل السمعاني. متحمس معهم كأنه من صلبهم، مختار علمات الفوقا. يعرفه جيدا. قصده الى بيته في المساء. وحده. طلب من احد اصدقائه ان يقلّه بسيارته الى أول القرية ويعود ادراجه. خاف المختار بمجرد ان رآه واقفا في الباب، المختار من عمر والده لو بقي والده حيّاً. بكت زوجته وابنته، توسّلتا اليه ان يعفو عنه.

. تحلق شاربيك من طرف واحد! الآن، أمامي!

هذا كل ما قاله فريد. كاد الرجل يدمع من القهر. شاربا المختار مشهوران. منذ نبتت ذقنه لم يشاهده أحد بدونهما. شجعته زوجته فانصاع.

وصل الخبر الى المعلم بولس. نصحه بالتوقف. اقترب منه، سحب قطعة القماش من بين يديه كي يرغمه على الاصغاء:

. أنتم بيت أوادم، يا فريد...

يقصد والده على الأرجح. والده واعمامه.

رِجال تعبوا، أمضوا حياتهم ينهضون قبل ضوء النهار وينامون قبل العتمة. قادوا البغال، مكاريّون كل يوم في طريق. والده باع البغل وعمل في الحَجَر. مهنة أوادم ايضا، ومهنة تعب ايضا. ادواته لا تزال في البيت، الازميل، البيك والدردبيك. تحفة والده وراء الباب، جرن من الحجر السمّاقي الاحمر.

. ...

. هذه الطريق لن توصلك يا فريد...

صمت الرجولة نفسه.

يجلس وحده فريد، في غرفة بيته التي لا تطلّ على مكان. يجلس بعد الظهر قبالة الجدار الابيض العاري الا من روزنامة قديمة. تتركه أمه وتزور الجيران. يبقى جالسا وحده، ساعة وساعتين.

كذلك في المقهى، يجلس مستنفرا، يختار كرسي الخيزران بعناية، يريده ثابتا، نظيفا. مع ذلك يمسحه من بعض غبار خفيف. صاروا يعرفونه، يعرفون كيف يجلس، يدير الكرسي بحيث يتمكن من الاتكاء بكوعه على مسنده، يبقي جسمه منتصبا، ظهره مكشوف، يداعب مسبحة الكوربا، كأنه يتمتع بصمته.

شعره مسرّح، يلمع بالـ"بريل كريم"، شاخصٌ في ذاته، فريد.

صور المرشحين بدأت تُلصق على زجاج السيارات وعلى القبعات. بعض المتحمسين يصنعون لها اطارا خشبياً مذهّباً ويعلقونها في بيوتهم الى جانب صورة قلب يسوع. فريد يحب زعيم عائلته لكنه لا يحب الصور، إذا حكى يسمّي ذلك كله "مظاهر".

لا يحب المظاهر.

فريد كان لا يزال مهتما بنفسه. بمظهره هو. غواية الرجال كانت تتردد، تبحث عن عناصرها بعد زوال موضة الجزمة العالية وسروال ركوب الخيل والشاربين الرفيعين المعكوفين الى أعلى. تردد قبل شراء قبعة اميركية وراح يلبسها مائلة يوم الاحد فقط. صار ينتبه الى التفاصيل. نزع الشعر عن اذنيه، الاستحمام، اختيار الالوان، تفاصيل الاناقة. شيئا فشيئا.

ثم كان المسدس.
جاء اسمه من الطلقات الست في البداية، عند وصول الموديلات الأولى.
ثم انتشر كالوباء.
ومعه تعابيره واصنافه.

انه الفرد، السلاح الفردي ربما، تشكّه في خصرك الى اليمين ان لم تكن أعسر واذا كان الدقّ محشوراً والضرب في اللحم وارداً، تضعه في جيب سترتك الواسعة ويدك ممسكة به. قبل ان تكتشف في افلام السينما الاميركية ان له مكاناً في متناول اليد لجهة القلب او حتى مربوطاً في الرجل، للغدر عند الحاجة. تسحبه فاذا كان مخرطشاً او مصليّاً تقوّص دحشاً (عن كثب) او نشلاً (دون ان تصوّب عبر النيشان) والاّ سبقك الخصم وحدث لك ما لم تكن تتمناه. استعاروا له من الطير الديك والاصابة الدقيقة من "عين الدوري" اذا كنت تحسن التهديف، ومن النبات القمحة (او علامة التصويب الامامية فوق الفوهة) ومن الدواب البوز ومن الجسم القبضة والظفر (النتوء الحديدي الذي يميز المسدسات القديمة) والمشط (من مشط اليد مثلا) ومن الانسان البيت، بيتا من الجلد يضاف اليه بيتان صغيران للممشطين ومن مكان ما استعاروا له النيشان. تصر ان تُعطى معه رصاصاً حرّاقاً او خرّاقاً او متفجراً فتدكّه على مهل كي لا تدخل احدى الرصاصات موارية فيروكب بين يديك عند الاستعمال. منكّل او بدون تنكيل (من معدن النيكل الابيض)، ابو أكرة، تسعة محيّر، تشيكي، 12، 14 (اشارة الى مسدسات الهرستال البلجيكية الصنع)، كولت أميركي، أفخر ما يمكنك اقتناؤه قبل ظهور الـ "سميث اند وسون".

. كولت 9 !
. ثمنه غال عليك، يا فريد، ومسدسك لا يزال جديدا لم تطلق منه اكثر من مشطين. انا بعتك اياه وأعرفه.
. كولت 9 !

. الـ 12 الهرستال أحسن من الكولت.

وضع فريد اصبعه على صدغه:

. مزاج!

توقف النقاش:

. غدا تحصل عليه.

. بكم؟

. 540 ليرة، ربحي 40 ليرة، بشرفي، اقاسمك اياها، 520، آخر كلمة.

ابتسم فريد. يعرفه كذاب لكن يحبه.

. أدفع لك نصف المبلغ وتمهلني شهرا للباقي.

فقير الحال، فريد، لكنه يدفع.

يُمهلونه.

رفاقه علموا به. صاروا يطالبون برؤية الكولت 9. يقلّبونه بين ايديهم ويتمتعون باحتواء قبضته العريضة في كفهم وإطباق اصابعهم عليها. منهم من كان يصوّب الى هدف وهمي ثم ينزل يده ويهزّ رأسه استحسانا دون أن يوضح سبب هذا الاستحسان. لا يبعد فريد نظره عن المسدس طالما كان ينتقل بين أيدي رفاقه، يخاف عليه أن يُجرح أو أن يقع ارضاً. لا يرتاح الا عندما يستردّه ويدخله الى "بيته" المثبت في حزامه.

لعبته، تحفته.

والده بدوي السمعاني صنع تحفته بيده. جرّ الحجر من مقلع عينطورين بواسطة بغلين. رماه أمام باب بيته، تحت شجرة الكينا. كان يعمل عليه بعد تسريبه من شغله في ورش البناء أو في أيام المطر والعطالة. سنة كاملة، كلّفه، نحتاً وتقصيباً. جرن للنظر كما كان يقول. لم يسمح لزوجته بأن تنعّم فيه اللحم ولو مرة واحدة. صنع لها جرنا آخر لتنعيم اللحم من أجل تحضير الكبّة.

فريد اشترى تحفته. الكولت 9. حرم نفسه من كل شيء طوال ثلاثة أشهر، يعطيه المعلم بولس 200 ليرة في الشهر، لا يصل آخر الشهر الا ويكون قد سحبها منه ليرة وراء ليرة. لا يشبع من تحسس المسدس على خصره في كل مرة يكون فيها وحده وراء طاولة التفصيل. يلهيه عن الشغل، يُهمل القميص الذي يفتح فيه عروات ليمسحه. يرفعه اعلى من وجهه وهو ممسك بقبضته فيلمع في الضوء الداخل من الشباك المفتوح على الشارع كي يتأكد ان غبارا لم يعلق به. يلهث عليه تكرارا ليعود ويمسحه جيدا ببطانة سترته كما يلهث اصحاب النظارات على زجاجها قبل تنظيفها.

يخاف عليه المعلم بولس. يدخل الى المحل وعلامات القلق على وجهه، ينتزع السروال مرة أخرى من بين يدي فريد، يضع المكواة جانبا ويسأله:

. كنت في الامس في جنازة الشيخ ملحم في كنيسة السيّدة، أليس كذلك؟

. كنت. انه من أقارب أمي.

قطّب المعلم بولس حاجبيه متذكرا. ابتسم فريد قليلا وأضاف:

. لم يحدث شيء في جنازة الشيخ ملحم... الناس يبالغون، من أخبرك؟

اكتفى المعلم بولس بالتنهد.

لم يحدث شيء.

جاؤوا مع زعيمهم، لم يُعرف من نَعَاهم. عشرون رجلا جاؤوا، لا أكثر. أحاطوا به طوال الوقت، لم يغفلوا عنه لحظة. مشوا متجهمين، يرمقون الآخرين نارا. كانت عين فريد تسبقه الى أناقتهم. زعيمهم الشاب، محام تخرج مؤخرا من الجامعة اليسوعية في بيروت، يقولون انه قابل السير انطوني ايدن عندما جاء قبل عام في زيارة لبيروت من ضمن جولة على عواصم الشرق الاوسط من أجل حشد التأييد ضد عبد الناصر. أول مرة يشاهده فريد عن كثب. رأى صورته ملصقة على الجدران. لم يتخيله قصير القامة كما هو عليه، ينتعل الحذاء البني والابيض الذي لم يتمكن فريد من شرائه حتى الآن. سيوصي عليه يوما، بعد مسدس الكولت 9 وبعد ربطة عنق من الحرير الخالص، يعرف فريد الحرير من لمعته. ثلاثة او اربعة من مرافقي الزعيم الشاب كانوا يلبسون الشروال ويعتمرون الطربوش. الطقس حار، منتصف شهر أيار. الجميع يرتدون الجاكيتات. منهم من لا يملك ربما جاكيت صيفية ارتدى السترة الشتوية التي تزيد الحر والشدّ العصبي.

اذاً، على كل خصر مسدس.

تحت كل جاكيت مسدس.

في شملة الشروال مسدس ايضا.

والامر ذاته من جانب ابناء عم فريد وانصارهم. آل السمعاني يفوقون أخصامهم عددا وهم في حارتهم، في الطريق الى كنيستهم. يا ليت هؤلاء المتجمعين حول زعيمهم المحامي الشاب يخطئون. يا ليتهم يفعلونها. بدأ التدافع عند دخول المسيرة شارعا ضيقا. تدافع بالاكتاف. لم يكن يسمع سوى دبيب الارجل على الاسفلت المفلوش حديثا على طريق الكنيسة. كأن مرافقي الزعيم حاولوا ان يشقوا له طريقاً، ان يبعدوا عنه الاجسام التي التصقت به من ضيق الممر. يصرون على دائرة الفراغ حوله.

الوجوه تنقبض اكثر فأكثر. رأى فريد الكثيرين من الرجال، ممن لا قربى لهم ولا مصلحة، يغادرون من المسيرة متوغلين يمينا ويسارا في الشوارع الصغيرة الضيقة المتفرعة من الطريق العام. يهربون دون ان يلتفتوا وراءهم، أناس مسالمون، يفضلون العودة الى بيوتهم. لم تكن تسمع في هذه الاثناء سوى تراتيل اعضاء الاخوية الحاملين بساط الرحمة في الصفوف الامامية.

كان مسدس فريد ملقّماً. الكولت 9. ما ان شعر بالتحدي حتى حدد لنفسه هدفاً. عرف على من سيطلق النار وخطط تماما كيف سيتصرف، في اي اتجاه سيندفع، ماذا سيفعل بيده اليسرى وكيف لن يترك لمرافقي المحامي الشاب الوقت الكافي ليحموه باجسادهم. سيصيبه في رأسه، ثلاث طلقات على الأقل وباقي الطلقات يحمي بها انسحابه. كانوا يدفعون زعيمهم أكثر مما يمشي هو بنفسه.

أنهى ابناء الاخوية ترنيمتهم مع وصولهم في طليعة الموكب الى باب الكنيسة، فكان صمت سُمع فيه فقط لهاث الرجال وتدافع الاجسام. بلغ الجمع ساحة الكنيسة الواسعة فانفكّ الناس بعضهم عن بعض وبقيت النظرات متوعدة ولو عن بعد.

فعلا لم يحدث شيء.

حتى بعض النساء في الصفوف الخلفية لم ينتبهن الى التدافع وواصلن ثرثرتهن المعتادة في الموكب المتناثر شيئا فشيئا على طول الطريق المؤدي الى الكنيسة.

كانت جنازة الشيخ ملحم مجرد تمرين عام على ما سيحصل بعد أقل من شهر من الزمن في حزيران، في جنازة أخرى وفي قرية أخرى جاثمة فوق احد مشارف الجبل القريب.

المعلم بولس يكاد يفقد الأمل في تحسين سيرة فريد. لا يبقى امامه سوى ان يشجعه على الغربة:

. لماذا لا تسافر الى اوستراليا، يا فريد؟ لديك هناك أقارب كثر وأحوالهم جيدة، أليس كذلك؟

دبابيس التفصيل في فمه منعت فريد من الاجابة.

. انظر الى اخيك شفيق، لا يهتم بذلك كله.

يبتسم فريد ساخرا. لا، شفيق ليس مثله الأعلى في الحياة.

لا اوهام لدى المعلم بولس حول مستقبل مهنة الخياطة. لن تعيل جيلا بعد جيله. ما حصل للكندرجية سيحصل للخياطين. الكندرجية كسّروا محتويات محل الاحذية الجاهزة الذي افتتح في الشارع الرئيسي للبلدة واقتادهم رجال الدرك الى السجن. لكن ما النفع؟ تمرجل

الكندرجية لكن الخياطين اكثر جبنا بكثير من الكندرجية، يعرفهم المعلم بولس واحداً واحداً.
المهنة صعبة وفريد ليس شاطراً بما فيه الكفاية.
. يقولون ان اوستراليا بلاد حلوة...
يضيف المعلم بولس.
كثر من جيل فريد سافروا. منهم من تعذب كثيرا، ذهبوا وحدهم على بركة الله دون قريب يستقبلهم هناك. منهم من نام في العراء في الايام الاولى، فوق مقاعد الكنيسة او في حديقة عامة. اما هو فرحلته مؤمنة من الالف الى الياء. البرنامج جاهز:
يترك لبنان في مطلع الصيف أو في شهر تشرين، كما يشاء.
يركب الباخرة من مرفأ بيروت. رحلة طويلة لكن مسلية.
يرسل اليه زوج خالته تكاليف السفر، ما زالوا يسمّونه "الناولون"، يسدد المال على راحته، هناك، بعد ان يبدأ العمل ويقبض راتبه. الراتب اسبوعي في اوستراليا.
العمل ينتظره في الفبركة. انهم بحاجة لعمال في سيدني.
في الخياطة اذا شاء لكن أخبروه أنها هناك شغلة نساء عموما. في صناعة الأحذية اذا اراد ومتى تجمع له مبلغ من المال يفتح لنفسه مصبغة ثياب أو دكان سمانة.
بعثوا له بصورتهم مجتمعين وصورة لبيتهم مع درابزين خشبي ابيض وصورة كونغورو يحمل ابنه في بطنه. نسكن على شاطئ البحر، كتبوا له، في منطقة "كودجي" في سيدني، الموج يصل احيانا الى درج مدخل بيتنا. نجلس احيانا في الصيف تحت الشمسيات، يغمر الموج ارجلنا.
طلبوا منه ان يحمل معه حجرا صغيرا من حجارة بيتهم في البلدة. تذكار.
آخر مكتوب وصله كان يحتوي على صورة ابنة خالته.
وجهها عريض، مليئة وضاحكة. تشبه أمه.
تنتظرك، كتبوا له على قفا الصورة.
اعتقد انها تنتظره وهي جالسة على كرسي هزّاز والموج يغمر رجليها.
أرسلوا له المال من اوستراليا، دون ان ينتظروا جوابه. حاولوا تشجيعه هكذا.
خالته هناك اضجرتهم من كثرة ما عرضت صورته بالقبعة الاميركية المائلة ومن فرط ما امتدحت هيبته.

. لا أحب السفر في البحر. من يسلّم روحه للماء؟
قال فريد بعد ان انتهى من شك الدبابيس في التفصيلة.
كان يكذب والمعلم بولس يعرف أنه يكذب.

الساعات طويلة، الشغل في الخياطة بطيء، لا بد من تسلية بالكلام، كلام البنات والزواج هذه المرة.

. إما ان تسافر او تبحث عن بنت حلال...

بنت حلال؟ لا، فريد ليس بارعا، فالغرام لسان وهو لا يتقن الكلام.

خوخ الدبّ، فريد بدوي السمعاني،

يقول عنه من لا يوفرون احدا بسهامهم في مقهى الساحة.

الرجال الطويلو اللسان يتناولونه لكنهم يأبون شرّه.

منظر شهي، خوخ الدبّ، أخضر فاتح على لمعة زهرية.

لكن حذار القضم فالطعم مرّ..

يُسمعونه أياها احيانا، جاء خوخ الدب، ما ان يلمحونه خارجا من احد الشوارع الضيقة ومتجها نحو المقهى، اهلا بخوخ الدبّ، ما ان يجلس بينهم وهو يبتسم دون ضغينة، ليتابعهم صامتا وهم يلعبون الورق. جميعهم يلعبون، يخسرون، يغضبون، يربحون، أما هو فيبقى متفرجا. يقول أحدهم انه حتى لا يعرف قواعد اللعبة ومع ذلك يتابع. يدّعي انه لا يلعب كي يتمكن بعد قليل من العودة الى محل الخياطة. يتهمه المعلم بولس بأنه ينظر الى حذائه فلا تعجبه لمعته فيترك التفصيلة جانبا ويقصد المقهى. يصفّر لماسح الاحذية الذي يلحق به الى الداخل فينكب معه على الحذاء يطالبه بالسخاء بالدهان وضرب الفرشاة جيدا عند الكعب.

الخياطة صعبة عليه. تتعبه من فرط التركيز. يعلّم القماش بالصابونة الصغيرة، يلقط كسرة البنطلون بالابرة والخيط، يحتال على العروة بالخيطان الرفيعة. أصابعه غليظة لا تطيعه، إذا اضطر الى إبرة وخيط عالجها طويلا أو نادى على احد يعبّرها له. يضيق نَفَسُه فيخرج الى المقهى ويغضّ المعلم بولس الطرف عنه.

لم يكن الانتقال سهلا عليه، في جيل واحد. اولا البغال، حَديها وتحميلها بأثقل الاحمال واذا بَرَكَت إشعال النار تحت ذنبها كي تنهض وضربها حتى يسيل الدم من افخاذها او عضّها في اذنها كما كان عمه يفعل كي يجبرها على الوقوف، من بعدها الحجر السمّاقي ومن هناك الى الجوخ الانكليزي دفعة واحدة.

خوخ الدب، لا يأبه لما يقوله الناس.

يقبل المزاح لكنه لا يكسر عينه أمام احد. اذا نظرت اليه كأنك تحرجه. رخو لكنه بليد.

جرّبوه، في مطعم ام ريمون. كانوا الى الطاولة المجاورة، يشربون العرق ويأكلون، سعيد ابراهيم وانطانيوس الخوري. جاءت عينه في عين سعيد. خطير سعيد ابراهيم، يُحسب له ألف

حساب. تطلعا الواحد بالآخر. دون رفة جفن. طال التحدي، فريد لا ينزل عينه، مستحيل. انسحب الزبائن واحدا تلو الآخر. لا احد يحب الموت عن طريق الخطأ.

رئيس الجمهورية يسعى الى التجديد، هكذا يُنقل عنه ولو أنه يؤخر الاعلان عن رغبته.

الخياط المتمرّن فريد السمعاني من انصار التجديد.

عائلته وزعيمها كذلك.

يسمع بائع الصحف المتجول يكرّر العناوين صارخاً في الأزقة ويكتفي.

لا يشتري الجريدة فهو يقرأ بصعوبة.

أخصام الرئيس يُهزمون في انتخابات المناطق واحداً تلو الآخر. تزوير وضغوط ورشوة، يقولون.

بقيت محافظة الشمال، الانتخابات ستجري فيها بعد أسبوعين.

سيردّ فريد المال الى خالته مع اول مسافر الى سيدني. لا، لا يستجدي من أحد مالاً. انه مكتف بما هو عليه. سيردّ المال لانه باق هنا، فريد بدوي السمعاني، 24 عاما، اسم الام سوسان ورده، الطول 182 سم، علامات فارقة: تؤلولة على الخد الايمن، باق ليجلس في المساء في مطعم صغير، صاحبته امرأة خمسينية لا تزال آثار جمالها بادية. يجلس مع رفيق له او ابن عم امام سيخَين من لحم الماعز المشوي وصحن من الحمص. يضربان كأسيهما واحدة بالاخرى عند اول رشفة من العرق المكسور بالماء. يشربان بحدّة، كل جرعة عرق مثلّث كأنها العذاب المرّ. لا يأكل فريد، لا يحكي ولا يأكل، واذا أكل بعد دعوة متكررة من جليسه فاليسير اليسير، لقمة او لقمتين وكفى. يدخّن بدل الاكل لفائف اللاكي سترايك بكثرة على العشاء. عند بلوغه كأس العرق الثالثة، يطفح وجهه احمراراً فيغور اكثر واكثر في نفسه، يصغي الى رفيقه ولا يحكي. ربما يحاول جاهدا الاصغاء الى صوت دفين في نفسه يقول له كلاما غامضاً. ينتابه شعور غريب، يرفع كأسه من جديد ويسرح الى البعيد.

الليل يعيده اليها.

قوّاد، الليل، لا مفر منه.

حاول عبثا التحرر لكنها لذة حياته.

الليل، الأكل على الطاولة، لفائف اللاكي سترايك، العرق.

وهي.

باق فريد السمعاني من أجل عائلته ربما، من اجل حماسة القتال والكولت 9، لكنه بالتأكيد باق من أجلها. باق ليدندن بصوت هامس حوالى الساعة الحادية عشرة شيئا من العتابا ثم يستأذن لينسحب سيرا على الاقدام. أمره ليس خافيا على رفاقه، يدعون له بالتوفيق مبتسمين. يعرفون.

ينزل في عتمة داكنة لا يخاف الا منها، من رصاص ينطلق فجأة من العتمة ويصيبه. ينزل في اتجاه النهر، يعبر جسر الحجر، يمر في الطريق الترابي المحاذي للدير الى جانب اشجار الصبير ليصل الى بيتها الصغير، شبابيكه زرقاء. تترك له كل ليلة الباب الخلفي مفتوحا، رائحة براز البقر تنبعث من حظيرة مجاورة. تنتظره في قميص نومها الزهري الشفاف وهي عارية تماما من تحته. يحب ان يأتي ويراها عارية تماما من تحت القميص. لا تحب. كرر عليها الطلب، لا ترفض له طلباً.

تسمع زيزقة الباب الخلفي، تعرف انه وصل، تهرع الى نزع سروالها الداخلي وحمّالة النهدين قبل ان يدخل اليها في غرفة النوم. تطلب منه السكوت فقط كي لا يوقظ الاولاد في الغرفة المجاورة. ينزع مسدسه والممشطين، يضعهما على الكرسي المجاور للسرير. يمسكها من كتفيها، ترتعش من اللذة وتغمض عينيها. لا تجرؤ على مطالبته بالزواج منها، تخاف ان يتوقف عن المجيء اليها. يرمقها بنظرة قوية يخفي وراءها شهوة جامحة. العرق المثلث لا يزال عابقا في رأسه، يرميها فوق السرير دون ان يخلع ثيابه، الرجل لا يخلع ثيابه. في المرات الاولى كانت تستسلم له كما كانت تستسلم لزوجها. احدى جاراتها العارفة بسرها علّمتها الممانعة.

. الرجال يحبّون الممانعة، جرّبي، قالت لها، اغلقي فخذيك، اهربي منه وسترين...

يهتاج ويزأر، يعضّها، تعلّم اصابعه أحمر في ظهرها. تقول امرأة أخرى انها "كتبت" له، سحرته. يقول رفاق له انها المرأة الوحيدة في حياته. يضرب ويعيد الكرة ويعيد، يحملها عاليا ويرميها من جديد ويرتمي فوقها الى ان تستسلم فعلا في النهاية وترجوه التوقف. يمضي الليل عندها، في القرية الصغيرة المجاورة، مسدسه قريب من يده. يفتح عينيه ويصغي جيدا ما ان يسمع خربشة أو مواء. يحب ملمسها، لا يشبع منها، لا يغمض له جفن.

لا يتصور انه سيجد لذة في الدنيا اكبر من رجوعه من عند الارملة الصبية وضؤ الفجر قد بدأ يجهجه. يمشي متمهلا في الطريق المحاطة باشجار الحور الباسق التي يصل اليها ضباب النهر الابيض الشفاف فيرسم عليها زخارف تذكّر بالخمار المطرز الذي يغطي رؤوس الملائكة في صورة السيدة العذراء في الكنيسة. يمشي وهو يصفّر فلا تطير العصافير ولا تتوقف عن ولولتها كأنها اعتادت عليه يمر متمهلاً ومرفوع الرأس في الصباحات الباكرة الى جانب اشجار الصبير متوجها نحو جسر الحجر ليعبر فوق النهر وغبطة خفيفة تدفعه الى يوم جديد...

-IV-

يخرج كل يوم من البيت حوالى العاشرة.

. يطيل النوم ايليا، لماذا؟

يسألون كاملة كأنهم ينكرون عليه كسله هذا.

يمشي وهو يتلفت يمينا وشمالا كمن يكتشف حارة "العصابة" للمرة الأولى. شباب الحيّ الصغار يتهامسون عند مروره.

هذا هو، يعرفونه من موقعه الالكتروني، ايليانو دوت اورغ. يقرأون فيه جملة منسوبة الى فيلسوف الماني يعجزون عن لفظ اسمه تليها وصفة شوربة البصل مع ما يليق بها من نبيذ

أحمر. لم ترافقه الفتاة الاميركية الشقراء التي رأوها برفقته في ثياب البحر. قالوا انها تشبه غوينث بلليترو. طمعوا برؤيتها.

يمشي وحده. يبدو هائماً. متسكعا دون هدف.

وشوا به الى كاملة من اليوم الاول.

. الى اين ذهبت طوال هذا الوقت؟

سألته عند عودته ظهرا.

. مشيت في الشوارع.

لا تصدّقه:

. جئت من هناك، من آخر الدنيا، لتمشي في الشوارع؟

يبتسم.

. ماذا تحمل فوق كتفك؟

. هذه هي العادة هناك. الرجال يحملون حقائب اليد.

. ماذا ترسم وماذا تسجل على الدفتر؟

يضحك.

. لماذا تصوّر البيوت القديمة والاولاد الصغار؟

. تصلك الاخبار وانت هنا؟

تكبّر المسألة:

. تكذب عليّ. لماذا رجعت من اميركا؟

يصغّرها:

. رجعت كي أراك، يا ستّ كاملة.

. اذا كنت رجعت كي تراني فاجلس معي هنا في البيت. تتصرف كأنه ليس بيتك، هذا رزقكم، هذا لبيت الكفوري...

لا ينتزع منها حتى ابتسامة رضا.

تستيقظ في الخامسة، تستنفر على الشرفة. تروح وتجيء كأنها في دورة حراسة. لا تتلمس الازهار أو تدوس تربتها كما اعتادت كل صباح، بل تهمس للأولاد ان يبتعدوا بهتافاتهم من تحت الشباك. ترفع يدها استنكارا ولو عن بعد ودون نتيجة كلما سمعت سيارة تطلق منبهها حذرا عند المنعطف الذي لا بد ان يشهد اصطداما واحدا على الاقل في الاسبوع. اذا سألتها جارة

"عنه" أمالت خدها على يدها واغمضت عينيها في اشارة الى انه لا يزال نائما ودعوة ايمائية الى المرأة كي تتوقف عن رفع صوتها.

تحضر له الفطور على مهل، القهوة وعصير الليمون ومربّى الاجاص. حفظت من قبل سفره انه كان يحب مربّى الاجاص:

. كنت تمسك الاجاصة وترفعها بالاصبعين وتنزلها في فمك.

هو نسي أنه كان يحب مربّى الاجاص.

يستيقظ، يلبس ثيابه بسرعة، يأكل لقمة واحدة كي لا يُزعلها وينطلق.

ستحضر له ترويقة مماثلة كاملة في صباح اليوم التالي.

تناديه:

. ايليا!

يرجع اليها من عند الباب.

. على الأقل لا تدعهم يتناولونك بالكلام.

. لا تخافي.

كانت خشية كاملة في محلها.

شيء ما في مشيته والتفاتاته يثير الانتباه. في الايام الاولى كان يتفحصه بائع الخضر وهو يعيد ترتيب اصنافه الملونة الممتدة الى وسط الرصيف، وكذلك يفعل اللحّام البدين الجالس يوم الجمعة امام دكانه يشحذ سكاكينه على مهل استعدادا لذبيحة الغد. تابعه بنظراتهم اللجوجة رجال الدرك الضجورون المعنيون بحراسة السرايا الحكومية وهم يتمازحون بكلام لا يريدونه ان يقع في آذان النساء. لاحقه سائقو السيارات العمومية وهم ينتظرون الركاب القلائل في الساحة تحت الشمس الحارقة يحمون رؤوسهم بقبعات رياضية مضحكة قياسا على أعمارهم وأجسامهم المترهّلة.

شكله مألوف بالرغم من التحسينات الأميركية على هندامه، لكن مسلكه غريب. بعد وقت قصير، إما انه غيّر من مشيته فراح يسرع ولو انه لا يقصد وجهة معينة، وإما انهم اعتادوا عليه فأهملوه. ساميٌّ بين الساميين بأنفه القوي وشعره الاسود.

يحاول قدر الامكان التزام الرصيف كما يفعل في المدينة القادم منها. البلدية هنا تعيد تبليط الشوارع القديمة بأحجار البازلت السوداء بفضل قرض من دون فائدة من البنك الدولي. يتوغل، تضيق الطرقات، تتعرج، يزداد التفرّس فيه، لا يعير الأمر اهتماماً.

يسير ببطء في محاذاة البيوت، قبل ساعة الظهر بقليل. يتوقف فجأة، ينظر من الشبابيك المفتوحة الى داخل الغرف، تنظر اليه المرأة الجالسة أمام الباب كأنها تحرسه. تسأله إن كان يبحث عن أحد، يبتسم، يتذكر.

كان يمر هنا في طريق العودة من المدرسة، من كل باب من هذه الابواب الواطئة كانت تتبعث رائحة. كان الصغار يتكهنون بأكلة الغداء، يختلفون احيانا في التعرف عليها لكنهم يرفعون انوفهم تكبرا على الفاصولياء بالارز ويكبتون الرغبة القوية ايام الجمعة في السمك المقلي الذي كانت امهاتهم تمنع عليهم أكله ساخناً. يبتسم ويحاول من جديد بعد ثلاثين عاما. يتوقف عند باب مفتوح على مصراعيه، يوجه انفه الى الداخل النظيف والمرتّب ويشتمّ بقوة. لا شيء. لا بد ان الروائح كانت اقوى في الصغر!

عند عودته يجد الغداء جاهزا. غداء أمه كاملة. تمضي طوال قبل الظهر في تحضيره. وتحضير الأكل يعني الطبخ، على نار طويلة، طبخ باللبن والأرزّ، فالأكل بحسب كاملة هو ما يُرتشف ساخنا بالملعقة أما الباقي فنواشف لا ترطّب القلب. ولا تقيت.

يغضب ايليا فيعظها بشيء من الحدة:

. تطبخين فقط، قبلت بذلك لانك عنيدة... لكن عليك ان تنتظريني كي أصل وأحضّر انا طاولة الأكل. خلص، لا تتعبي نفسك بها.

لأن كاملة ترتّب المائدة أيضا وهذا ما لم يتحمله ايليا.

ينظر الى الطاولة.

باقة الزهر الاصطناعية التي باخت الوانها على مرّ السنين ليست في الوسط حيث افترضت كاملة انها وضعتها، لا بد انها ترددت وتلمّست المكان قبل ان تقرر مكانها ولم توفّق، المسافات غير متناسقة بين الصحون والسكاكين والملاعق، شرشف الطاولة تعلوه البقع من جراء محاولاتها الفاشلة لملء الكؤوس بالماء.

يهدّدها:

. اذا رجعت غداً ووجدت الطاولة مهيّأة سأخرج وآكل في المطعم...

يعرف الولد كيف يؤذي امه اذا اراد.

في اليوم التالي يحاول ايليا ترتيب الطاولة، تسمع كاملة من المطبخ رنين كأس او قرقعة الملاعق فتصرخ:

. ماذا تفعل؟

لا يأبه لها. يسألها:

. كيف تطبخين؟

. عن الغائب، طعم أكلي لم يتغير منذ بدأت الطبخ، حتى بعد أن شحّ نظري... ستتذوق الآن هذه الهندباء بالبصل المحمّر أكيد انك لم تأكلها منذ عشرين عاما، طعمها لا يزال هو هو...

لم تجد كاملة طريقة للتعبير عن الامومة التي انقطعت عنها كل هذه السنين الا بالتصرف مع ايليا كأنه قاصر. كأن ابنها ما زال هو نفسه الذي كانت توصي السائق في كل مرة يستقل فيها سيارة ان يقود على مهل، وفي كل مرة يسارع فيها ايليا الى ارتشاف "اللبنية" تحذره بانها لا تزال ساخنة قد تحرق حلقه...

تجالسه ولا تأكل.

. أكلت.

تقول اذا دعاها ايليا لمشاركته.

. متى؟

. وأنا اتذوق الطبخة فوق النار...

. سافرت الى أميركا وانا اعتقد انك لا تأكلين...

تكتّف كاملة يديها وتصغي. استفهاماتها محددة:

. بيتك واسع هناك؟

يبتسم.

. كم غرفة؟

. غرفة واحدة.

. غرفة واحدة؟

. غرفة كبيرة.

. من يغسل لك ثيابك؟

. مغسلة الحيّ.

. ...

. الآلة...

. تأكل جيدا؟

. لا تخافي عليّ.

. من يطبخ لك؟

يضحك ويقول:

. *لو روليه داركاشون...*

لا تفهم ولا تسأل.

هذا تقريبا كل شيء. الباقي تفاصيل. لم تسأله عن الزواج.

جاء دوره هو في الاستفهام.

بعد تردد وتخطيط دقيق طرح عليها السؤال كأنه خطر بباله فجأة.

. يا أمي، ألم يبق عندنا شيء من والدي؟

. شيء من والدك؟

. صورة، أغراض...

لم ينجح في مفاجأتها، كانت تنتظر السؤال، من ساعة عودته على الارجح. لم تنبس بكلمة بل نهضت عن كرسيها وتوجهت الى غرفتها. لا تتردد في خطواتها، تعرف الطريق الى غرفتها ولو أنها ربما راحت تخشى مع اقامة ايليا في البيت أن يحرّك قطعة أثاث من هنا أو يضع كرسياً في الفسحة الصغيرة. تخاف الوقوع وكسر عظامها، ستحتاج عندها للآخرين، لفتاة تخدمها. لا تريد أحدا معها.

عادت بعلبة خشبية مستديرة، وقفت وقالت له:

. تفضل، هذا ما كان في جيوب والدك عندما وجدناه في المستشفى انا وأمي ومنتهى وحميد السمعاني، خذها، انها لك، خذها معك الى أميركا اذا احببت.

الباقي؟

اعطت ثيابه للفقراء كما يفعل الجميع هنا مع ثياب الموتى. كان لديه ايضا اوراق لعب وفيش للكازينو ارسلتها الى فؤاد وبطرس الرامي، شريكيه في القمار.

تعجب ايليا كيف انه لم يجد هذه العلبة بوسائله الخاصة. فتحها في غرفة النوم، لم يجد الكثير. نقود ومسبحة قيل له انها من حجر الكوربا الثمين واوراق بينها بطاقة صغيرة مطبوع عليها اسم احد المصورين المتجولين، نيشان دافيديان.

سأل عنه فقيل له انه "هرب" الى المدينة من زمان.

في المقهى لا يسألونه الكثير. يجالسهم، وجوه عابسة كأنها ولدت هكذا. عاطلون عن العمل ومنهم من يرتدي ثيابا فاخرة ويعقد ربطات عنق باريسية، هواتفهم المحمولة موضوعة امامهم على الطاولة، يشربون القهوة ويدخنون بانتظام. يسألونه فقط عن صحة أمه وعن احوال غربته الطويلة. يلمح احيانا مسدسا على خصر احدهم وهو يحسّن من جلسته او عندما يخرج مالا من جيبه ليدفع لماسح الاحذية الذي يدور عليهم يلمّع احذيتهم.

سيتحادثون بأمره ما ان يخرج من الباب الزجاجي بعد محاولة يائسة منه لدفع الحساب.
غمزوا الغارسون سلفا بأن لا يقبل منه المال. كلامهم قليل لكن آراءهم نهائية. مقيمون هنا، في بيوت ورثوها عن جدودهم لا يترددون على المدينة الا في ما ندر، لا شغل لهم فيها، يقولون. واذا قرروا الذهاب فمرة واحدة الى البعيد البعيد. الى بلدة على ضفة نهر الاورينوك يفتحون لهم فيها دكانا يتاجرون فيه بالثياب الجاهزة ويعاشرون النساء من اهل البلاد دون زواج. إما حيّ كرم التين بين اخي وابن عمي وابن عمتي، وإما مدينة سان فيليكس في جوار خط الاستواء.
انضم اليهم لأن هناك من قال له ان الرجل الذي يشبه لوكا برازي في فيلم "العراب"، الجالس بينهم والأكثر عبوسا وسَماراً كان برفقة والده لحظة مقتله.

انفرط عقدهم مرة فنجح في الانفراد به.

بدأ معه من البداية:

. قيل لي انك تعرف ما حصل... لماذا قتلوا والدي؟

. قتلوه لأنه كان واقفا هناك... هذا حظّه.

. واقفا؟

. نعم. كان واقفا الى جانبي في الساحة.

. يعني أنهم قتلوه عن طريق الخطأ؟

. كلا، لم يقتلوه عن طريق الخطأ.

. قصدوا قتله؟

. لا اعرف إن كانوا قصدوا قتله، أعرف انهم رأوه وعرفوا من هو وأطلقوا عليه النار.
أصابوه في ظهره. طلقين. قيل لي انه لم يمت على الفور.

. هل كان يطلق النار؟

. كلا، بل كان في خط اطلاق النار.

. كيف ذلك؟ لا أفهم.

. كان وسط المعركة دون أن يسعى الى ذلك. انه ليس من أهل المعارك، والدك، كان لطيفا، كان يمازح الجميع ويتحمل مزاح الجميع. عندما كنا نحصي الرجال الذين نتكل عليهم في القتال لم نكن نحسبه ولا هو كان يريد أن نحسبه.

. هل سقط اناس ابرياء؟

. نعم. عديدون.

. لماذا هؤلاء ابرياء؟

. لانهم غرب، لا دخل لهم، خطيئتهم الوحيدة انهم كانوا حاضرين القداس...

. هل كان والدي يحمل السلاح؟

. نعم، لحماية نفسه. كنا جميعا نحمل السلاح. كان اشترى مسدسه قبل أيام قليلة.

. هل كانت له سوابق في اطلاق النار؟

. كلا. والدك رجل آدمي...

يتوقف الحديث قليلا، يستأنفه الرجل:

. لماذا عدت؟

. لأزور أمي بعد غياب عشرين عاماً.

. بارك الله فيك... نصيحة مني، لا تسمع كلام أي كان.

. اعتقدت اني عندما أصل من اميركا سأتمكن من رؤية زهر اللوز الابيض مع اني اتذكر أن هذا موسمه.

. كان الربيع مبكرا هذه السنة فتساقط قبل وصولك. بلّغ سلامي الى كاملة.

يعود الى شوارع البلدة. يحاول تذكّر الحدود وإعادة رسمها.

يكتب في دفتره: "الأمكنة كما هي، الناس كما هم، عيون النساء، سكوت الرجال. كنا في صغرنا نلعب ونتجول داخل حارتنا، وها انا أجول فيها الآن، نزولا باتجاه النهر، لم يتغيّر بيت واحد، الكبار كانوا يشترون من دكاكين الحارة ويصلّون في كنيستها ويطحنون القمح في طاحونها... كنا نسمع بأحياء أخصامنا ولا نراها، قبل ان اسافر الى نيويورك لم أمر مرة على قدميّ في حارتهم. اجتزناها بالسيارة مرتين فقط. كنت اخاف حتى من هذا العبور السريع، اخاف ان يعترضوا سبيلنا وينزلونا من السيارة ليوقفونا امام جدار ويطلقوا علينا النار. كنت افكر هكذا مع اني كنت اراهم يسيرون في الطرقات او يتحادثون في ما بينهم غير آبهين بالسيارات التي تسلك الطريق وبمن تحملهم من ركاب. حارتهم لا تصل اليها أرجلنا، كنا نعرف اننا عندما نبلغ في نزهاتنا مفترق الطرق نكون قد تجاوزنا منطقة الأمان فنعود أدراجنا دون تشاور في ما بيننا ودون ان يحذر احدنا الآخرين. سأزور حارتهم الآن لكني أضعت الحدود بين الحارتين... ربما انا أمشي فيها الآن دون أن أدري".

يرسم ايليا وردة الرياح في اعلى الصفحة، يخطط الشوارع الرئيسية وبعض الشوارع المتفرعة منها، يضع اشارات تدل على موقع بيوت زعماء العائلات وصلبانا تدل على مكان الكنائس. في كل حي كنيسة ولكل حي كاهن ولحّام وصانع احذية. عندما تعذر على أهالي الحارة التحتا أيصال جثامين قتلاهم الى "التربة" العمومية تدبروا أمرهم فاختاروا بستانا صغيرا يسهل عليهم حمل موتاهم اليه. يبتعد ويعود الى بستان اللوز، والده مدفون هناك. يفكر في بناء

مدفن خاص له لكنه يعرف ان أمه ستعترض. يجب ان يبقوا معاً، ماتوا معاً ويبقون معاً، تقول كاملة. وكذلك يقول الجميع.

يلتقط صورا لبيوت الزعماء وللكنائس. يوقف احد المارة ليسأله عن خط اطلاق النار.

يريد أن يعرف اين هو.

. أي اطلاق نار؟

. سنة 1958.

تجحظ عينا الرجل من هذه المباغتة التي تعيده عقودا الى الوراء وقبل ان يقرر الاجابة يسأله:

. من انت؟ صحافي؟

. ايليا الكفوري.

يتردد الرجل.

. من أين أعرفك؟

. لا تعرفني.

. ابن من انت اذن؟

لن يتلفظ الرجل بكلمة واحدة قبل ان يعرف في أذن من ستقع.

. ابن يوسف فريد ميخائيل الكفوري.

جواب كامل على اربعة اجيال. يتعرف عليه الرجل، يرتاح اليه. تنفرج أساريره.

. أنت ابن كاملة؟

. انا أبن كاملة.

يعانقه، يعرفه صغيرا، ينسى السؤال ويبدأ بالاطمئنان عليه وعلى اشغاله. يحاول ايليا من جديد فيشير الرجل بيده يمينا ويسارا.

. كانت المتاريس منصوبة على سطح معصرة الزيتون... هناك.

. أين تنتهي الحارة التحتا؟

يرتبك الرجل. يعرف أين تنتهي الحارة التحتا لكنه لا يعرف كيف يدله. يشير بيده، يرسم خطا مستقيما يخترق البيوت. كان يجد مشقّة في الكلام وليس لديه ما يقوله. يعرف ما حدث، عاشه او سمع به لكنه لا يبدو انه يجد أي فائدة في سرد التفاصيل من جديد. يغيّر الموضوع.

يكمل ايليا دورته، يتبعه بعض الاولاد بسبب آلة التصوير والحقيبة في كتفه، يصل الى ساحة الكنيسة. لا بد أن تنتهي الجولة هناك، في الأزقة الرطبة. يدخل الى كنيسة السيدة من بابها الخلفي، من باب النساء، كما كان يفعل في صغره. ترمقه المرأة العجوز الراكعة وسط الكنيسة وذراعاها مرفوعتان الى السماء. يغطُّ اصابعه في جرن الماء المقدسه، ينظر الى

الملائكة الصغار المحيطين بالعذراء، يرسم اشارة الصليب، يبالغ في حركات يده، يركع في احد المقاعد الامامية ويحني رأسه متأملا.

يكتب في دفتره: "بلدتي مليئة بصور القديسين والتماثيل المطلية بالالوان الزاهية والمزارات الصغيرة على جوانب الطرق . ألوان الصور بهيجة ايضا ومليئة بالتفاصيل، فيها الكثير من الحيوانات. تنين مار جرجس المخيف ينفث لهبا احمر ودواجن المزرعة الهانئة المحيطة بمار انطونيوس تنظر الى المصلّين. لكن هناك مسحة حزن خفيفة تلف دائما وجوه القديسين".

يعود الى المقهى، يشبعونه عموميات.

. كنا قلبا واحدا وربّا واحدا، يقول أحدهم.

الرجل الذي يشبه لوكا برازي في فيلم "العراب" توجه اليه بالقول دون مقدمات، كأنه يكمل حديثهما السابق:

. وصلنا معا، انا ووالدك في السيارة نفسها، سيارة اجرة، عاد السائق أدراجه وتركنا فوق، كنا سنتدبر أمر العودة مع بعض اصحابنا. لم نتجه صوب الكنيسة، وقفنا في باب احد الدكاكين، في الساحة، لم نكن نريد الدخول، كان والدك يضيق خلقه من حضور الجنازات. نمضي وقت الصلاة خارج الكنيسة وعند انتهاء الجنازة نقترب للمشاركة في التعزية. كان الطقس حارا، كان كل منا يشرب قنينة كوكاكولا عندما سمعنا الطلقات الاولى. عند انهمار الرصاص أضعته، لم اعرف كيف اختفى...

يرمي الكلام كأنه طعم. يعرف اشياء أخرى بطبيعة الحال. قد يخبره بها لكن ليس في المقهى، على مسمع من الآخرين.

يغيب ايليا لساعات عن البيت وعند عودته يكتشف ان كاملة استغلت غيابه لتعيد كل شيء الى حالته. كأنها خلال وجوده في البيت كانت تسجل كل حركة يأتي بها وكل خربطة يتسبب بها، وعندما يحمل حقيبته وينزل الدرجات القليلة التي تفصل البيت عن الطريق العام، كل شبّاك فتحه على الخارج تغلقه وكل باب اغلقه بين غرف البيت تعيد فتحه، كل فنجان شاي صيني مزّين برسم "روميو وجولييت" انزله الى المائدة تعيده الى مكانه. الستارة تعيد فتحها نصف فتحة. كان ايليا قد اختار سريعا الجلوس في المقعد نفسه كل يوم فيظهر قبالته من خلال الشبّاك منظر جبال وغيوم في الافق العالي يخرّبه الى اليسار وجود بناية كئيبة، يردّ الستارة قليلا كلما جلس كي يكتفي بالمنظر الطبيعي وكل يوم عند عودته وجلوسه ينظر من النافذة فيرى البناية ذات الالوان الباهتة المقيتة تعترض المشهد من جديد فينتبه انها اعادت الستارة الى مكانها تماما.

صورته محمولا على الاكتاف، عيناه مغرورقتان بالدموع وهو في ثياب بطريرك ماروني يوم احد الشعانين والتي أنزلها ليتأملها، تعيدها الى جدار غرفة نومها ولو كلفها ذلك وقتا طويلا وتعب الوقوف ورفع جسمها لتلمّس المسمار وتثبيت الصورة عليه. تعرف بيتها عن ظهر قلب ولا تستقر الا اذا تأكدت ان كل شيء كما يجب ان يكون عليه، تماما كما كان طوال سنوات سكناها وحيدة، دون غلطة واحدة. واذا عاد في المساء واغلق باب المدخل دون اقفاله لا يغمض لها جفن بل تنتظر دخوله الى غرفة النوم لتنهض وتمشي بطيئة الى الباب لتدير المفتاح دورتين كاملتين وتحاول ادارته مرة ثالثة حتى يضرب الحديد بالحديد فتنام.

فور وصوله كان بدأ يفتح الادراج في غفلة عنها، ادراج تصرّ من قلة فتحها، يفتح الخزانة، يجد فقط ثيابها وثيابه عندما كان مقيما معها في البيت قبل سفره. لا صورة لوالده معلقة على جدار، مع ان الجدران مليئة بالصور، لا حذاء، لا ربطة عنق. يبحث عن والده فيقع على آثاره هو. لم ترم أمه شيئا يخصه، مريولان من ايام المدرسة، كتب، العاب و... الاكورديون. انها فخورة بمجموعتها. سريره الاول الهزّاز والذي تزرع فيه الازهار والنبات، دفاتر علامات المدرسة، شهاداته والطائر المعدني البرّاق الواقف على رجل واحدة والذي فاز به في مسابقة الشعر باللغة الفرنسية.

يخرج من البلدة الى حيث كان يصطحبه الاشقياء من رفاقه، يكتب في دفتره: "أسير في طريق من التراب الاحمر يتموج بين اشجار الزيتون الدهرية، اغصانها المتلوية والمتشابكة توحي بالابتهال تارة وبالتمرد تارة اخرى. مرّ قبل قليل في محاذاتي رجل يمتطي حمارا يصدر اصواتا خاصة لتشجيعه على المسير او ليطلب منه التمهل، لكني لم اكن قد اخرجت آلة التصوير فاختفى في المنعطف ولم اتمكن من التقاطه. امرأة مسنّة متلحفة بأسمال من رأسها الى قدميها تجمع الاغصان اليابسة، ربما لتشعلها نارا. او ربما تكون من العفّارين الفقراء الذين يفتشون في الحقل عن بقايا حب الزيتون تحت الاشجار بعد انتهاء اصحابه من قطافه. يقولون هنا ان ابن الملك انحنى عن حصانه ليلمّ حبة الزيتون. هذا في الماضي، اما اليوم فالزيت بخس الثمن والمنافسة على اشدها والاطباء يوصون اكثر فاكثر بتفادي الزيت المحلي لانه مشبع بالاسيد. يمر قطيع ماعز لا ينتهي بقيادة راع دون الرابعة عشرة من العمر، يلوّح بعصا غليظة ويتوجه صعودا نحو الجبال القريبة، يمكن سماع رنين جرس في عنق الكرّاز. إنه الموسم الذي تنتقل فيه القطعان صعودا، الى الجبال العالية. شعور بالقدم والضحالة في آن واحد. كأن الامور تتراكم هنا في الزمان وليس في المكان. فالمكان كما هو منذ الازل. لا يحمل أثرا لمرور السنين. و في الخلف، جبال عالية في سفوحها بقع من الثلج تلمع في ضوء شمس الربيع.   هذه الأرض تذكّر

فعلا بالعهد الجديد كأن بطرس سينكر معلمه يسوع المسيح عند المنعطف التالي، عند باب جبل الزيتون".

يسأل أمه في المساء.

. هل يقول الياس السمعاني الحقيقة؟

انفجرت:

. تستمع الى هذا الجبان؟ هرب، ترك رفاقه وابناء عمه، ومن كثرة خوفه نزل سيرا على الاقدام في الوعر، أضاعوه، أعتقدوا أنه قُتل، ليته قُتل، انه عبء على أهل بيته. لكنه ظهر بعد يومين مثل الذليل. صار يروي حكايات كاذبة عن نفسه وعن الذين تركهم وسط المعمعة...

تأخذها الحماسة، لكنها فجأة تهدأ وتعود الى صلب الموضوع:

. قُتل والدك من ثلاثة واربعين عاما، ماذا تريد؟

يبتسم.

أشبع أمه ابتساما منذ قدومه.

V

جاء الصوت من الخارج، من أمام الباب.

صوت صارم.

أمي غريبة، علّمتنا اشياء كثيرة. ولا تزال تعلمنا حتى اليوم.

علّمتنا مثلا ان نسلّم باليد على الكبار وأن لا ندعهم يمسكوننا من اكتافنا أو يمررون أيديهم على وجوهنا تحبباً وأن لا نُعطي خدودنا لأحد كي يقبّلنا.

علّمتنا ان نطفئ النور في الغرف التي نغادرها وان نغلق باب البيت وراءنا كلما دخلنا منه. وحدها في الحيّ تقفل باب بيتها.

هذا اسمه بيت، تقول.

والدي يحلق ذقنه في الداخل، يتمتع عادة بكل حركة، يأخذ وقته، يطارد الشعيرات الزائدة داخل أنفه دون المساس بشاربيه. يتقن كل ما يقوم به.

لا يسمع والدي نداء الرجل.

كان هذا يوم الأحد. في منتصف شهر حزيران تقريبا. وكان لكل يوم "أصوله" في حسابات أمي وتربيتها لنا. كنا ننتظر والدي لابسين نظيفين متأهبين، نتوزع مسبقا المواقع في المقعد الخلفي للشفروليه الزرقاء.

هكذا أيام الآحاد في فصل الربيع. نتخيل سلفا كيف سيقود السيارة بنا وهو يحني رأسه الى اليسار ويصفّر عند المنعطفات الصعبة. كلما صفّر كنا نضحك في الخفاء، نتغامز انا وشقيقتي. نزور مغارة قاديشا يوم الأحد، نلمس مسلاّت الجليد المتدلية من سقفها بأيدينا، ننادي بعضنا وننتظر رجع الصدى من اعماقها السحيقة، نتناول الغداء في المطعم، يطلب والدي مع الأكل كأساً من العرق. نعود باطار مصنوع من خشب الارز لنضع فيه صورتنا نحن الاربعة واقفين صفاً متدرجاً، من الاطول الى الأقصر منّا. ابنتان اولا ومن بعدنا صبي وصبي آخر كي لا يبقى الصبي الاول وحيداً كما كان يقول والدي.

كرر الرجل النداء. بصوت أعلى. نحن سمعناه، ينادي ولا يقرع الباب.

غريب. أذكر أن العديد من زوارنا كانوا ينادون من الخارج ولا يقرعون الباب اذا وجدوا الباب مغلقاً. ربما احتجاجا لان باب بيتنا دائما مغلق.

أمي واقفة أمام المرآة تضع آخر لمسة من أحمر الشفاه وتتفحص هي أيضا بشرة وجهها بالقرب من عينيها الجميلتين. كانت أمي تهتم ايضا لأمر التجاعيد. تلتفت نحونا وبتكويرة فمها واشارة من سبابتها تفهمنا ان لا نجيب وان لا نصدر صوتا ولا ضجة. علّ الرجل الذي ينادي من الخارج ينصرف.

تخاف على برنامج يوم الأحد الذي وعدتنا به وتخاف من برامج الرجال.

أطل والدي بعدّته الكاملة. الموسى في يده والمنشفة على كتفه ونصف وجهه مغطى بالصابون. كان مرتديا فقط قميصه الداخلي الابيض، "قميص القطن"، كما كنا نسميه.

. من؟

. نحن.

صوتان. رجلان.

عرفهما فنظر الى أمي.

لا يغفر اقاربنا لأمي كونها غريبة، لا يسامحونها على لهجتها ولا على طبخها ولا على أصرارها على أحمر الشفاه وعلى اناقتها. متزوجة فما حاجتها الى أحمر الشفاه؟ ولا يسامحونها ايضا على اغلاقها باب البيت. كأنها تغلقه في وجوههم.

الرجلان ايضا كانا في ثياب يوم الأحد. قدر الامكان.

أي أن البدين ذا الشاربين الدقيقين والذي كنا نعرفه، واسمه أيوب، كان يلبس طقماً رمادياً مرّ عليه بعض الزمن وبقع صغيرة من العرق كانت تنضح على قميصه الابيض المفتوح على صدره بالرغم من اننا لا نزال في ساعات الصباح الاولى.

الآخر طويل، يضع ربطة عنق وعلى رأسه قبعة اميركية مائلة، في فمه سيجارة وله ثؤلولة على خده الايسر. كنا نراه للمرة الأولى وكان ينظر الى داخل البيت بطريقة غريبة. سنعرف في ما بعد ان اسمه كان فريد بدوي السمعاني.

. البس... بدنا نطلع عالجنّاز.

قال البدين، موسى.

. شو في؟

. جنّازة.

. جنازة من؟

. ...

. ...

لاول مرة نسمع ببرج الهوا.

. بعيدة هالضيعه يا أمي؟

. بعيدة. وطريقها صعبة.

أوقفت أمي تبرجها حياءً وقلقاً. تصغي جيدا لما يقوله الرجلان.

. أبعد من المزرعة؟

. ايه، أبعد من المزرعة.

المزرعة قرية أمي.

يمكننا مشاهدتها من شبّاك البيت، في لحف الجبل قبالتنا، الجبل الناري الذي يقال انه كان بركانا ذات يوم. قرية أمي كومة اشجار وبيوت. أشبه بواحة صغيرة صنعها الناس بالصبر والعناية وسط هذا الجبل الاجرد. ويوم اشترى لنا والدي الناضور، أول ما وجهناه الى المزرعة فظهر امامنا فجأة وبالصدفة جدي وخالي يقطفان شجرة المشمش "أم حسين" وعلى رأسيهما فوطة بيضاء معقودة الزوايا اتقاء لاشعة الشمس.

كان الحديث على الباب هامسا:

. ...

. ...

. البيك طالع.

قالها أيوب بلهجة جازمة. حجة أرادها كافية.

صاحب القبعة المائلة ينظر الى داخل البيت، كان ينظر في الحقيقة الى ثيابنا والى اثاث بيتنا أكثر مما ينظر الينا، فيما رفيقه يحاول اقناع والدي.

أيوب الفصيح ورفيقه السكوت.

لم يدعُهما والدي الى الدخول، بقي في الباب يحاورهما، الصابون على وجهه وموسى الحلاقة في يده والشعر الاسود الكثيف يغطي كتفيه. يتكلم البدين عن الانتخابات القريبة وكيف ان "الحملة" ثقيلة وان علينا اثبات "موجوديتنا"، يرفقها بحركة من يده اليمنى. يسكت قليلا لينتظر جوابا من والدي، كأنه تعلم "الموجودية" هذه حديثا أو سمعها من شخص يعتبره فهيما وهو يجرب وقعها كلما سنح له الكلام.

كان الرجل يسهب في شرحه، يبشّر بضرورة المحافظة على "الكيان" واتخاذ الحذر من "الجماعة". يعطي البراهين على أنهم غدّارون، يميل الى الاكثار من التعابير الفصيحة التي تعلمت أمي فك رموزها. لذا كان البدين يحكي وأمي يزداد تجهّمها. تعرف والدي وابناء عمه، اذا سكتت أخذوه واذا تدخلت أحرجته أمامهم.

والدي يصغي وهو ممسك بالمنشفة يمسح بها شيئا فشيئا رغوة الصابون عن وجهه. طريقته لاستئناف التمتع بالحلاقة واعطاء نفسه فسحة للتفكير.

توقف أيوب فجأة عن الكلام كأنه استنفد حججه وقاموسه. انتظر جواب والدي فلم يأت. بقي الصمت معلقاً. شعرنا أن سكوت والدي كان تفضيلاً لنا على الرجلين.

جاء دور صاحب القبعة المائلة:

. اذا كنت لا تريد ان تأتي معنا، اعطنا السيارة، الشباب كثر والسيارات قليلة...

صرخنا نحن الاربعة من الداخل صوتا واحدا وحتى دون أن ننظر الى بعضنا:

. لا...

أسكتنا والدي دون ان يجيبهما. صمت فصيح آخر لم يصعب على الرجلين فهمه فاستدارا ومشيا.

أغلق والدي الباب وموسى الحلاقة لا يزال مفتوحا في يده اليمنى. لم يكن على ما يرام. أحطنا به نحن الاربعة نقبّله. القبل في جميع المناسبات هي ايضا من اختراعات أمي، وكذلك الحمّام للبنات كل يومين مرة وللصبيان مرتين في الاسبوع من مستورداتها. حاول التملص من هجومنا عليه.

. لا، لا، ابتعدوا عني، ذقني مليئة بالصابون.

لن يقبّلنا الآن، ولا في الايام وحتى الاشهر اللاحقة.

. ابتعدوا عن أبيكم!

فهمت أمي ان العبء ثقيل عليه وتقبيله لنا يعني تأكيد تخليه عن اقربائه.

عاد الى مرآة الحمّام لينهي حلاقة ذقنه. سمعناه من غرفة الجلوس يصفّر بتقطع كما يفعل عندما يقود الشفروليه في المنعطفات الخطرة. كانت الصفارة هذه طريقته في تخفيف الاحمال عن كاهله.

. حميد!

ارتعدنا قليلا. صوت البدين الفصيح من جديد. عادا الى الباب، لن يدعا والدي يفلت بسهولة. رسمت أمي اشارة الصليب وعدنا الى الاستنفار.

. نعم؟

قالها والدي بنبرة جافة وهو يفتح لهما الباب. ذقنه نظيفة هذه المرة وازرار قميصه مبكّلة حتى العنق.

يتلعثم الرجلان. يتعازمان على الكلام.

. قل له.

. لا، قل له أنت.

رفع صوته:

. شو في؟ احكوا.

نادرا ما يرفع صوته. الغضب يتعبه، اذا صرخ بنا مرة لا يتأخر بالتعويض. مزحة او قبلة او شيء من المال.

حزم الرجل ذو القبعة المائلة أمره:

. اعطنا فردك.

الفرد هو نفسه المسدس، تسحبه فاذا كان مخرطشا او مصلّيًا، تردّ الديك وتقوّص دحشا او نشلا والا سبقك الخصم وحدث لك ما لم تكن تتمناه، استعاروا له من الطير اليد و"عين الدوري"... تصرّ أن تعطى معه رصاصا حرّاقا أو خرّاقا...

كان اشتراه والدي قبل شهرين او ثلاثة. من تاجر سلاح. عاد به الى البيت ضاحكا وهو يروي لنا كيف ان البائع بعد ان رتّب بعناية اوراق المال التي نقده إياها ووضعها في جيبه كان سعيدا بهذه الصفقة الناجحة فتمنى له:

. ان شاء الله لن تجرّبه الا على اللحم...

لم يخبرنا والدي لماذا اشترى مسدسا لن يستخدمه. لكن على الارجح أنه جاء وقت لم يعد قادرا فيه على القول أمام أهله وابناء عمه انه لا يقتني سلاحاً.

جرّبه في عيد الرب فتوقف في الطلقة الثالثة. *خرطش*، كما يقولون أو *روكب* .

. من قلة العادة!

قال احد اصحابه الواقف الى جانبه ممازحا. مزاح كان يليق بوالدي أكثر من غيره. حمل المسدس على خصره لاقل من اسبوع ثم خبّأه في البيت. الارجح انه أتعبه، وزنه على خصره أتعبه. كنا نعرف ان في بيتنا مسدساً لكننا لم نكن نعرف مكان وجوده. كان في كل بيت "مخباية" للسلاح لان الدولة اذا ما حزمت أمرها يوما قد تقرر جمع السلاح من البيوت.

. أعطيكم فردي؟

كان الطلب مفاجئا له بالرغم من عدم تآلفه مع السلاح.

. نردّه لك هذا المساء او صباح الغد... قد يلزم لنا.

اضاف صاحب التؤلولة على خده الايسر:

. يمكنك الاستغناء عنه، لن يحدث لك مكروه طالما انك باق مع زوجتك.

لم يقل "طالما انك باق مع زوجتك واولادك". يبدو انه اراد اهانة والدي بهذه الطريقة. لم ننتبه لهذا التفصيل لكن أمي أفهمتنا معناه في ما بعد ونحن في طريقنا الى مغارة قاديشا. وبالفعل تحرك شيء في والدي، لكن في غير الاتجاه المتوقع.

مرّ امامنا أحمر الوجه متوجهاً بخطى أكيدة الى المطبخ وعلامات القرار الصعب في عينيه. كنا نتابعه من حيث تجمّعنا ننتظره في الصالون، فتح برميل الخبز، مد يده الى قعره واخرج المسدس في بيته من الجلد الاسود. مخبأ من نوع السهل الممتنع. لو نفَدَت ارغفة الخبز مرة بالكامل لكنا اكتشفناه.

عاد بالسرعة نفسها، كنا نراه من الخلف واقفا في الباب.

. تفضلوا!

الضباط الذين كانت تجرّدهم المحكمة العسكرية من رتبهم في افلام الحرب العالمية الثانية او صورة الجنرال الفرنسي في كتاب التاريخ والذي عرفنا في ما بعد انه كان يهوديا، يلبس ثيابا ملونة ويسلّم سيفه الى ضابط آخر يكسره على ركبته. هؤلاء وغيرهم صاروا عندما يقع نظرنا عليهم مجددا، يذكّروننا بوالدي الواقف في باب البيت يعطي البدين مسدسه بيد ويعطي صاحب القبعة الممشطين باليد الاخرى وضؤ النهار يغمر الرجال الثلاثة ويفيض الى غرفة الجلوس.

لكننا نحن الاولاد انتصرنا. ذهبنا في رحلة يوم الاحد. يوم مشمس وحار، لا أعرف من أين جاء المطر ليسقط في ساعة الحادثة.

قاد والدي السيارة صامتاً. كان من حين لآخر ودون انتباه منه، كما قال عندما كانت أمي تنبهه، يزيد من انطلاقة السيارة حتى تذكّره بان الاولاد جميعهم في المقعد الخلفي فيبطئ قليلا ليعاود بعد حين ضغطه على دواسة السرعة.

على الغداء ايضا نادرا ما تكلم، كان يطلق ضحكة عالية بدون سبب كاف ثم لا يلبث ان يغرق في صمت طويل. أخبرنا فيما بعد أنه كان متشائما من هذا اليوم. نحن نتحرش به، يضحك او يداعب احدنا، ينظر الى الساعة في يده، يتوقف عن الاكل و"يسرح" من جديد.

رجعنا في المساء.

لم يرجع فريد بدوي السمعاني، صاحب القبعة المائلة، ابن عم والدي لأبيه والذي رأيناه في باب بيتنا صبيحة يوم الاحد هذا للمرة الاولى والاخيرة. وعندما سُجّي في ساحة الكنيسة . مباشرة امام الباب الرئيسي لمدرسة البنات حيث كان موقع السرير الذي مُدِّد عليه وأمه فوق رأسه تلوح بقميصه الحرير تارة وتلبسه تارة اخرى بعد ان بحّ صوتها وصارت تفتح فمها وتحرك شفتيها ولا تخرج صوتا . ندبته نزها مراد على انه الخياط "الاشبى" يحضر "الطقم في العلبه".

البدين الفصيح، أيوب، ما زال حيا يرزق حتى اليوم، أصيب في فمه وفي فخذه، أحصي بين القتلى في صحيفة "التلغراف" الصادرة في اليوم التالي لكنه استفاق بعد ان أغمي عليه ساعات وخسر الكثير من دمه. أيوب ايضا ابن عم والدي لكنه كان يتردد علينا بين الفينة والفينة.

صاروا جميعهم ابناء عم بعد الحادثة على كل حال.

اما نحن، فانتشر خبرنا بسرعة. نحن، يعني والدي. خطيئته، الرحلة الى مغارة قاديشا. وأمي.

البنات، انا واختي، كنا نكتم في قلوبنا ما يرمى علينا من كلام قاس احيانا. أخي كان في العاشرة من عمره، لم يتحمل السهام الحادة. لم يفهم. عاد ذات يوم الى البيت باكرا، قبل غياب الشمس المسموح له بالبقاء فيه خارجا، أغلق وراءه الابواب جميعها صفقا للتعبير عن غضبه.

. افتح الباب يا منير.

تجمّعنا حول باب غرفة النوم، كان قد أغلقه بالمفتاح من الداخل. لم نكن نسمع سوى ضربات صمّاء على الجدار، بقبضته وربما برأسه. خفنا عليه. هددناه بخلع الباب إن لم يحك. لكننا ازاء عناده فضّلنا التوسل والاستفهام، فأفصح بسؤال:

. أريد ان أعرف...

تلقفناه وشجعناه:

. شو بدّك؟

. قولوا لي الآن، الآن، أين مسدس والدي؟

لم نعرف كيف نجيبه فضرب رجله في ارض الغرفة:

. من أخذه؟

مسدس والدي ايضا لم يرجع. لم يطالب به أحد. حياء منه. قيل له أن من كان يستخدمه رماه ارضا بعد ان فرغ من الرصاص ليتمكن من سحب مسدسه الثاني فأضاعه. ثم جاء من يخبره في ما بعد ان مسدسه لم يضع وما زال في حوزة احد اقربائه فلم يعر الامر اهتماما. بالطبع بقيت الشبهات تحوم حول أيوب لكن أيوب كان محصّنا عن السؤال بسبب ما أصيب به من جراح. ثلاث رصاصات في جسمه.

في كل حال كان والدي موافقا على دفع مسدسه ثمنا لغيابه.

تابع منير ضربه على الجدار. عرفنا ان رفاقه أقصوه عن اللعب. لم يقبلوا به في لعبة الحرب التي لم يكونوا يتقنون غيرها، يلعبونها بأسلحة من قصب وبأصوات انهمار الرصاص من الافواه، لم يقبلوا به لا جنديا وبالطبع ولا حتى فارا من وجه الحكومة بحجة ان والده لا يجرؤ على اطلاق النار من مسدسه. حتى أنه استجداهم ليوقفوه ولو حارسا على السجن الذي يعدّونه للهاربين من وجه العدالة، لكنهم أصروا على رفضهم.

ضرب رجليه بالارض غضبا وانهمر بالبكاء مسارعا الى البيت ليقتصّ منّا.

بدورنا نحن البنات اخبرنا ما يحدث لنا. يتهمون امي انها خلعت الاسود بعد ثلاثة اشهر ولم تلبس اي من بناتها الحداد مع اننا "صبايا" أي راشدات كما يقولون.

جاء والدي بعد حين. فأخبرناه ان منير يحتجز نفسه في غرفة النوم. ابتسم واقترب من الباب.

. منير؟

. شو أسمي أنا؟

كان سؤال أخي مباغتا لنا جميعا. ضحك والدي وأجابه بأبهة:

. منير حميد جرجس السمعاني.

. لا...

. كيف لا؟

. لا.

. ما اسمك اذاً؟

. يقولون اننا لسنا من آل السمعاني...

لم يتلقّ هذه التهمة في اليوم نفسه، كان منير يرمي عنه كل ما حمل من اهانات.

. من يقول لك هذا الكلام؟

سأله والدي بلهجة المهزوم. لقد فهم الامر بسرعة.

. رفاقي...

. اليوم قالوا لك ذلك.

. لا، كل يوم يقولون لي.

. أولاد من؟

. أوّلهم جورج، أبن عمي.

. ماذا تجيبهم؟

. لا اعرف.

انفعل أبي لكن غضبه لا يدوم. كالعادة.

. كيف تقبل، كيف تسكت، ألا تقول لهم انك من آل السمعاني قبلهم؟

يأتي صوته باكيا مستسلما:

. يقولون اننا لاحقين الحليب، اننا من المزرعة...

. ماذا يقولون ايضا؟

سكت منير. كأنه اكتفى بما كان على قلبه من كلام. لكن والدي لم يكتف.

. شو؟

. يقولون انك لست رجّالاً.

بشدّ الجيم بطبيعة الحال. وجمعها "رجال" بتسكين الراء ومطّ الألف وخصوصا أن جمع الذكور . خلافا لجمع القبضاي وهو قبضايات . هو "رجيل" بتسكين الراء ايضاً. والتسمية مفتوحة على اشتقاقات عدة وافعال متنوعة منها رَجَّلَ او تمرجل وكان من بين من تحمسوا لمرافقة زعمائهم الى قداس الذكرى السنوية المشؤوم مَن رجّل . والمباغتة والسرعة تكشف معدن الناس . ولو أن الذين شاركوا في الحادثة لم يستحقوا لقب "الرجال" الذي استحقه اجدادهم ممن حاربوا الى جانب يوسف بك كرم في مواجهة الجيش التركي كما يقولون. ربما لانهم تصدوا للغريب ولم يفرغوا رصاص مسدساتهم في أجساد بعضهم البعض. او كما في المباهاة القائلة ان "الحبس للرجال" مما يذكر بأن الحادثة اودت بالكثيرين الى القبر ولم ترسل احدا تقريبا الى السجن. ويصل الجذر الى جمع التكسير في "رجالات" ولو انهم قلة قليلة تكاد تنحصر بالذين "صنعوا" الاستقلال قبل اربعة عشر عاما. وهناك في مقابل من رجّل، من أجبن أي من أتيحت له فرصة الفتك بالاخصام ولم يفعل وايضا هناك من "تحايد"، فقد يتحايد الشخص فيختار عدم المشاركة في اشهار السلاح واطلاق النار لان عصبيته العائلية ضعيفة بمعنى انه لا ينتمي الى صلب

العائلة بل الى لفيفها علما بأن "ابن العائلة" لا يمكنه ان يتحايد لان حياده لن يُعدّ سوى انهزام.
وفي أوج الرجولة قيلت هذه الابيات:

لا خلفي ولا قدّامي ولا حدّاي

عجاج الخيل يطربني والحداي

يا متن السرج يا قبري (مهدي) ولحد(ا)ي

لما يصير عا بلادي طلب

اما في تراجع زمن الرجولة فاكتُفي بالقول ان "الرجال (هم انفسهم) *عند أغراضها نسوان"* (عدوى المؤنث)*. قد يقول البعض ان عهد الرجولة ولّى مع توسع نفوذ الدولة وقواتها العسكرية حيث ظهر "الفراري" . جمعه "فرارية" ويقال لهم "طفّار" في مناطق قريبة . القبضاي الشهم الهارب من وجه العدالة، ويقول آخرون أن المسدس وحتى الاوتوماتيكي منه لم يهدد وجود "الرجّال" ولو فتح المجال امام اعمال الغدر من الخلف والكمائن الجبانة الى ان ظهرت البندقية الاوتوماتيكية المحمولة باليد فكان الكلاشنيكوف بالثلاثين طلقة، لا مرجلة أمامه، وهو السبب الاول في افول زمن القبضايات. باتت الكلمة للسلاح وليس للرجال.*

أبتسم والدي بمرارة وقال:
. لست رجّالاً، بسيطة. افتح الباب يا ابني، افتح!
وأكمل بصوت خفيض كأنه يتكلم مع نفسه:
. طمئن بالك، لن تسمع هذا الكلام بعد اليوم...

بعد شهرين تماما حملنا وجاء بنا الى هنا. اتخذنا جميع الاحتياطات كي نخرج دون ضجة واسئلة، نقلنا أثاث بيتنا في الليل تفاديا للنظرات. كان الخروج من هناك حلم أمي الكبير وخيانتنا الثانية لاقاربنا. استأجر والدي لنا هذا البيت لانه يطلّ على الخليج، تمكنا من شرائه بعد سنوات، وكنا اول ما وصلنا الى هنا نجلس على ارجوحة قديمة تصدر صريرا متواصلا تركها لنا سكان البيت السابقون، كنا نجلس نحن الاولاد الاربعة جنبا الى جنب لنتابع اضواء مراكب الصيادين عندما يضرب لمعان القمر سطح الماء في امسيات الصيف الدافئة. وكنا إن استيقظنا لسبب او لآخر في ساعة متقدمة من الليل لا بد أن نجد والدي واقفا في الخارج كأنه يعدّ النجوم وهو يدخّن.

صار لنا هنا اصدقاء كثر لكن في كل مرة نسأل فيها من أين انتم ونقول اننا من هناك، كان اصحابنا الجدد يوسعون عيونهم فينا غير مصدقين. كيف نكون من هناك ولنا هذه السحنة الرقيقة واللهجة الخفيضة؟

فتح والدي محلا لبيع الخرضوات في السوق، كل ما يلزم للنجارين والدهانين، صار له العديد من الاصحاب هنا وجيراننا كانوا دوما اناسا لطفاء، لكنه بقي يحنّ الى ابناء عمه والى بلدته. ما ان يلمح واحدا منهم حتى يهرع اليه، هو يتحرش بهم، يتعرف احيانا عليهم من سيمائهم فيقرر مناداتهم بأسماء عائلاتهم يفضحهم في نظره شقارهم او طول قامتهم، فيرافقهم الى حيث تقودهم حاجاتهم في دوائر الدولة او الى القنصلية الاوسترالية طلبا لتأشيرات الهجرة، يذهب معهم الى بيروت حيث كانوا سيضيعون بدونه، يساعدهم في معاملاتهم، يدعوهم الى الغداء، عند مطعم القبرصلي حيث يطلب وجبته المفضلة، كفتة وحمّص وكأسين من العرق، يجلس رأسه ورأسهم، لا يقبل ان يدفع واحد منهم قرشا من جيبه، يقول انه لا يريد ارباك أمي بدعوتهم الى المنزل، "يأخذ روحا" بهم يسأل عن اخبارهم واحوالهم فردا فردا.

الآن مات والدي. دخل الى غرفته من أجل قيلولة بعد الظهر، أدخل معه الجريدة ولم يستيقظ. صعدنا به الى فوق في موكب صغير من السيارات ودفناه تحت شجرة السرو الاولى عند يمين مدخل المقبرة بعد أن صلينا عليه في الكنيسة. تجمعوا حولنا، اقارب لنا بقينا على صلة بهم واناس لا نعرفهم لا يفوّتون تعزية ولا جنازة، اتشحت النساء بالسواد اكراما لأبي، جلسوا بجانبنا، سألوا عن أحوالنا، دعونا الى بيوتهم. أشعر أنه صار لهم دَين علينا. ربما اذا التقيت واحدا منهم ضائعا في المدينة بعد اليوم فسأهرع أليه ولن اتوانى عن الاهتمام به ودعوته لزيارتنا. كنت اقول لأمي اني احيانا أشتاق الصعود الى البلدة. لم تكن تفاجأ بل تطمئن على العكس الى أن مشاعري طبيعية. أما هي فأعتقد اننا كنا نحن بلدتها.

بعنا بيتنا فوق، البيت نفسه الذي كانت أمي تصر علينا ان نغلق بابه وراءنا عند دخولنا اليه، لكن لنا تحت شجرة السرو الاولى الى يمين المدخل مكان سأحمل اليه باقة زهر مرة في السنة على الاقل، مكان لا اعتقد ان احدا يمكنه شراؤه منّا.

VI

من اللحظة التي قرأت لي منتهى رسالتكَ وهي تتحنّك عليّ بالحكي وتلعب بأعصابي
حتى أفصحَت بعد أن شتمتها بأنك آت لزيارتي. منذ ذلك اليوم خفت من عودتك. انا لا يفوتني
شيء يا ايليا، انتبهتُ اليك من البداية. من ساعة عودتنا من مطار بيروت وانت جالس بقربي
في مقعد السيارة الخلفي تغنّجني كأني طفلة صغيرة. تربّت على خدّي وتطوقني بذراعيك طوال
الطريق. عندما سألتُك ماذا تنوي أن تفعل في عودتك هذه غيّرت الحديث، سألتَني عن
الأكورديون كأنك تضحك عليّ. لكني سايرتُك وتذكّرنا كيف بقيت لثلاث سنوات مغرما بآلتك لا
تنزلها عن كتفيك ولا تريد ان يلمسها أحد خشية أن يخدشها. وكما ترى احتفظتُ لك بها معلّقة
في جدار الصالون هناك. مع اني سئمت من الداخلين والخارجين من جيراني السخفاء
وخصوصا النساء يسألونني ما هي تلك الآلة، وما الفائدة منها، ولماذا أعلّقها هنا على الجدار،
وهل هي غالية الثمن...

صحيح اني تقريبا ما عدتُ أرى أمامي. أعرف فقط ان ضوء النهار بدأ يجهجه من خلف الجبال العالية فأصنع لنفسي فنجانا من القهوة أشربه مع الصباح، واشعر أيضا أن العتمة بدأت تأتي من جهة البحر لتلفّ الدنيا. لكني لستُ غشيمة، نعم لستُ غشيمة. يقولون انك ذكي، هذا الذكاء من أمك وليس من بيت الكفوري. اسأل عني، اذا كنت تحب أمك فلماذا لا تسأل عنها؟ اسأل كل أهل البلدة، كلهم يعرفونني ويعرفون قصتي. يخبرونك عني قدر ما تشاء واذا تعمقتَ معهم قليلا سيؤلفون لك عني قصصا لا تخطر في بال أحد. جسمي لبّيس، يا ابني، القصص تلبق لي. هنالك اناس تليق بهم الاخبار وانا منهم.

والدي أخرجني من المدرسة رغماً عني. ذات يوم رفعت رأسي عن كتاب اللغة العربية فظهر عليّ فجأة واقفاً في باب غرفة الصف. لا اعرف لماذا نزع طربوشه الاحمر عن رأسه كأنه داخل الى الكنيسة. ناداني بعد أن استأذن المعلّمة وطلب مني أن أحمل حقيبة كتبي وأرافقه. هكذا لا شور ولا دستور. اعاد طربوشه فوق رأسه ومشى فسرتُ وراءه في الطرقات وقدماي ترفضان التقدم وانا اتطلع الى الخلف باكية. عند وصولنا الى البيت، قبّلني. قبّلني ربما لأول مرة في حياته، قبّلني على جبيني وقال بنبرة حادة:

. كفى، من هنا وصاعدا يصبح العلم مضرّاً للبنات، غداً تساعدين أمك في شغل البيت.

لم أنم تلك الليلة. في الصباح رجوت أمي ان تطلب من الراهبة اقناع والدي بالعدول عن رأيه . كانت مدرستي بادارة الراهبات اللعازاريات وكانت المديرة فرنسية اسمها الأم أنجال، طلبَت من عائلتها النبيلة والثرية ان ترسل اليها حصتها من الميراث لتكمل به بناء المدرسة في بلدتنا. كانت تحبني كثيرا. تحدثت مع والدي لكن لم ينفع معه الكلام. نادرا ما كان يقرر أمرا، والدي. كان يترك القرارات في شؤون البيت والاولاد لأمي، لكنه اذا فعل مرة، اذا أتخذ قرارا ولو لمرة تمسّك به الى النهاية كأن حياته على المحك.

نعم، لست غشيمة. أعرف انك تدور على الناس وتسألهم وتسجل ما يقولونه. لا تضحك. آلات التسجيل صارت صغيرة ويمكن وضعها في جيب القميص. لا، لا أريد أن أفتش في ثيابك، سجّل قدر ما تشاء. انا ايضا لديّ مسجلة هنا في غرفتي الى جانب رأسي، عندما يغلبني الارق في الليل أديرها. فيها شريط واحد بصوتي أنا. كان صوتي لا يزال جميلا قبل سنوات. سجّلت عليه مواويل بغدادية يقال ان المساجين كانوا يروّحون بها عن انفسهم، "ربّيتك زغيور حسن ليش تركتني؟ هيدا جزا فعل الحسن يا نور عينيّ؟". كما تسمع، صوتي لا يزال جميلاً. حفظت المواويل عن أمي، أسمعك أياها اذا رغبت. أعيد الشريط وأعيده حتى يسهل عليّ النوم. احب النوم على صوتي.

لو كنت أكمل همّة لكنت انا كتبتُ قصتي بيدي يوم كنت لا ازال قادرة على ذلك. وقد حاولتُ بعد سفركَ. اشتريت دفترا جديدا وجلستُ الى الطاولة، تذكّرتُ مقاعد المدرسة فحزنتُ

وكدت أبكي على نفسي من جديد. كتبتُ في الصفحة الاولى جملة واحدة: "هذه قصة كاملة الحاج عبيد..." أحب استعمال أسم عائلتي، نحن معروف عنا إما نكون اذكياء جدا وإما مجانين. يقولون إن جَدّاً لنا في الماضي البعيد كان عائداً من القدس الى بلدته في سوريا فالتقى صدفة فتاة فتَنَهُ جمالها فأمضى جَدّنا هذا ليلته هنا في هذه البلدة طمعا برؤيتها في اليوم التالي. لم يعد يطيق فراقها ومن يوم ليوم بقي هنا وتزوجها ولبسَه اسم الحاج. كتبتُ في الصفحة الاولى من دفتري: "هذه قصة كاملة الحاج عبيد من يوم خرجت من بيت ابيها لابسة فستان عرسها المطرز بالخرز ومن يوم حملوها لتضع الخميرة فوق باب بيت زوجها والخميرة لم تلتصق جيدا، الى يوم ركب وحيدها الطائرة الى أميركا ولم يعد". لكني تعبت كثيرا في كتابة هذه الجملة الطويلة، أخذت مني نصف ساعة من الوقت لذلك حفظتُها عن ظهر قلب. أعدتُ قراءتها وقلت في نفسي: انها مهمة صعبة عليك وفي كل حال من سيهتم لقصتك يا كاملة؟ مصيبتك هيّنة مقابل مصائب غيرك، لا أحد يحمل عن أحد. توقفي، أفضل. وقد هممتُ مرارا في ما بعد، وانا جالسة هنا وحدي على الشرفة، يوم صرت أسمع الناس وما عدت أراهم، هممت ان أحكي، هكذا كما اتكلم معك الآن واطلب من منتهى ان تكتب. منتهى، لم يبق لي أحد غير منتهى، رفيقتي وجارتي، تأتي لزيارتي كل يوم تقريبا، هي لم تتزوج وانا ترمّلت.

سجّل اذا شئت. لماذا تسأل الياس السمعاني ولا تسأل أمك؟ ماذا سيخبرك الياس السمعاني غير الكذب؟ تقول انك ذاهب للقاء الاصدقاء، متى صار لك اصدقاء هنا، بأي سرعة؟ أخبروني أنك ذهبت لزيارة ابن سليم العاصي، ما لك ولابن سليم العاصي، انه مريض، الله يستر يا ابني، مات والده من همّه، كل الناس تعرف ذلك. لكن قبل ذلك كله اخبرني، ألن تتزوج؟ اولاد الحارة رأوك على الكومبيوتر وأنت برفقة فتاة شقراء جميلة. هل هذا صحيح؟ أميركية أم ابنة عرب؟ المهم ان تكون جميلة ومسيحية. يقال انه لم يعد في أميركا مسيحيون؟ لماذا تضحك؟ أنها مسيحية أكثر من اللزوم؟ كيف ذلك؟ والدها كاهن؟ الكهنة عندهم يتزوجون أيضا؟ ولماذا أسالك ان كانت مسيحية، ما الفرق، كلنا خلق الله. انا لا أحب الصلاة ولا أحب الكهنة، لا اعترف عند واحد منهم، اذا اردت الاعتراف أقول خطاياي لله وساعة موتي أطلب كاهنا غريبا. على كل حال ما عدت ادخل الكنيسة الا عند الضرورة، اصلّي من هنا، من بيتي.

أريد فقط ان أعرف هل لصديقتك أمّ تنتظرها هناك في بلدتها الاميركية كما أنتظرتكَ أنا هنا؟ هل تستيقظ أمها ليلاً كالمجنونة؟ هل تهرع مثلي حافية القدمين الى الباب لان صوتا من عزّ النوم ناداها بان تنهض. صوت قال لها ان ابنتها عادت من رحلتها الطويلة وهي تموت عطشا وتجلس عند العتبة تنتظر من يفتح لها الباب. هل تفتح امها الباب كما افتحه كل ليلة ويدها ترتجف فلا تجد احدا فتجلس بدورها عند عتبة الباب تنظر في عتمة الليل مكسورة الفؤاد تتصت الى ادنى حركة علها تكون مؤشرا على وصول ابنتها؟ هل تركض كل ليل حافية لتفتح

الباب علّ الصوت يصدق ولو مرة واحدة وتضم ابنتها بين ذراعيها حتى يطلع عليهما ضوء النهار؟ هل لها، صديقتكَ، في بلادها أمّ مثلي لم ترها مرة واحدة منذ عشرين عاما بالتمام والكمال؟ ومع ذلك تبدأ يومها بتقبيل ثيابها وشمّها وقد صارت ثيابكَ مضحكة، يا ايليا، واحذيتكَ صغيرة. هل تحضّر لها الحلوى الاجاص بعد ظهر السبت، يوم عطلتها المدرسية عندما كانت في الصفوف الاولى... هي لا تحبّ سوى حلوى الاجاص. تحضّرها وتُبرزها في وسط الطاولة تتأملها وتنتظر ثم لا تلبث أن تقدّمها في آخر النهار لاحد الفقراء من أولاد الجيران لانها لم تأت لتأكلها؟ وتعيد تحضيرها كل سبت بعد الظهر. نعم بقيتُ لعشر سنوات أحضّر لكَ كل يوم سبت حلوى الاجاص، لاني صرت أخشى إن توقفتُ مرة واحدة عن صنع الحلوى ان يصيبكَ مكروه هناك ولا تتمكن من العودة اليّ ابدا...

لا تخاف عليّ يا ايليا، لن ابكي، توقفت من زمان طويل عن البكاء. لكن أعطني يدك يا ابني، اعطني يدك كي أتشجع على الكلام. لن أبكي، ولماذا ابكي على غيابك وانا الذي دللتك على طريق السفر؟ تلك هي حكاية أمك كاملة الحقيقية: ان وحيدها الذي صنعته بيديها، نعم انا صنعتك بيديّ، أفترقت عنه بمحض ارادتها. الا تذكر اني قلت لك ذات يوم:

. طفح الكيل يا ابني، هذه بلاد خراب، احزم حقيبتك وأمش، لن تبقى هنا يوما واحدا زائدا!

طلبتُ منك السفر بعد أن شحدتك من ثلاثين قديساً. لم أترك زاوية في لبنان الا زرتها، من كنيسة العذراء في القبيات الى دير مسيحي مهجور في أقصى الجنوب قرب الحدود الاسرائيلية. فكّوا لي الكتيبة خوفا من ان يكون دعا عليّ أحد بحرماني من الاولاد، وعلّموني جميع الوصفات. "أكثري من الملح في الأكل يا كاملة"، كانوا ينصحونني، "نامي مع زوجك خمسة أيام على التوالي"، "ابقي مستلقية طويلا على ظهرك وارفعي رجليك عاليا". علّموني العدّ على الاصابع والروزنامة القمرية...

نزلتُ حافية الى مار انطانيوس قزحيا. طريق طويل وصعب بين الاشواك. وصلتُ والدم سارح من رجليّ وفي يدي ليرتان ذهب، وضعتهما له على المذبح وقلت له

. اعطني صبيا وستكون مسرورا مني، لن أبخل عليك.

اضحك عليّ، يا ايليا، أنت لا تؤمن بهذه الخرافات. ومن قال لك اني اؤمن بها لكني لو لم أفعل لكنت لظللت اعتقد اني لم أكمل واجبي. نمتُ بطولي امام مذبح مار انطونيوس قزحيا، داخل كنيسته المحفورة في الصخر. أمضيتُ الليل كله عنده، حتى طلوع الفجر. كدت أموت بردا ومن يومها صارت امعائي تؤلمني عند اول لفحة برد.

ركعتُ الف مرة امام صورة السيدة العذراء في الحارة التحتا وطالبتها بك. نعم، الكنيسة العتيقة نفسها، ذهبتُ الى زيارتها من جديد، اليس كذلك؟ كنت أعرف انك ستذهب لتنظر الى

الصورة، الى الملائكة الصغار المحيطين بالعذراء. كنت ادخل اليها ليلا، في ساعة متأخرة عندما لا يعود يدخلها أحد وأقفل الباب الخارجي كي اكون وحدي في الكنيسة لاتمكن من رفع صوتي. ابكي واقول لها لماذا انت انانية هكذا؟ وهل انت بحاجة لكل هؤلاء الملائكة الصغار حولك، ولماذا لا تكرمين عليّ بواحد منهم؟ وكنت أشير باصبعي الى الملاك الصغير المحلق بجناحيه فوق كتفها اليمنى. هذا كنت أحبه أكثر من الباقين. كانت احيانا تبتسم لي، عرفت انها لن تتركني.

زرتُ مار بندليمون في منطقة مرياطة، انه من قدّيسي الروم ويسهر على كنيسته اناس مسلمون. حتى اني قصدت في السر احد مشايخ المسلمين لكن الجيران عرفوا فضحكوا مني. لم يكن والدك يرافقني ولما جاء دور مار الياس قيل لنا ان القديس لا يقبل الا حضور الرجل والمرأة، فرجوت يوسف طويلا الى ان وافق. كان يستحي بهذه الامور كثيرا. قبل بمرافقتي لكن في الليل كي لا يراه احد من معارفه، كان يخاف من ألسنتهم. كان مار الياس آخر قديس زرناه قبل مقتله، لذا قررت تسميتك ايليا. أخاف عليك. لو لم أسمِّك ايليا لاعتقدت على الدوام أني اعرّضك للخطر...

تضحك مني في سرّك. اضحك لكني لا أتمنى لأحد أن يعيش ما عشته. ضجر مني الاطباء، كنت أذهب اليهم وحدي، وفي اوتيل ديو سخر مني الطبيب الفرنسي وقال لي مثل مار الياس:

. لا تعودي الى هنا الا برفقة زوجك، لأنه هو أيضا يجب ان يخضع للفحوص الطبية، وإذا كان قد اقنعك أن المشكلة منك قولي له ان الرجال يمكن أن يكونوا عاقرين أيضا...

فلم أعد الى هذا الطبيب. أصعب لحظة عليّ كانت عندما اخرج الى شرفة بيتنا هنا وانظر الى غسيل النساء المنشور على السطوح والشرفات. خصوصا عندما كانت تقع عيني على ثياب الاولاد، قمصانهم الصغيرة الملوّنة وجواربهم الصغيرة المعلقة كل واحدة بملقط مستقل ومناشفهم الصغيرة وحفاضاتهم القماش. كانوا في تلك الايام يغسلون الحفاضات وينشرنوها لتنشف من جديد ولا يرمونها مثل اليوم. كانت أيام فقر وعذاب.

قبل أن أحمل وعندما كان والدك لا يزال حيّا نزلت الى السوق، الى طرابلس، اشتريتُ حفاضات وخبّأتُها جيدا كي لا يراني احد ويسخر مني. خاف عليّ يوسف من الجنون. اشتريتُ ثيابا للاطفال، أحذية من المقاسات الصغيرة الاولى وكل اللوازم، صار لديّ جهاز كامل. كنت اتسلى احيانا بعرضه لي وحدي في غياب زوجي، أوزِّع كل ما أشتريته في غرفة النوم واتأمله. وفي نهاية المطاف اصررت على شراء سرير. قلت في نفسي إن لم أشتر سريرا لن يأتيني ولد، سرير خشبي هزاز حقيقي. كان من الصعب ادخاله الى البيت خلسة وزوجي لا يريد ان يتناولنا

الناس بألسنتهم، فأنزلنا السرير من السيارة في الليل. انه هناك، أنظر، قرب الباب. كبرت يا ايليا ولم يعد يلزم فزرعته زهرا.

صارت حياتي صعبة جدا، كنت اضرب على بطني من غضبي، أذهب الى أمي وابكي وهي تخبرني عن نساء حبلن بعد ان فقدن الامل. هذه في الاربعين وتلك في الخامسة والاربعين.

. لا تستسلمي يا كاملة، لا تدعي زوجك يهرب منك.

صرت أكره اولاد الآخرين، أكره ذكر الاولاد ورؤية الاولاد وصارت النساء من اصحابي يتحاشين شيئا فشيئا حديث الاولاد أمامي بعد أن كنّ يفصّلن ويراجعن اخبار صغارهن طوال جلوسهن عندي. نوادرهم في المدرسة وعذاب تربيتهم وكلماتهم الاولى وضروب ذكائهم. يقلن كأنهن مستاءات:

. لا تربى روح الا اذا ماتت روح!

أكثر ما كان يؤلمني هو تأففهن هذا احيانا من عذاب تربية الاولاد. لا بد أنهن شعرن باستيائي ما ان تُفتح سيرة الاطفال فما عدنَ مثلا يحصين بين معارفنا من هي الحبلى التي تنتظر مولودا ولا يأتين على ذكر نوادر الوحام والفطام وغيرها. صرت ألمحهن يتغامزن من وقت لآخر لتغيير الموضوع رأفة بي اذا ما جاء الحديث ولو عرضا على قصص الحمل والولادة او على اخبار العماد والقربانة الاولى. وبعد فترة توقفوا حتى عن اصطحاب الاولاد معهن وفي النهاية توقفن عن زيارتي. صارت عشرتي صعبة. الناس أذكياء، عرفوا ان حديث الاولاد كان يجرحني، يخنقني، والاسوأ من ذلك أني صرت أتعزّى بأخبار المصائب. حتى بالمصائب التي تقع على أناس أعرفهم. لكن أمي بقيت دائما متفائلة بأني سأحصل على ولد وتضرب لي الامثلة، عشرات الاخبار عن حبل متأخر وبقيت تردد عليّ لسنوات "بعدك صبية يا كاملة" وتشجعني على النوم مع زوجي.

ذلك اننا في الحقيقة كنا بدأنا نتكاسل في النوم معا. صرتَ رجلا لماذا لا أخبرك بذلك كله؟ والدك كان يطيل السهر. طوال عمره كان يحب السهر وانا أنام باكرا. جاء من يخبرني انه يلوف على النساء. كنت أحبه ولا يهمني واقول في نفسي اني طالما لم انجب له اولادا فمن حقه معاشرة غيري. لا تتعجب، انا هكذا، كنت مقتنعة بهذه الفكرة. جيلكم انتم لا يفكر هكذا بالتأكيد، لا أعرف اذا كنت انا زيّنتها لنفسي أم أن أحدا أقنعني بها. كنت اسكت على معاشرته النساء. لم أُشعره مرة باني اغار عليه، وفي الحقيقة لم أكن أشعر بالغيرة. كنت أعرف انه يحبني وكان هذا الشعور يكفيني. الى ان رأيته ذات يوم ينظف مسدسه، مبعثرا قطعه امامه على الطاولة يدهنها زيتا ويتسلى بها. سألته ماذا يفعل فقال انه يستعد للمشاركة غدا الاحد في قداس الذكرى السنوية لشقيق المطران في بلدة برج الهوا.

. ولماذا المسدس اذا كنتَ ذاهبا من غير عادة الى الكنيسة؟

اجابني مبتسما:

. هذا طراز بلادنا.

. هل أنت مضطر للذهاب؟

كانت نفسي سوداء، كنت في تلك الفترة احاول دائما منعه من المشاركة في التجمعات. كنت اطمئن أكثر إن هو ذهب الى سهرات القمار والنساء.

أذكر اني سألته يومها:

. هل فؤاد الرامي وشقيقه بطرس ذاهبان الى هذا القداس؟

تعرفهما يا ايليا، رفيقي والدك من ايام الصبا. بالرغم من المشاكل العائلية كان لا يزال يحبهما ويرافقهما، يدعوهما الى العشاء احيانا على الشرفة عندنا هنا فأقوم بخدمتهم حتى آخر الليل. كان يلعب معهما الورق واعتقد انه كان يلوف معهما على النساء ايضا لانهما كانا ميسورين وعازبين ويحبان العاب القمار والمشروب والنساء. تردد قليلا عندما سألته عنهما وقال انه لا يعرف اذا كانا سيرافقان زعيم العائلة. انهما لا يحبان المشاكل.

. كما تعرفينهما يحبّان الحياة.

قال لي. فسألته اذا تواجه معهما ذات يوم فهل يطلق عليهما الرصاص؟ ضحك من الاحتمال:

. فؤاد وبطرس الرامي؟ كيف أتواجه معهما؟

لكني خفتُ عليه وقلت في نفسي اذا مات أموت خلفه وقلت: أسهل طريقة السم. أشرب السم وارتاح. تخيلتُ تماما كيف سأقتل نفسي، لكن لا أحد يموت على أحد.

في أول السهرة، مشّط شعره وحلق ذقنه للمرة الثانية في اليوم الواحد، على جري عادته عندما ينوي إطالة السهر، سكب على نفسه نصف قنينة العطر وتوجه الى الباب ليفتحه ويمشي حتى دون أن يودعني. قطعت عليه الطريق.

. الليلة اريد ان أحبل.

قلت له.

ضحك عليّ وحاول إزاحتي من طريقه.

. لو بدها تشتّي غيّمت...

كان يقولها بلهجة يائسة كلما فتحت له سيرة الحَبَل.

رجوته. هو ايضا كان يحبني. وافق. صحيح كان يضحك مني ومن محاولاتي لكن قلبه كان حزينا. لا اعرف لماذا كان يريد الظهور بمظهر المتكبر على الاولاد، يخترع كلاما ليريحني ويريح نفسه. وكان الناس ورفاقه يواسونه بهذه الاقاويل، ان الاولاد همّ، كلما كبروا يكبر الهمّ معهم أو أن تلك مشيئة الله... ذهب مع شباب عائلته الى هذا القداس عن نفس شقيق المطران،

عمّق له الله الحفرة في جهنم، كان شقيقه توفي منذ سنة او سنتين، أيّ شيطان زيّن له ان يقيم له قداسا ويدعو اليه كل هذا الجمع قبل اسبوع واحد على الانتخابات؟ منذ ذلك اليوم ما عدت اطيق الكهنة واخبار الكهنة.

ذهب يوسف الساعة الاولى بعد الظهر، التقوا في مكان ما وصعدوا في موكب واحد. رجع الساعة الخامسة مع القتلى، حمّلوهم في شاحنة صغيرة وكانوا شبابا طوال القامة فخرجت ارجلهم من الخلف. أصيب برصاصتين في ظهره، واحدة أصابت قلبه. أطلقوا عليه النار من الخلف.

لا، لم أخبركَ بذلك قبل اليوم، لم أخبركَ بشيء على كل حال. قبل أن تسافر كنت صغيرا او انا كنت اعتبرك صغيرا فلم أخبركَ. سمعتَ من الناس، من هنا او هناك. واليوم أعرف أنك رجعت لتسأل ولا تريد أن تسألني. تزور ارامل حادثة برج الهوا ولا تسألني. الناس تحكي على هواها، لن تصل معهم الى نتيجة، سيكذبون عليك. من قُتل له قريب فوق، يحاول أن يجعل منه بطلا دفع ثمن وقوفه مرفوع الرأس، ومن كان فوق وخلّص بريشه لا يعرف ماذا يقول، يفضّل السكوت. في الحالتين إذا كان فضّل الهروب لن يحكي واذا تمكن من اصابة خصم بالرصاص لن يحكي ايضا. أعرف اني سألت الطبيب: كيف أصيب زوجي؟ فقال لي انظري، فنظرت، الرصاصتان دخلتا من هنا، من ظهره، الفجوة ضيقة، وخرجتا من هنا، من صدره، الفجوة واسعة. نعم، والدك كان قلبه حاضرا، يعرف كيف يطلق الرصاص وكيف يقف في المعركة لكنهم أخذوه غدرا. سمعتُ كل الاخبار، رُميَت على مسمعي كل الاسماء، لا فائدة من ذلك، بعد أربعين عاما.

لن اوصيك بشيء لان لا كلمة لي، لكن اذا تزوجت فأصرّ ان تنجب زوجتك لك ولدا باكرا، وانا متأكدة أنه سيكون صبيا بهي الطلعة أشقر وعيناه زرقاوان مثلك. لا تخف، لا تضحك، لا تخجل بنفسك، طمأنوني عنها أنها جميلة، أهم عطية من الله للمرأة هو الجمال، صدقني انها لن تساوي الكثير دون جمالها. أنجب منها ولدا، انتزعه منها أنتزاعا، وقل في نفسك تلك هي اكبر نعمة يمنّ بها الله على الانسان.

. VII -

الرجل في العقد السابع، أسمر داكن، نحيل، جالس وراء الميزان، اقرب الى الصعلوك العجوز. يسند يديه الى الطاولة وينظر الى الخارج. العقد الحجر القديم يحميه من الحرّ.

من حيث هو يرى بضعة امتار من الطريق ويكشف قسما من الساحة والباب الغربي للكنيسة. مرور السيارات يحرّك الغبار في الساحة الغارقة تحت أشعة الشمس التي تزيد من عتمة الداخل حيث الرجل ينتظر الغداء.

ستحمله اليه زوجته بعد قليل، بامياء بالأرزّ وزيتون وقرنان من الفليفلة الخضراء الحارة وكأس من العرق كي يتمكن من ابتلاع الوجبة. يحب الحرّ على انواعه وفاء لمسقط رأسه، ساو باولو. تربط زوجته منديلا منقّطا على رأسها، تضع الصحون على الطاولة الى جانب الميزان القديم دون ان تكلمه وتعود الى البيت. عشرة طويلة، لم يبق بسببها الكثير من الكلام يتبادلانه.

دكانه لم يعد على حاله كما يوم الحادثة. تدهور مع تدهور صحته. أوقف اولا بيع اللبن والجبن والشنكليش وكل ما يلزمه التبريد بعد ان تكاثر انقطاع التيار الكهربائي وبعد ان تعطّل البراد ويئس من اصلاحه. ثم تخلى عن كل ما يذبل، الخضر والفواكه، اقراط الموز وصناديق الليمون. اكتفى باكياس البطاطا الملونة، الشيبس، بصنفين او ثلاثة من السجائر، بأوعية زجاجية

فارغة يمكن تخيل ما كان فيها من حبوب، وبسلّة حديدية متدلية من السقف لا تزال زوجته تضع فيها ما يفيض عن دجاجاتها من بيض طازج.

مع ذلك لا يقفل بابه، لا يعرف ماذا حدث لسائر الدكاكين. كان هناك اربعة او خمسة منها حول الساحة. بدأوا يقفلون واحدا تلو الآخر، الاولاد يتعلمون او يهاجرون، يؤمّنون لاهلهم تقاعدا مريحا. لم يبق غيره، مثابرا، يأتي في السابعة ويغادر في الثامنة مساء، يجلس النهار بأكمله ينظر الى الخارج.

يقال ان صاحب الدكان "رأى كل شيء". لكن أي دكان؟ احتمى في واحد منها العديد من الرجال عند بداية المعركة، كما ينص على ذلك القرار الظني نفسه.

حصل ايليا على نسخة من القرار الظني واستقل سيارة اجرة. مرسيدس قديمة العهد، هي وسائقها الذي كان يرمقه بنظرات سريعة في المرآة. المنعطفات كثيرة والطريق ضيقة. كسّارة كبيرة تقضم الجبل. بأسفان.

بدأت المساكن تظهر على جانبي الطريق. فيلات متناثرة، نسخ عن بيوت الجنوب الاميركي ذات المداخل العالية، واجهة تذكّر بالمعابد الرومانية، شاليهات سويسرية على انواعها، وبينها، هنا وهناك، بيوت صغيرة متواضعة. وفجأة، بناء من الحجر الابيض بهندسة يابانية او ما شابه.

. من هندس هذه البيوت؟ كيف يسكنون فيها؟

هتف ايليا عند رؤيتها.

. إنها أموال الالماس والتجارة... لقد لحقوا افريقيا باكرا.

أوضح السائق بشيء من الحسد.

يقصد انهم هاجروا الى افريقيا وجمعوا اموالا طائلة عندما كان لا يزال سهلاً التشاطر على ابناء البلاد السود هناك.

اطلت السيارة على الحيّ القديم.

تراكم من البيوت الملتصقة بعضها ببعض.

هناك الكنيسة، هناك الساحة والدكاكين، قال السائق.

لم يسأل السائق ايليا من يكون. اكتفى برمي عقب سيجارته من شبّاك السيارة:

. أين أنزلك؟

. أمام الكنيسة.

أصدر السائق صوتا غامضا وانحرف بسيارته ليوقفها تحت شجرة الكينا الوارفة الظلال حيث قال انه سينتظره.

. خذ وقتك... الكنيسة هناك.

ومشى الى باب الدكان ليطلب شربة ماء بارد. رآه ايليا من بعيد يتبادل أطراف الحديث لبعض الوقت مع الرجل الجالس يأكل البامياء والأرز. تابع قليلا بنظره الراكب الذي أقله ليعود الى جانب السيارة. ربما سيُرجع بعد قليل مقعد السائق الى الوراء ويتمدد في اغفاءة يتحيّنها.

هواء شجر الكينا عليل.

يبدأ ايليا فورا بالتقاط الصور. كأنه يختلسها، كأن الوقت محسوب عليها قبل ان يكتشفه أحدهم فيتدخل ليمنعه. متاهة من الازقة والبيوت. ايليا يتأمل الساحة. انها المرة الأولى يأتي فيها الى هذه البلدة. لم يقبل أحد مرافقته الى هنا في الماضي. يحمي عينيه بيده اليمنى من أشعة الشمس.

اعتاد الرجل صاحب الدكان على الصحافيين. جاؤوا بكثرة في البداية، منهم من حضر في اليوم التالي، يوم الاثنين. لم يكن عدد القتلى والجرحى قد أحصي تماما بعد، لانهم توزعوا على مستشفيات عدة في المدينة. القرار الظني يورد اسماء 24 قتيلا بينهم 4 نساء، و 28 جريحا بينهم 7 نساء وراهبة اضافة الى عدد كبير من "الجرحى الذين هربوا ولم يكشفهم التحقيق...". بقي الصحافيون يتقاطرون الى هنا طوال صيف 1957 حتى بداية "الثورة". صحافيون من بيروت ومراسلون اجانب، اوروبيون، يصوّرون الناس والساحة، يتحرشون بالمارة، يطرحون كل انواع الاسئلة، يدورون حول الكنيسة، يسجلون بعض الملاحظات الخطية على دفاترهم الصغيرة. انطباعات اللحظة يستعينون بها لصياغة مقالاتهم.

الاكثرهم شهرة كانت ألين لحود التي وبالرغم من تمرسها في الصحافة لم تشف يوما من رغبة في اللجوء الى الاستعارات المدرسية. كما كانت تردم دون توقف فجوات لغتها العربية الشفهية ببعض محطات الكلام الفرنسية من نوع déjà او somme toute وهي تمسك محدثيها، نساء او رجالا، من اياديهم واطراف اثوابهم تحببا وتسهيلا للتواصل. زارت المنطقة بعد ثلاثة أيام على الحادثة برفقة المصور فؤاد حداد. اختارت وخلافا لعادتها في الكشف عما لديها من مواهب جسدية تعرفها جيدا، ارتداء ثياب رمادية رصينة. نصف حداد كما يقولون، احتراما للموت. واختارت، على جري عادتها، عنوان مقالها قبل كتابته، وحتى قبل وصولها الى مسرح الاحداث، "غفلة الآلهة". دأبت على ترداده وإسماعه لفؤاد حداد بمختلف النغمات حتى خلصت الى اعتماده فبدأت عندها تسعى الى كتابة مقال يناسب عنوانها. زيّنت تحقيقها الطويل بصورة لم يُعرف كيف نجحت في الحصول عليها، وقيل في ما بعد انها حيّرت المحقق العدلي في الحادثة

ولفتت انتباهه في الواقع الى وجود مصورين في هذه الجنازة يمكن الاستفادة من شهادتهم و... صورهم. حتى ان اسم واحد منهم كان ورد في عداد الجرحى: "نيشان هوفزيب دافيديان، 26 سنة، طلق ناري في الجزء السفلي من رجله اليمنى". وفي الصورة خمسة شبان ينظرون بلهفة الى العدسة. سعداء باجتماعهم يلتصقون أحدهم بالآخر كي لا يبقى احد منهم خارج الاطار. كتبت الين لحود تحتها عبارة "الصورة الاخيرة": "سيلاقي هؤلاء الرجال الخمسة جميعا حتفهم بعد دقائق معدودة على وقفتهم هذه. سيحصدهم رصاص الغدر ما ان يتفرقوا بعد التقاط الصورة". كان سهلا التأكد من أن الشاب صاحب النظارتين الواقف الى اقصى اليمين، وكان الوحيد الذي يحمل بينهم شهادة ثانوية ويميل الى الكتابة الصحافية، خرج سالما. لم يصب بأي أذى في تبادل اطلاق النار لكن يُفضَّل عموما لهذا النوع من الاخبار ان يكون كاملا فيغفل الاستثناء الذي يخفف من وطأته الكبيرة على نفوس القراء. التقط فؤاد حداد صورا اخرى للشارع الرئيسي في برقا مقفرا في ساعة الظهيرة إلا من امرأة متشحة بالسواد تسير في محاذاة جدار. كتبت الين لحود تقول انها أول ما أصغت الى الصمت (كذا) في البلدة المحزونة، صمت الرجال وصمت الاشياء، وهو، أي الصمت، كما تضيف، يرن كالوتر المشدود على آخره. ومن الصمت الوارد ذكره أربع عشرة مرة بالتمام والكمال في مقالتها، انتقلت دون فواصل الى النظرات. وهو خيار اسلوبي متوقع في هذه الحالات كون النظرات تبوح بما لا يقوله اللسان المعقود: العيون الجافة المحترقة بدموع لم تسل والمتربصة ببعضها من خلف النوافذ والمتطلعة شذرا من وراء الطاسات الفولاذية للجنود المنتشرين في كل زاوية. عرّجت في طريقها ايضا على كورسيكا وصقلية لتفترض ان الخناجر المخصصة للثأر والتي كانت معلقة كالذخائر الى جانب صور القديسين قد أُخرجت من اغمدتها وهي تنتظر اللحظة المناسبة للضرب. اننا ازاء وضع اللمسات الاخيرة على الفصل الثاني من المأساة. لم يبق سوى الضربات الثلاث للاعلان عن فتح الستارة. من يضربها؟ ثم، وفي استعارة شائعة تؤكد الصحافية الأنيقة اللباس والأسلوب مناخ العنف الادبي المتوسطي نفسه من ان الابواب موصدة والقلوب موصدة ايضا بينما الالم يلبس قناع الكراهية وشذا زهر الربيع يختلط بعبق الغضب... واستكمالا لعناصر الملحمة المكثفة، فالشمس حارقة والسماء أسقط في يدها... بعد أن حاولت في برج الهوا منع المأساة بإرسال زخات قوية من المطر كان يستحيل توقعها في منتصف شهر حزيران. لتضيف أن رائحة التراب التي لا بد انها عبقت في المكان بعد جفاف طويل لم تحل دون هؤلاء الرجال وتصفية حساباتهم، فالوقت لم يكن لاستلهام رائحة الحياة بل لاندفاع مزهو صوب الهاوية. لا يخلو سطر من مقالة ألين لحود من الصنعة الشاعرية ولا تخلو رواية لحادثة برج الهوا من المطر. واذا كانت الصحافية المخضرمة اللعوب في مجلة "ماغازين" الناطقة بالفرنسية رأت في زخّة المطر تحذيرا واستباقا لما حدث كادت تنسبه لأحد آلهة الميثولوجيا اليونانية، فان بعض الشهود يؤكدون أن الزخّة انهمرت بعد انطلاق

الرصاص مباشرة وليس قبله. ولهم في هذا التوقيت تفسير بأن صاحب المطر أراد تفريق المتقاتلين والحد من أذيتهم بعضهم لبعض بينما يكتفي آخرون باستخلاص الحكمة من ان ما انسكب من ماء، ويصر أحدهم على ان الزخات كانت في الحقيقة بردا من الحب الكبير النادر في هذا الشهر وفي كل الشهور، لم يكن سوى تعبير عن سخط الله بسبب ما كان يحدث في بيته ومحيطه، ولو ان التعبير المقتضب يكتفي بكلمة "غضب". وتستنجد ألين لحود في سياق المقاربة الماورائية لحادثة القتل التي سبقت الانتخابات التشريعية بأسبوعين والتي كانت تنذر بسقوط مرشحي المعارضة امام انصار رئيس الجمهورية الطامع بتجديد ولايته والذي كان يستخدم لهذا الغرض مختلف اشكال الضغوط، تستنجد بـالروائي الاميركي وايلدر: "يقول البعض اننا في نظر الآلهة مجرد ذباب يقتله الصغار في يوم صيف بينما يؤكد الآخرون ان ريشة لا تسقط من عصفور الدوري الا بارادة الله"... هل هو تدخل للعناية الالهية أم سهو منها؟ يمكن من قراءة تحقيق ألين لحود تخيل مقتلة الكنيسة على شكل رسم ينتمي الى الاسلوب الساذج بألوان فاقعة من طبقتين، المتراشقون بالرصاص في كنيسة برج الهوا وباحتها الخارجية في القسم السفلي وفوقهم مزيج من آلهة وملائكة من الاغريق والمسيحيين يجلسون على غيومهم الزرقاء الصغيرة يبتسمون عن غفلة او عن مكر قبل ان يرشقوا المتقاتلين بالمطر للتفريق بينهم. حتى القرار الظني الصادر حول الحادثة بتاريخ 27 تموز 1957 في ست عشرة صفحة فولسكاب لا ينسى هذه المفارقة اذ جاء في مقدمة وصفه للاحداث: "وما ان أزفت الساعة الثالثة والنصف وكانت السماء ترسل رذاذا من المطر، تحرك الموكب من بيت آل العبد الى الكنيسة التي تبعد عنه نحوا من مئتي متر يتقدمه السادة المطارنة والرهبان والراهبات وبسبب المطر اخذ الناس يدخلون الى الكنيسة من ابوابها الجانبية الشمالية والجنوبية واما باقي الموكب فدخل من الباب الغربي الملوكي المواجه لساحة البلدة، وما ان بدأ الموكب بالدخول الى الكنيسة حتى حصلت ضوضاء بين الحضور واطلق طلق ناري في خارج الكنيسة كان الاشارة والشرارة...". هكذا لم يقاوم قاضي التحقيق لدى محكمة بيروت الاستئنافية . والمحقق العدلي في قضية الاعتداء على أمن الدولة الداخلي الحاصلة بتاريخ 16 حزيران سنة 1957 و"التي اسفرت عن قتل ومحاولة قتل اشخاص عديدين وجميع القضايا التي رافقتها او تفرعت عنها وجميع الاشخاص الذين اشتركوا او تدخلوا بها بأية صفة كانت" . لم يقاوم رغبته في الكلام عن المطر ولو ان لا حاجة لذكره في سياق مطالعته التي يطلب في نهايتها الاعدام لقائمة طويلة من الرجال جاء بعضهم بشهود، انهم كانوا ساعتها في مكان بعيد جدا عن البلدة التي وقعت فيها الحادثة. وكان الاستاذ اديب الاشقر .
موقّع هذا الاثر الرسمي الوحيد المكتوب المتبقي من الحادثة، بعد أن شمل المشاركين فيها عفو عام اراح الجسم القضائي من مهمة غاية في الصعوبة لاعادة تكوين ما حدث، والذي تعرض لمحاولة اغتيال عندما تجاوزته على طريق بيروت سيارة اطلق من في داخلها النار عليه فنجا

باعجوبة، بسبب ما اعتبر انحيازا منه لفريق ضد فريق .قد لجأ مرارا الى اسلوب يقترب من الوجدانية في حديثه عن "الاخلال بالامن لاشباع النزوات والاطماع" وفي وصفه التفصيلي لمواجهة مسلحة "على درجات مذبح الرب". تلي هذه المقدمات عودة في الزمن تدل على صنعة ادبية مكبوتة لدى محرر القرار الذي يُرجع بداية النزاع الى "نيف وأربعين سنة" كانت خلالها "الاحقاد الدفينة في الصدور تتكرر وتزداد مع الايام منتظرة الشرارة التي تبعثها حربا اهلية وتقتيلا...".

يدور الصحافيون حول الكنيسة، يسجلون انطباعاتهم الأولية ثم يقتربون من الباب ليجدوه مقفلا. ينظرون يمينا وشمالا ثم يتوجهون الى الدكان. لا مكان مأهول في هذه الساحة الرازحة تحت شمس الصيف الا الدكان.

. مرحبا يا عمّ.

توقف صاحب الدكان عن الأكل ما ان اقترب منه ايليا. الباميا ليست صحنه المفضل، لكن اذا أعترض يبقى بدون أكل. لن تغيّر زوجته طبخها مهما حصل. كأس العرق يساعده. كان قد أخرج مفتاح الكنيسة من الجارور وأمسكه بيده منذ توقفت سيارة الاجرة وترجل منها. يعرف سلفا متى يكون الزائرون من المصلّين او لا.

. اقفل الباب من فضلك عندما تنتهي وارجع لي المفتاح، نخاف السرقة، يمر الكثير من الاغراب على الطريق...

أخذ ايليا المفتاح وهو ينظر من حوله. نظر الى بضائع الدكان القليلة. فتح دفتره وحاول رسم تخطيط عام للمكان. مسرح الجريمة.

رفض الرجل ثمن العلكة والبسكويت المغبّر بالرغم من اصرار ايليا. تبرّع يسمح له بالكلام.

. دهنوا الكنيسة من زمان. مغترب في نيجيريا تبرع بكل شيء، نفضوها من جديد... تفضّل شاركني الغداء.

دعوة من قلبه.

. ألقي نظرة وأعود.

كنيسة مثل غيرها. تماثيل كثيرة وصور كثيرة. يطغى عليها الطلاء المذهب. مقاعد جديدة. كنيسة قديمة تشبه الاثرياء الجدد. الرجال يجلسون في المقاعد الامامية والنساء في القسم الخلفي.

يصوّر كل شيء.

أكثر من ألف طلقة أطلقت داخل جدران الكنيسة، يقولون.

كل شيء أُصلح.

دخل الى السكرستيا، كثيرون اختبأوا هنا على ما يبدو... من الطرفين. يقال انه لم تطلق رصاصة واحدة بينهم. بقيت السكرستيا على الحياد...

أشعة شمس الظهيرة تدخل من زجاج الفتحات الدائرية العالية.

الشمس تشرق غير مبالية بما حدث هنا. أشرقت ودخل نورها من الفتحات الزجاجية الدائرية نفسها في اليوم التالي للحادثة ايضا.

جلس ايليا في احد المقاعد الخلفية كأنه يصلّي.

بذل أهل البلدة كل الجهود الممكنة لطرد ذكرى من قُتلوا هنا.

كي لا يبقى ما يوحي بأن رصاصة اطلقت او خراباً وقع. كي لا يتمكن أحد من التأكيد ان كل هذه الدماء اريقت هنا، داخل الكنيسة.

اعادوها كنيسة قرية عادية، تردد ارجاؤها صدى الترانيم السريانية ووشوشات النساء العجائز تجهدن راكعات في تذكّر خطايا يسررن بها في اذن كاهن يسند رأسه على خده في نصف اغفاءة.

ايليا يقف، لا يهدأ.

عاد الى الدكان.

. لم تتأخر..

قال الرجل مضيفا كأنه بات يعرف ما يبحث عنه هذا النوع من الزوار:

. محوا كل شيء... الا طلقين لا احد غيري يعرف اين استقرا.

ابتسم ايليا وسأله:

. هل تمانع في ان التقط لك صورة؟

نهض عن كرسيه وهو يتكلم معرّفا عن نفسه:

. انا ولدت في البرازيل ورجعت الى لبنان في العاشرة من عمري، قبل الحرب العالمية الثانية. والدي كان يتاجر في غابات الامازون، على الكشة، يبيع أهل البلاد ذخيرة عود الصليب وتراب القدس، انهم مسيحيون متعصبون في تلك البلاد، والهنود مسيحيون متعصبون مؤمنون أكثر من البيض بكثير، أكثرية البيض بلا أخلاق...

يضحك حتى ينكشف ما تبقّى من أسنانه. يكمل وهو يتأهب للوقوف أمام بابه:

. سمّاني والدي بدرو على طراز اهل البلاد. كانت له زوجتان، واحدة في البر وواحدة في ساو باولو. انا من زوجة البر، برازيلية، انتزعني منها بالقوة وعاد بي الى هنا...

يضحك عاليا من جديد.

. في يوم من الايام حمل معه الببغاء من المدينة الى الريف، ببغاء أذكره جيدا قبل ان يموت، جاء به لعند أمي فراح الببغاء ينادي على زوجة والدي الاخرى كما كان معتاداً في ساو باولو، "مرغريتا، مرغريتا، تي يامو..."

يطلب منه ايليا تغيير وقفته قليلا كي تظهر واجهة دكانه في الصورة. ينادي ايليا شابا صغيرا كان يقف في الجوار، يشعل سيجارة ويقف. يطلب من الشاب أن يلتقط له صورة. ينظر اليه صاحب الدكان بغرابة ويكمل ولو ان احدا ما عاد يصغي اليه:

. ...شكّت أمي في أمر والدي، سألته من هي مرغريتا التي يحبها فقال لها ان الببغاء مصابة بالخرف، فتبعته دون ان يدري الى ساو باولو حتى وصل الى بيته الثاني فدارت هناك معركة بين الزوجتين...

. ماذا رأيت يوم الحادثة؟

يسأله ايليا مقاطعا لكن بصوت هادئ.

. ...انا كنت صغيرا، لا اتذكر شيئا، لكن أمي أخبرتني كيف أمسكتها من شعرها ورمتها أرضا...

أبتسم ايليا من الالتباس الموفّق.

يطلق الرجل جردة ثانية من اخبار البرازيل الملونة بألوان الببغاء. يرفع ايليا صوته قليلا ليظهر تبرمه وهو يضحك من سوء التفاهم المقصود:

. الحادثة، هنا، ماذا رأيت، أين كنت؟ يقال انك رأيت كل شي، صحيح؟

صاحب الدكان يحاول فقط كسب الوقت. اوقف رواية البرازيل والببغاء.

. أدخل، تفضل، الجو أكثر برودة في الدكان.

عاد الى موقعه خلف الميزان. يشعر بالامان في متراسه.

. أصيب مار ميخائيل في جناحه برصاصة عيار 14 ومار يوسف في عينه، ودخلت رصاصة في الشحيمة انقذت الخوري انطانيوس الذي كان يمسك الكتاب السميك بين يديه، عصا المطران كانت مرمية ارضا ولم نرسلها اليه الا بعد يومين عندما جاء قوّاص المطران يبحث عنها. من يقول لك ان بيت القربان أصيب، قل له كذّاب، انا رأيته بعيني. كرسي الاعتراف صحيح كان مدروزا بالرصاص، ويقال انه كان هناك من اختبأ في كرسي الاعتراف وراح يطلق الرصاص منه في كل الاتجاهات...

ايليا غير مقتنع.

ينتفض الرجل.

. تعال.

يدعو ايليا الى دخول الدكان.

. اجلس مكاني، تفضل.

ايليا يتردد.

. اجلس هنا على الكرسي.

يجلس ايليا وهو يكتّف يديه مطيعا.

. انا كنت جالسا هنا يوم الاحد اللعين ذاك. ماذا يمكنك ان ترى؟

نظر ايليا الى الخارج. باب الكنيسة والقسم الاوسط من الساحة فقط.

قال الرجل:

. كل واحد قال يا رب نفسي.

. من كان واقفا هنا في الدكان؟

سأله ايليا فجأة.

. كان والدك هنا برفقة شاب آخر من عائلتكم...

قاطعه ايليا منتفضا:

. كيف عرفت من أنا؟

. تجاوزت السبعين من عمري يا ابني...

. وإن يكن...

أصيب ايليا للحظة بشيء من الهلع. كأن عينا عليا تراقبه وتتبعه، لكنه سرعان ما انتبه الى وجود سائق سيارة المرسيدس، الاجرة. كان نائما، مستلقياً على مقعد القيادة، يشخر في ظل شجرة الكينا. ارتاح ايليا الى اكتشافه هذا.

. سائق السيارة هو الذي أخبرك...

أكمل الرجل دون تعليق مؤكدا ظنّ ايليا:

. كان هناك مصور اقترب من والدك ورفيقه وعرض التقاط صورة لهما، اذكر ان والدك وضع سيجارة في فمه ليتصور. كانت موضة تلك الايام، الشاب يتصور والسيجارة في فمه. انا لا اخفي شيئا، اخبرك ما رأيت. لكن بعد دقائق لعلع الرصاص فاختبأت وراء الواجهة ولما رفعت رأسي كان الدكان فارغا...

هناك روايات يتأكد السامع انها ناقصة وان من يدلي بها يعرف أكثر مما يقول. حركات باليد وبالعينين. يحب صاحب الدكان، من أب مزواج وأم برازيلية، أن يبهّر أخباره. يبدو أن هذا من طبعه.

. يا ابني، هناك أناس قُتلوا برصاص أقاربهم...

ثم أضاف بصوت هامس:

. أو برصاص أصحابهم...

التفت ايليا فأضاف الرجل:

. على كل حال، لا تصدّق كل ما تسمعه.

انها وصية الجميع.

أكمل صاحب الدكان صحن البامياء بالأرز وارتشف قعر كوب العرق أمامه على الطاولة بينما القى ايليا نظرة اخيرة على ساحة الكنيسة. في طريق العودة، بقي سائق التاكسي صامتا لكنه كان يرمق ايليا بنظرة خاطفة في مرآته كلما حانت له الفرصة عند منعطف صعب او عند أي توقف قسري.

. VIII .

بيوت العامة من بينهم، وهم السواد الاعظم، كانت صغيرة، فقيرة. غالبا بغرفة واحدة أو غرفتين، مع بيت خلاء خارجي. متراكمة بعضها فوق بعض في احياء ضيقة، واطئة، رطبة، مسقوفة بالتراب يصار الى حدلها في الشتاء اتقاء للدلف، وينبت فيها عشب الربيع في شهر أيار. ولما شيّد أحد الوجهاء في مطلع القرن العشرين بناء من الحجر الرملي بثلاث طبقات اجتمع له ثمنه، على الارجح، من اموال الاغتراب الاولى، سمّوه "العمارة" تفخيما. كانوا أطلقوا قبل ذلك اسم "الكبرى" على بيت فسيح ومهيب من العقد بناه احد مشايخهم قبل اكثر من قرن من الزمن ولم تجد الدولة أوسع منه لتحويله سرايا حكومية في الاربعينات.

لكن "البيوت الكبيرة" في نظرهم لم تكن فقط حجرا منحوتا وعقدا مزدوجا أو مثلثاً وقناطر، وقرميد "النحلة" الفرنسي في ما بعد، وهذا ما تيسّر تقليده لمن جمعوا مالا في المهاجر ومن جنوا شيئا من تهريب الحشيشة عبر طرقات االبقاع الواصلة الى الشط البحري، ومن تعهد الاشغال العامة في دولة الاستقلال. بل أن "البيت الكبير" باب عال مفتوح وسفرة مليئة ممدودة وإرادة في تحمل البسطاء بقلة درايتهم وخشونة مظهرهم واسئلتهم الساذجة واندفاعهم بلا حدود، السعداء بالجلوس في حضرة ابناء البيت ومجرد الاصغاء الى ما يقولونه ومتابعة افعالهم الصغيرة.

و"البيوت" هذه محطة لا مفر منها أمام الادباء أو الحجاج والمبعوثين القاصدين الشرق من بلاد اوروبا، يخصّونها باشارة في تقريرهم اذا كانوا يعملون لصالح وزارة الخارجية أو باطراء في الرواية الادبية التي ينشرونها عن رحلتهم حول ضيافة أهل "البيت" وكرمهم واستخدامهم الشوك والسكاكين المذهبة في الاكل، وهو أمر نادرا جدا في انحاء المشرق.

ولابناء البيت الكبير ألقاب عثمانية ايضا أهمها "البكوية" وأندرها "الباشوية"، منحت بعد مقابلة احد وزراء الآستانة بموجب فرمان موقع من مولانا السلطان عبد الحميد، ومحفوظ في درج

مغلق مع حجج الملكية التي يقال احيانا في الهمس ان البعض منها كان اغتصاباً او سداداً لمال الربا، ولو ان قسماً منها أعيد وهبه للوقف الماروني في لحظة ضعف او شفاء من مرض عضال.

وفي صدر الدار رسم زيتيّ لكبير البيت ومؤسسه طريّ الملامح، مرتديا زياً مدينياً أقرب الى لباس التجار في المدن الساحلية منه الى بذلة الفرسان. والى جانبي الرسم الكبير صور فوتوغرافية للسيدات بقبعاتهن على الموضة يلعبن كرة المضرب عند دخولها الاول الى هذه البلاد، وتاريخ العائلة مع شجرة انساب معلقة في الجدار تمتد الى ماض يستحيل التصديق انه غارق الى هذا الحد في القدم والرفعة، تعب في جمعها وتنقيحها راهب ماروني من اصدقاء العائلة.

والبيت الكبير ايضا ارض "سليخ" مترامية الاطراف وبيدر للقمح ومعصرة زيتون ومربّية أجنبية للاولاد، وأحيانا كنيسة صغيرة يحتفلون فيها بالقداس يوم الاحد مع الاصدقاء ويُدفنون فيها، وزوجات جميلات او غير جميلات، بل دائما ثريات من بيوت أخرى في جبل لبنان لا تقل شأناً وجاهاً. علماً أنه لا بد في يوم من الايام أن ينشب خلاف مع الذكور من اشقاء الزوجات حول تقاسم الورثة ورغبة "البيوت" في حرمان البنات حفاظاً على حصر الملكية بالذكور.

ويقصد البيت زوار لا يتكلمون العربية، اذ لا بد ان يكون احد ابناء البيت يعمل ترجمانا لدى القنصل الفرنسي في بيروت حيث يوسع معارفه. او ان الابن البكر تابع دروسا ربما لم تكتمل في عينطوره على يد الاب سارلوت اللعازاري الذي نصح به المندوب السامي الفرنسي فسمّاه نائبا في الحصة التي تعيّنها سلطات الانتداب في مجلس النواب الحديث العهد او حتى وزيرا للتربية في حكومة لم تعش اكثر من شهرين. وكان والده قد عُيّن مدير ناحية في زمن كان فيه واصا باشا، متصرف جبل لبنان، ضعيفا تجاه الهدايا والدعوات الى المآدب المزدانة بالسيدات الجميلات اللعوبات.

واهل "البيت" لا يحبون الكثرة، فاذا حمل غيرهم من ابناء عمهم اسمهم حاولوا اطلاق الالقاب الساخرة وتثبيتها على ابناء العم هؤلاء لينفردوا هم بحمل الاسم صافيا دون تحريف اثباتا لاصالتهم وأحقيتهم بالتفرد فيه. واذا وقف الى جانبهم من ادّعوا القربى معهم لتلقّي التعازي بفقيد، صرخ الوجيه مستنكرا ومطالبا أبناء عمه غير المعترف بهم من العامة ان يبتعدوا وأن لا يبقى واقفا الى يمين باب الكنيسة سوى "انا وخي وابن خي" وذلك بلهجة غريبة عنهم لا يدرون من أين اكتسبها "كبير" البيت أو لعله يتصنعها لمجرد الاختلاف عنهم. وكأن تفضيلهم للقلة وحصر الاملاك والنفوذ في وَرَثَة معدودين جعلهم يبخلون في الانجاب فكانت هذه "البيوت" الكبيرة مهددة دائما بالاقفال كما يقولون.

رمز البيوت الكبيرة وعلمها يمتطي حصانه البرونزي اللماع من تصميم النحات يوسف الحويك، اجتمع يوم ازاحة الستار عنه نخبة شعراء لبنان وزجّاليه من اقصاه الى اقصاه، محفور على قاعدته بيت من الشعر لم يعرف قائله، "ملأت صدورهم خوفا فظنوا أن الارض قد نبتت رجالا". يشهر الفارس سيفه عاليا وعيناه مثبتتان في الأفق أمام باحة كنيسة القديس جرجس الشاهر رمحه من فوق صهوة جواده هو ايضا في الصورة الزيتية الكبيرة المرفوعة فوق المذبح والتي تحمل توقيع الرسام داوود قرم الذي لم يترك كنيسة الا تخيل قديسها بابهى الحلل المستوحاة من فن النهضة الايطالية.

والتمثال ليس لغائب واراه الثرى، فجثمان الفارس لا يزال في داخل الكنيسة محفوظا في صندوق من الزجاج لم يحنّط. نعم يؤكدون جميعا أنه لم يحنّط. منذ أكثر من مئة عام ولا ينقطع الزوار عن المرور أمامه وهو كأنه هكذا لم يمت بل أدرجوا أسمه في رأس قائمة أول احصاء للسكان اجري عقب الحرب الكبرى وكان توفي قبل ذلك بثلاثين عاما على الاقل، فكان اول الاحياء وهو اكبر الاموات. استنجدوا بذكراه وطلبوا شفاعته ومساعدته كلما أضاعوا شيئا عزيزا عليهم او قطعة نقدية سقطت من جيب ولد لا يملك غيرها.

وزّعوا الروزنامات على اسمه وفيها صورته تارة واقفا في حضرة الحبر الاعظم في روما، يوم اتفق قناصل الدول الاوروبية على نفيه بالتواطؤ مع البطريرك الماروني "الخائف" منه كما يجزمون، وتارة مرتديا صديرية مطرزة بخيط الذهب. اطلقوا اسمه على فريق كرة القدم وعلى جمعيات أسسها مهاجروهم الى المكسيك والارجنتين. صنعوا مجسمات من الخشب والحديد والطين لتمثاله الكبير وصوّر الرسّامون معاركه في النصف الثاني من القرن التاسع عشر وجثث القتلى متراكمة، ومن هوى منهم الرسم ابتدأ بتصوير وجهه الصبوح وقسماته الرجولية. نظموا فيه كل اشعارهم وندبوه طالبين من السماء أن تضيء عليه وعلى رجاله قمر نيسان ليساعدهم في ليل العراك على قهر الاعداء وسمّوه "بطل لبنان"، وكان عفيفا بتولا ولحبه الحشمة يمنع النساء من رفع اكمامهن الى منتصف الذراع.

قدّموا عليهم من بعده ابناء اخيه وكانوا ثلاثة راضتهم سلطات المتصرفية بمناصب ادارية، لكن كما كان يخشى عند ابناء البيوت الكبيرة، لم ينجب الاول اولادا فاعتقدوا أن زوجته عاقر فتوفي باكرا. وكان للثاني مولود ذكر توفي في عز الشباب من داء كانوا يسمّونه "ريح السداد". وقد طال مرضه لأيام فصوّموا الدواب نذرا لشفائه وجرّحوا ركابهم بالدماء لفرط ما مشوا عليها طلبا لشفاعة العذراء في كنيستها الصغيرة الجاثمة على احد المرتفعات. رفضت أمه دفنه قبلها وأبقته معها في تابوت محكم الاغلاق حتى أخرجوها قبله، بعد عشرين عاما، من باب البيت كما أصرّت.

انجب الثالث صبيا قبل وفاته بقليل وبعد زيجة ثانية، لكنهم لم ينتظروا الصبي ليكبر فاختاروا زعيما من اقاربه البعيدين وكان من العامة، اسكافيا، ولو انه صاحب بأس، فبدأت الدنيا تتغير وظهر له منافسون. لكن بقي لابناء البيوت الكبيرة محبّون من ابناء العائلات الصغيرة يضربون الطبول في اعراسهم واحتفاء بمواليدهم، وللطبول عندهم ارقام وقياسات، يطلقون الزغاريد اذا ما نجح وارث البيت في احدى الشهادات الرسمية، يحتشدون حول المنزل اذا أصابته وعكة أو حمّى عابرة، وينشرون الرايات السود اذا ما توفي منهم رجل، ولو شيخ في سريره، فيندبونه كأن المنيّة وافته على ظهر حصانه تماما كما هو واقف الى الابد عمه الكبير فوق مطيته البرونزية، فقالوا فيه:

يا حمرا يا ام الشامات

لا تقولي خيّالك مات

خيّالك راح عا بيروت

تايجبلك جوز ركابات

انفرط العقد من حولهم مع "تغيّر الدول" وخصوصا أن الباقين، من تربط بينهم اواصر قربى "دموية" كما يقولون، بعضها مؤكد وبعضها متوهم، استفاقوا على انفسهم. تذكروا أنهم من جدّ واحد، وأول ما استفاقوا على اسمائهم. انتبهوا فجأة أنهم كثر ويتوزعون وللاسف على هذا او ذاك من أهل النفوذ وابناء البيوت الكبيرة فإذا بهم يكتشفون ان في مقدورهم ايصال نائب من بينهم الى البرلمان بعدما جاء الانتداب الفرنسي بقانون الانتخاب على درجتين اولا ومن ثم بالاقتراع العمومي في تجريع تدريجي للديموقراطية في بلدان المشرق.

حمّى وانتابتهم، مع انهم قبل سنوات قليلة، عندما طلبت منهم المديرية العامة للداخلية الحضور الى سرايا البلدة القديمة التي كانوا بنوها بعونة قلّ نظيرها طمعا بتحويل بلدتهم مركزا للمحافظة، وعدم نسيان أحد ممن هم في عهدتهم. لبوا النداء صفوفا لفرط ما سمعوا من اقاويل تهددهم بان من لا يسجل اسمه لن يكون لبنانيا بعد اليوم. أعلنوا عن اسمائهم كما توارثوها أبا عن جدّ وكما اعتاد الكاهن كتابتها في سجلات الكنيسة يوم يُنَصَّرون او يعقدون قرانهم او تحين ساعتهم. من مثل: "في ليل الخميس الواقع فيه 14 تموز 1930 عند الساعة الثانية والنصف توفي بطرس انطانيوس خطار بموت الفجأة والغفلة فزوّد الحلة شرطيا على يد الخوري الياس

المارديني". فباتوا يصرون على كتابة الاسم كاملا. بطرس انطانيوس خطار **الرامي**. وكأن اغفال اسم العائلة صار فجأة خطيئة بحقهم لا تغتفر وانتقاصا من كرامتهم وطمساً لعراقة اكتشفوها لتوهم.

استفاقوا على اسمائهم في الاربعينات، وتحديدا في منتصف الاربعينات، فعادوا مرة ثانية الى السرايا الحكومية، الى قاضي المحكمة وبيدهم إلتماس لتصحيح ما قالوا انه سقط سهوا من اسمائهم، وقد ضجر منهم القاضي حتى انه كلّف المنادي، وكان بعين واحدة، ان يدور على الاحياء ويقف عند مفترقات الطرق ليصرخ ويبلغهم ان جلسات تغيير الاسماء تدرس ايام الثلاثاء من كل اسبوع فقط. كانوا يعرفون الاجراءات، حتى أنهم لم يكونوا يضطرون الى تكليف محام بل يكتفون بتقديم الطلب وإحضار شاهدين والاجابة عن بضعة أسئلة، والكاتب في قلم النفوس وبائع القهوة عند باب السرايا يشهدان للجميع، والقاضي يستشيط غيظا متسائلا امام كاتبه ما الذي دهاهم جميعهم فجأة كي يستفيقوا على اواصر قربى ظلت لاجيال لا تعني سوى قسمة الارض والارث ومناكفاته.

ولفرط ما عاد موظفو دائرة الاحوال الشخصية الى السجلات وفتحوها على طول ذراعهم لتصحيح الاسماء واكمالها وشطب المتوفين والبنات المتزوجات المنتقلات الى بلدات أخرى وتسجيل المولودين الجدد، تآكلت أطراف الدفاتر الكبيرة وتمزّقت صفحات منها أعيد لصقها بصعوبة فبات وجودهم مهددا لان صفحات عديدة كادت ان تتمزق أو يُمحى ما عليها وكادت تضيع معها اسماء عديدة.

اليوم صار يمكنهم شفاء غليلهم بالعدد، عدد الناخبين في عائلتهم، فيحصلون على قرص مدمج انقذ جداولهم من الزوال توزعه وزارة الداخلية على الراغبين فيتمكنون من احصاء اقاربهم كما هي واردة اسماؤهم في جداول الشطب، ويأسفون لان من هاجر منهم الى البلدان البعيدة في اميركا الجنوبية واوستراليا لم يكلف نفسه عناء تسجيل اولاده والا لكان عددهم تضاعف. كما يمكنهم اليوم أيضا الابحار مع محرك البحث "غوغل" سعيا وراء اسماء عائلاتهم فيجدون من يحمل شهرتهم نفسها واسماءهم الصغرى احيانا في مجلس الاعيان في دولة البحرين او في عداد المنتخب المغربي لكرة القدم. ودبّ النشاط الالكتروني في بعض الفتيان المتمرسين في الشبكة فانشأوا موقعا لعائلاتهم على الانترنيت، "سمعاني دوت كوم" مثلا، صمموا له ولعائلتهم شعارا من سيف وكتاب وعصا السلطة الدينية، وراحوا يدوّنون فيه ولادات العائلة في الوطن والمهجر وزيجاتها ووفياتها، يتبادلون عناوينهم الالكترونية الى جانب اخبار اعيان عائلاتهم والتذكير بمشاهيرها . مؤرخ يقول بسرمدية الجبل اللبناني كتب له الجنرال ديغول مقدمة لمؤلفاته أو رسّام سافر الى بلاد بعيدة وبقيت مشاهد طفولته والوانها مادة لوحاته الاولى والوحيدة . لتصبح عائلاتهم الافتراضية واسعة غنية مترامية الاطراف، يفاخرون بأنها تضم طبيبا مجليا في

جراحة الاعصاب في كاليفورنيا أو قاضيا ترشح لمنصب عمدة مكسيكو العاصمة او لاعب الارتكاز الاساسي في المنتخب الاوسترالي للركبي.

وكان وراء كل عائلة من يهتم بجمع شملها، وجيه أو ثريّ بدأ في العاصمة بنسج علاقات ودية مع المسيو بلافون، احد مساعدي المفوض السامي الفرنسي، أو مع أحد موظفي البعثة البريطانية، يأخذ منهم وعودا بالدعم ويرجع الى البلدة في نهاية الاسبوع ليعمل على ان يضم الى عائلته المستيقظة على نفسها ما أمكن من الاقارب المعروفين وممن جعلوا من الجيرة قربى تخولهم حمل اسم العائلة الكبيرة أو حتى ممن أضافوا الى اسماء عائلاتهم الصغيرة أسم عائلة زوجتهم. وللعائلة "زعيمها" ومرشحها الى المقعد النيابي، يقلّد أبناء البيوت الكبيرة إذ يسعى الى بناء منزل "لبناني" الطراز كما يسمونه ويحرص على ألا يأخذ له زوجة من أهل البلدة.

وهم عندما استفاقوا هكذا على اسمائهم وعائلاتهم اعتقدوا انها أزلية، لذا استغربوا ما اخبرهم به مؤرخ شاب زار اسطنبول على حسابه الخاص وراجع سجلات "الطابو دفتري" العثمانية العائدة الى القرن السادس عشر يوم أفرجت عنها وزارة الثقافة التركية، من ان اجدادهم كانوا يحملون اسماء بسيطة، اسم الرجل واسم والده: رزق بن جرجس او حتى وبكل بساطة اسحق بن أبراهيم. لم يكترثوا لما كان يقوله حول عدد بيادر القمح ومعاصر الزيتون والابقار والاشجار المثمرة والضرائب التي كان يدفعها اجدادهم لوالي الشام تارة ولوالي طرابلس احيانا اخرى، وكيف كانوا مزارعين، أشداء، يستصلحون الوعر، يقاسون الاضطهاد، وخرج من بينهم رجال دين أتقياء انقياء، اساقفة وبطاركة شرحوا أيمانهم وثبّتوه في مؤلفات نادرة وبلغات عديدة، رهبان جاؤوا بأول مطبعة الى الشرق، وأسسوا في بلدتهم أول مدرسة في جبل العلم والقداسة، كل ذلك لم يثر اهتمامهم بل كانت صدمتهم كبيرة عندما تأكدوا أن اسماءهم، اسماء عائلاتهم التي، ما ان يحتدم النقاش، يقولون انهم دفعوا ثمنها دما، أن هذه الاسماء لم تكن موجودة في تلك الايام وانهم ربما اخترعوا بأنفسهم هذه العائلات في زمن الديموقراطية العددية.

كانت العائلة الواحدة تنقسم فروعا سمّوا الواحد منها "جبّا" وكان لكل "جبّ" صفاته، من مثل أن رجال الجبّ الفلاني يموتون عادة بمرض القلب الوراثي أو أن غيرهم من جب ثان يحبون الافراط بالملح في المآكل أو غيرهم جبناء يرتدون ثياب النوم مع غروب الشمس أو أنهم لا يدفعون حقا مستحقا عليهم لأن جدهم أوصاهم بألا يفعلوا. ونسجوا اخبارا حول افعال الشجاعة فكان لكل عائلة "قبضاياتها" المقطبو القسمات دون سبب، وقد ذاع صيتهم وتم التداول في افعالهم في اماكن بعيدة، واستحق كل واحد منهم لقبا يتباهى به، وصاروا يحصون عدد "بنادقهم"، ولو همسا، بعد ان كان لهم مجتمعين وقبل ان ينقسموا "عائلات"، رجال اشداء لا يحملون اسماء العائلات الكبيرة، يتشاركون في تذكّرهم وضرب المثل بهم كبطرس توما الذي هاجم الاعداء حاملا المدفع على كتفه او الغزال والعاقوري اللذين قتلا في الجرد العالي برصاص بنادق الجنود

الاتراك بعد ان فرغ سلاحهما من الذخيرة، وسركيس نعوم الذي كان يؤمّن القمح دون حساب في زمن المجاعة والحصار على جبل لبنان إبان الحرب الكبرى، وقد أُخذ ذات يوم غدرا.

وصاروا يقفون جميعهم لتقبل التعازي مع أي فقيد من عائلتهم الواسعة، ومن خرج عليهم من اقاربهم عدّوه شيوعيا أو ماسونيا، وهم يتساءلون كيف يمكن نكران الاهل، فباتت لقرابة الدم وطأة ملزمة حتى على من ليس لديهم الكثير يقدمونه، وراحوا يترددون في اختيار زوجات من خارج العائلة وحاذر بعضهم مخاطر المستقبل فاستأجر أو اشترى لنفسه بيتا أقرب الى حيث يقطن أقاربه. فضّلوا شراء حاجياتهم اليومية ومؤونتهم من دكاكين أبناء عمهم ولو كانت بعيدة عن بيوتهم، لكنهم بقوا إذا ما التقوا من مختلف العائلات وحتى الأكثر تنافسا وتناحرا، إذا ما ألتقوا صدفة في العاصمة بيروت او حتى في اي مكان خارج بلدتهم يسارعون الى تبادل السلام بحرارة عارضين خدماتهم بتكرار والحاح، وهم كانوا في غيرتهم هذه بعضهم على بعض صادقين، وقد نقلوا انقساماتهم العائلية الى سيدني وكاراكاس ومكسيكو حيث لم يجرؤوا على العنف لتصفية حساباتهم بل اكتفوا باجتماعات يشدّون فيها أزر بعضهم البعض ويعرضون المساعدة على أقاربهم في الوطن والتي لم تتعد تغذية صندوق العائلة بدولارات نجحوا في توفيرها من عرق الجبين. نبشوا امثالا تقول ان "من ينزع ثيابه يبرد" و"أن الدم لا يصير ماء". أمثال يشهرونها في وجه من يشعرون بأنه متردد أو مشكك في "مسيرتهم"، وراحوا يشكون أن لا أحد من العائلات الأخرى يحبهم وأنهم "سذّج" يندفعون مع الآخرين ولا يلقون في المقابل سوى نكران الجميل.

برز من بينهم متكلمون فصيحون أنصاف متعلمين يدّعون المعرفة بالماضي والكتب فراحوا يصنعون لعائلتهم تاريخا شفهيا عريقا لا يتداوله ويتناقله أحد سواهم، يؤكد اسبقية وجودهم هنا وأقدمية نفوذهم في بقعة الارض وملكيتها، كأنهم لم ينزحوا اليها من أي مكان آخر في الدنيا. واذا تساهلوا في هذا الباب فليقبلوا فقط التحدر من عائلة فرنسية وصلت الى الشرق برفقة الجيوش الصليبية، تاريخا ينسب الى جدودهم في العائلة بطولات من ماض حالفوا فيه الامراء الشهابيين، طردوا اليعاقبة من جوار بلدتهم او دقوا الجرس في قرى اسلامية لم تسمع رنينه من قبل، ومنهم من اكتشف ان اجداده كانوا مقدمي البلدة وقد أخذت منهم بالحيلة في القرن الثامن عشر وقد آن الاوان لاسترجاعها في منتصف القرن العشرين.

وقد انبرى من بينهم قاض أديب سجل لهم في مجموعة من الكتب أنسابهم وشجرة القربى التي نسجوها في ما بينهم، وكان متأنيا في كل ما يورده كي لا يخدش احدا في اصوله وهذا ما لا تحمد عقباه فنسبهم عائلة عائلة وجبّا جبّا الى أفضل ما يشتهونه لأنفسهم، وروى لهم أفعالهم كما كان يحلو لهم روايتها، أي أنه لم يأت على ذكر مذلّة لهم ولا فعل غدر واحد بل سيرة متصلة في التفوق والشجاعة.

واكتشفوا او تذكّروا في العائلات الاخرى رذائل متمادية من نوع البخل الشديد وسهولة شراء اصواتهم في الانتخابات او جيرتهم الصعبة في السكن وخصوصا في البساتين لانهم لا يتورعون عن الاعتداء على املاك الغير فيحرثونها ويزرعونها ويأكلون مواسمها اذا لم يردعهم رادع، أو يتنبهون الى ما في سلوك نساء تلك العائلات المنافسة لهم من تساهل وخفة مع الرجال، أو أنهم ليسوا "مؤصّلين" في البلدة وأن مراجعة افعالهم في التاريخ القديم والجديد خير دليل على تحدرهم المشبوه هذا، الى ما هنالك من صور للغدر ونصب المكائد او للجبن راحوا يلصقونها بالآخرين. كما فصّلوها في مطوّلة قالوا انهم يميطون فيها اللثام عن جرائم اخصامهم بدءا بسرقة الماشية واضطهاد أهل المزارع المجاورة في عز أهوال الحرب العالمية وصولا الى اغتيالات مدبرة ترمى مسؤوليتها بمهارة على آخرين، بينما ينسبون لانفسهم واقاربهم البسالة والقدرة على التحدي، ويعددون لدى اعيانهم مزايا من نوع الكرم والحنو على الفقراء والمزارعين وسؤالهم عن محاصيل بساتينهم وأحوال ابقارهم التي كانوا يعرفونها بالاسم، والحنكة السياسية وادراك المعطيات والمتغيرات في مواقف الدول الكبرى.

وكانت نساؤهم أكثر تشددا من الرجال في طلب ردّ الصاع صاعين، واشتهرت منهن تلك التي قالت لابنائها إن "من تلكأ في الأخذ بثأر أخيه حرم من ميراث أبيه"، او تلك التي سقط زوجها برصاص الجنود فرمت فوقه شرشفا ابيض وهي تنادي ابناء عمه أن لا يلتفتوا اليه ويكملوا النزال. وقد اسقط في يد ابناء العائلات الصغيرة الذين لم يكوّنوا لأنفسهم عزوة ومنهم من كان يسمح لهم عددهم بذلك لكنهم لم يوفّقوا بوجيه يجمع شملهم فاكتفوا في ما بعد، وتعويضا عن احباطهم، بالتشارك في صندوق لدفع تكاليف الدفن أو مساعدة مريض معدم من بينهم، فتوزعوا الولاء على العائلات الكبيرة ليطلق عليهم اسم لفيفا هنا او عزّة هناك، والعزّة هي في لسان العرب ما انضم الى القطيع من رؤوس غريبة. وكانوا يبالغون في الولاء ويندفعون للخدمة، ينظمون الاهازيج الركيكة في زمن الانتخابات وهم يُخرجون رؤوسهم من شبابيك السيارات راسمين اشارات النصر، يتوزعون على القرى والمزارع المحيطة، يؤمّنون اقتراع انصارهم هناك وينظرون شذرا الى مؤيدي اخصامهم، يرسلون من بينهم مندوبين الى جميع القرى وداخل اقلام الاقتراع، أقلام الرجال وأقلام النساء، يجولون في البلدات قبل اسابيع من يوم الانتخاب، ليلا ونهارا، يرفضون الدخول وراء العازل ليسقطوا ورقتهم جهارا للتأكيد أنهم "يحلبون صافيا" مع زعمائهم.

وكان محافظ الشمال يخشى احتكاكهم ببعضهم فيطلب من كل طرف ابلاغه برنامج زياراته كي لا يتلاقوا ويحتكموا الى السلاح لكنه سها عن ذلك أو قيل انه قصد ولاسباب سياسية تركهم يلبّون معاً نعوة بمناسبة مرور عام على وفاة شقيق للمطران في احدى البلدات على سفح الجبل حيث تواجهوا وغرقوا في نهر من الدماء واعمال الثأر التي ظلوا يجرجرونها وراءهم لعقود من الزمن في حرب مكشوفة نصبت فيها المتاريس واستقدمت لتسعيرها المدافع والرشاشات الثقيلة

ولم يبق بريء الا خُطف ولا عابر سبيل الا ضُرب بالرصاص، واذا اصطلحت الامور للدولة يوماً كي تُرسل عساكرها للفصل بين المتقاتلين وفرض الأمن ولو لشهور معدودة، فلكي ترتد الحرب من الشوارع الى الصدور، تتحين الفرصة لتُطلق شرارتها من جديد.

IX

الساعة الخامسة تماما، صرخت   هيفاء ابو دراع.
صرخت صوتاً مثل السكّين.

انا كنت في البيت، بيت أهلي. لم أخرج منه حتى اليوم ولن أخرج منه إلا في ساعة مماتي. فأنا لم أتزوج. كنا ثلاث بنات رفيقات في صبانا، نتنزه كل يوم معاً. نشبك ايدينا بعضها في بعض وننزل عند العصر للتنزه على طريق النهر. نرتدي احلى ثياب لدينا، نفعل كل ما في وسعنا كي يتحرش بنا الشباب، واذا تحرش بنا مندفع تمنيناه، احمررنا خجلا وأشحنا بوجوهنا في الاتجاه الآخر. ظللنا نحمرّ خجلا ونشيح بوجوهنا في الاتجاه الآخر حتى بقينا ثلاثتنا بدون زواج.

عندما صرخت هيفاء ابو دراع، كنت في البيت لاني لم أكن أحب يوم الأحد. لا أعرف ماذا يجد الناس في يوم الأحد، انا أمضيه في البيت، مثل غيره من الايام. لا أحب أن أعمل له قيمة، سوى بالقداس. أقدّس وأعود لأغسل وأجلي واتجادل مع أمي كما في سائر ايام الاسبوع. يرتفع صوتنا، نتسلى ببعضنا، نختلف على كل شيء. من صغري أحب شغل البيت، أحب النظافة والترتيب وارتاح للتشاجر مع أمي.

لم يعجبني صوت هيفاء ابو دراع، ولم يعجب أمي. كانت جالسة، أمي، تشتغل بالابرة، وجه لحاف، قبالتي على المقعد، نظرت اليّ ونظرتُ اليها.

اعتدنا على ضجيج هيفاء، يوم لا يصلنا من عندها سباب أو أصوات عراك، نعرف أنها نزلت الى السوق في طرابلس. هدنة صباحية.

كان صوتها هذه المرة عميقا، من عزّ الروح. احرقتُ قميص أخي قبل ان انتبه فوضعتُ مكواة الثياب جانبا ورسمتُ اشارة الصليب. أرتدي من جديد ثياب البيت بعد عودتي يوم الاحد من القداس، لمن ألبس، لدي فساتين وكل ما يلزم، لكن لمن ألبسها؟

اقتربت أمي من الشبّاك. لم نسمع حسّا بعد صراخ هيفاء. لا شيء. صمت عميق لفّ الحي. كأن الخبر، كأن ما تسبب بصراخ هيفاء كان ينتقل همسا، كعادة أخبار الشرّ عندنا، تنتقل من حارة الى حارة، من باب الى باب وخصوصا من امرأة الى امرأة، حتى اذا اصاب احدهم صرخ. صرخ كمن تضربه الكهرباء.

أصاب هيفاء ابو دراع، لا أعرف من تجرأ على إخبارها. أخوها وحيد بين خمس بنات، كيف يمكن اخبارها؟ يبدو أن امرأة وقفت في بابها وقالت لها ان أخاها جريح. صرخت صرخة واحدة وغابت عن الوعي. عرفت انه مات، وان خبر السؤ يبدأ مخففا ليسهل تجرعه. اذا قالوا ان فلانا نقل الى المستشفى يعني انه شبع موتا. الخبر الحقيقي يرتسم على وجه ناقل الخبر وهيفاء تحسن قراءة الوجوه.

أصابها الخبر وأكمل طريقه، في جميع الاتجاهات. وصل الينا بعد دقائق معدودة، مع اختي الصغيرة التي كانت في طريقها الى الدكان لتشتري لبن ماعز، كانت اول أيامه. فعادت أدراجها. أخبرتنا أنها لم تعرف لماذا عادت ادراجها، دفعها شيء في الهواء، في نظرات الناس كان يقول لها عودي الى بيتك يا بنت. دخلت خائفة تنظر الينا كأنها ستجد لدينا الخبر، كادت تتعثر وتقع أرضا بطولها، صفراء مثل الباسوم تتلفت كأن شيئا ما يطاردها. لم نستفد منها إذ عجزت عن الكلام، انعقد لسانها وارتمت على المقعد. لم تسمع شيئا ولم تر شيئا.

الأخرس يعرف أكثر منها، يعرف كل شيء. دخل وراءها. جارنا ومن أقارب أمي البعيدين، حافي القدمين كعادته، كلما اجتاز عتبة بيتنا دخلت معه رائحة القصب والنهر، يصطاد الحنكليس ويحوك السلال. كان في وجهه كلام. توجه نحو أمي.

تجالسه كل يوم بعد فراغها من شغل البيت، يترك حياكة السلال ويقترب منها، يشربان القهوة. كان أصم أبكم كاملا، وحدها تفهم لغته وتبادله اياها. منظرهما جميل، علّمها لغته. لغة بأكملها من تأليفه، يعرف كيف ينعت فلانا بالبخل او فلانا انه يضع نظاراتين وفلانة بانها تكذب كثيرا. يحمل الينا أكلة من صيده كلما توفّق.

دخل وعيناه تلمعان. بدأ يحرك يديه بسرعة، متحمسا، يرفرف بعينيه، يرسم اشارات في الهواء، تارة كأنه يحرك مقود سيارة وطوراً يقلّد صوت اطلاق النار من فمه في جميع الاتجاهات. كان يخبر أمي حدثا طويلا، متسلسلا. اختي الصغرى الهاربة من الطريق مرتمية على المقعد، خائرة القوى. الاخرس يحني رقبته جانبا، يمد لسانه ويزوّغ عينيه، إشارة ربما الى هيفاء ابو دراع التي صرخت وغابت عن الوعي.

يدلّ يمينا وشمالا الى بيوت الحارة، يقترب من النافذة، يلوّح بقبضته في اتجاه الجبل. في اتجاه برج الهوا. فهمت فيما بعد أنه كان يتوعد البلدة، مستاء منها كما يمكن ان يستاء الرجل من رجل آخر كان تصرفه مهيناً. أمي تتابع، تفهم، تتسع دائرة عينيها، تكاد تختنق من الخوف، تضع يدها على فمها كي لا يطلع صراخها.

لم أعد أتحمل منظر أمي فصرخت بكل قواي:

. ماذا يقول يا أمي؟ ماذا يقول؟ أخبرينا.

أختي الصغرى كانت تضع يدها على فمها. ترددت أمي في الكلام، لم تعرف من أين تبدأ، خرست هي أيضا. نظرتُ الى الاخرس علني أقرأ شيئا في وجهه. كان واقفا يبتسم. هكذا هو، من يوم أخذت رجله على بيتنا، كلما نجح في ايصال مقصده الى محدثه يبتسم.

بدأنا نسمع ضجة الناس. هدير غامض، وفجأة سمعنا زمور سيارة لا يتوقف، سيارة تمر مسرعة نزولا في اتجاه المدينة. كان أهل الحارة قد بدأوا يخرجون من بيوتهم، يستكشفون. امتلأت بهم الساحة، قطعوا الطريق. النساء يسندن خصورهن بأيديهن كأنهن بتن غير قادرات على حمل أجسامهن عند زوايا الشوارع الضيقة أو يكتّفن أيديهن على صدورهن في انتظار الاعظم.
بانتظار اسماء القتلى، وقيل انهم كثر. لم أعد أجرؤ على التفكير في أحد. من من رجالنا لم يصعد الى برج الهوا؟

نادت عليّ كاملة من الشرفة:

. منتهى!

هرعتُ اليها بثياب البيت.

. راح يوسف!

كل من كان لها رجل صعد الى برج الهوا عدّته ميتا في تلك اللحظة.

. لا تتركيني يا منتهى!

لم تكن أمها قد وصلت اليها بعد. بيت أمها بعيد، على كتف النهر. وانا كيف أتركها؟
أنا جارتها من يوم جاء بها يوسف الكفوري الى حارتنا، من يضيّع كاملة كان يجدها عند منتهى، نجلس في الزاوية هناك، في فيء العريشة، نجلس على المقعد ونحكي. لا نترك احدا من شرّنا، لسانها مرّ كاملة. لا تريد الاذى لأحد لكنها تردّ الشرّ عنها.

دخلتُ الى البيت فوجدتُها جالسة ارضاً. حاولتُ تهدئتها وانتزاع المكنسة من يدها. يبدو انه عندما تعالى الصراخ ووصلتها الاخبار كانت كاملة، كعادتها كل يوم، تكنس الشرفة مما يتجمع عليها من ورق الشجر وفتات الازهار. لم يحملها جسمها فجلست ارضا وبقيت المكنسة في يدها. جلست ارضا، مدت رجليها، أمسكت المكنسة بعصاها ورفعتها عاليا. كالعلم.

. لا تخافي، زوجك لا يهوى المشاكل وكل الناس تحبه...

لكنها لم تكن تسمع. لم اعد اتحمل منظرها بالمكنسة.

. اعطيني المكنسة! اهدأي!

لا تفكّ أصابعها. تضرب عصا المكنسة أرضا. في انتظام، ضربة وراء ضربة. حتى ارتفع الصراخ من جهة الشارع العام اشارة الى وصول قتلى او جرحى، فاضطرت الى الوقوف وخرجنا مع الناس الى الطرقات.

كانت مصفحة للدرك واقفة في الساحة وفوق برجها رجل أمن يراقب الجمع. كان له شاربان مفتولان الى أعلى، مثل الملك البستوني المضحك المرسوم على ورق اللعب، لكنه كان ينظر حوله مذهولا. كان منظره مضحكا لكنه كان خائفا او مفجوعا بنا وبقتلانا، لا أدري.

نسأل الناس، كاملة تترجى من تعرفهم ومن لا تعرفهم أن يخبروها ما حدث.

. هل رأيتم زوجي؟ يوسف الكفوري؟

لا أحد يجيب، لا أحد يعرف شيئا. ومن سمع خبرا لا يجرؤ على تكراره. تصرخ بهم أن يجيبوها. يتفادونها.

حوالى الساعة الخامسة والنصف سمعنا صوت هدير يقترب.

وصل القتلى.

اخترقت الجمع شاحنة صغيرة. كانوا مكدسين فيها بعضهم فوق البعض.

الناس يموجون حولها ورجل واقف على سطح الشاحنة يصرخ بهم ان يبتعدوا لان هناك من لم يمت بعد، وان يدعوا الشاحنة تصل الى المستشفى في المدينة بسرعة. ربما ننقذ أحدا منهم.

اقتربنا قدر الامكان وكاملة تدفع بيديها وانا وراءها نشقّ طريقنا لنلاقي الشاحنة. كثيرون تمكنوا من الامساك بقضبان الحديد التي تحمي صندوقها من الجهتين وراحوا يمشون معها، تسحبهم وراءها. كانوا قد صفّوا القتلى بأن وضعوا رؤوسهم داخل صندوق الشاحنة وقد رموا فوقهم غطاء أبيض لكن أرجلهم بقيت ظاهرة.

مرت الشاحنة ولم يتمكن الناس من ايقافها. السائق لا يرفع يده عن الزمور ليفتح الطريق والرجل الواقف على السطح يترجّى الناس ان يفتحوا الطريق. بالرغم من اقترابهم من الجثث لم يجرؤ أحد من الناس على رفع الغطاء الابيض من فوق الرؤوس.

فجأة توقفت كاملة عن اللحاق بالشاحنة، استدارت نحوي وطلبت مني أن ارافقها الى البيت.

. امشي معي ولا تسأليني.

مشيتُ معها. كنت اريد المرور ولو لدقيقة على بيتنا للاطمئنان على اهلي لكنها لم تفلتني. قلت في نفسي ان كاملة جنّت. تمشي مسرعة، تسبقني وهي تقول:

. منتهى، الحقيني!

قالتها عشرين مرة وانا وراءها.

وصلنا فلم تجد مفتاح البيت. أضاعته في لحظة الحشر تلك. رفعنا ابن الجيران بأيدينا فدخل من الشبّاك. كان ولدا صغير القد خفيف الحمل، تمكن من ادخال رأسه اولا وجسمه في ما بعد. قبل أن يصل الى الباب ليفتحه لنا من الداخل، أي ليجتاز فقط غرفة الجلوس ويصل الى

المدخل. كانت كاملة في تلك الثواني القليلة قد ضربت بيدها على الباب مئة ضربة، والله العظيم مئة ضربة واكثر، ضربت حتى سال الدم من بين أصابعها.

. الى اين يا كاملة؟

. الحقيني يا منتهى!

هذا كل ما كانت تعرف قوله.

توجهت الى غرفة النوم، سحبت احد أدراج خزانة الثياب، وقع طرف الدرج على رجلها فصرخت. وضعته أرضا وجلست الى جانبه. كان مليئا بالجوارب الرجالية. درج جوارب زوجها. لم أكن أعرف أن رجلا واحدا يمكن ان يقتني كل هذا العدد من الجوارب. كنت أقيس على والدي وشقيقي، ثلاثة وأربعة جوارب فقط لا غير، نغسلها ونرتقها بواسطة اللمبة اذا تمزقت. ندخل الجورب في اللمبة فيسهل رتقه بالخيط المناسب.

جلست أرضا وراحت تبحث في الجارور. ترمي الجوارب يمينا وشمالا كأنها تلعب لعبة الالوان، وهي تقول:

. كحلي، كحلي، كحلي...

تمسك جوربا وتحار في لونه فتبعده في اتجاه النور الداخل من الشبّاك وتسأل الحاضرين لأن بعض من الجيران لحقوا بنا:

. هل هذا كحلي أم أسود؟

كيف نجيبها؟ اعتقدنا انها جنّت. البيت امتلأ بالجيران. أمسكتُها من كتفها وهززتها كي تحكي. فحكت:

. راح يا منتهى، راح!

أجبتُها على طريقتها علّني اخفف من وطأة كلامها:

. لوين راح، يا كاملة؟

تتوقف عن الكلام. اسألها:

. طيّب، كيف عرفتي انه راح؟

. شفت رجليه في الشاحنة!

هززتُها ثم ضربتُها، صفعتُها على خدّها كي تعود الى رشدها.

. واذا شفتي رجليه، شو يعني؟

. شفت كلساته. كحلي مقلم بأبيض، أعرف كلساته واحدة واحدة. من يغسلها؟ انا. من يجمعها اثنين اثنين؟ انا. من يخلط البنّي والبيج؟ انا؟ والآن، وين الكحلي؟ جيبيلي الكلسات الكحلي تا اسكت، لبس الكلسات الكحلية اليوم وطلع عا برج الهوا يا منتهاااااه...

وصلت أمها فصرخت بها اولا أن تقف على رجليها. نهرتها كما تفعل الأم طالما كاملة رجعت طفلة. جمعت الجوارب من ارض الغرفة وارجعت الجارور الى مكانه في الخزانة. لم تكن تتحمل ان تصبح ابنتها "فرجة" للناس، طلبت من الجيران الانصراف ثم أقنعنا كاملة بألا تستسلم وانها قد تكون مخطئة.

. لا أحد يعرف شيئا، يقولون ان الجثث التي كانت محملة في الشاحنة هي لاناس غرباء.

تهزأ منّا:

. غرباء؟ نحن لا نقتل الغرباء، نقتل ابناء عمنا.

. هناك شائعات كثيرة، لا تصدّقي يا كاملة، قالوا في البداية ان ابو منصور جارنا قُتل لكن بعد نصف ساعة عاد الى بيته سالماً، لا تصدّقي...

. انا لا اصدّق، لم يخبرني احد ان يوسف مات، انا اعرف...

خرجنا من جديد للبحث عنه. لنا أمل أن يكون جريحا فقط. أنا وكاملة وأمها. ثلاث نساء. الشمس تغيب، من يأخذنا الى طرابلس؟

قيل لنا:

. لن يسعفكن الا حميد السمعاني!

قصدنا حميد السمعاني، رجوناه ان يقلنا بسيارته. كانت لديه شفروليه زرقاء يفاخر بها ويخاف عليها كثيرا. رجوناه. لا بد ان منظر كاملة أثّر فيه. كانت عيناها زائغتين ومسحة الموت على وجهها. تهامس مع زوجته قبل أن يقبل باصطحابنا، كان اولاده خائفين، صغارا يطلون برؤوسهم من باب الغرفة الداخلية. صحيح انه من عائلتنا لكنه يتصرف كالغريب، زوجته غريبة، من المزرعة.

اذكر انه رسم اشارة الصليب قبل ان يقلع بنا. في الطريق، شاهدنا قوة من الجيش تدخل البلدة. سكتت كاملة. نظراتها تائهة.

نزلنا الى المدينة، درنا على كل المستشفيات، التقينا بأناس يبحثون مثلنا. أرسلونا من مستشفى الى مستشفى حتى وجدناه، وجدناه ميتا. لم يكن يحمل تذكرة هويته معه، لكن أخبرونا أن اناسا مثلنا يبحثون عن مفقودين لهم تعرفوا عليه، فكتبوا اسمه على ورقة وضعوها في جيب سترته حيث كان يحب ان يضع منديلا من لون ربطة عنقه او زهرة فلّ في السهرات التي كان الخمر فيها يدير الرؤوس.

كان يوسف الكفوري شاباً جميلاً، عيناه زرقاوان، اغرمت به اختاها لكنه لم يكن يرى في الدنيا سوى كاملة. كاملة أصغر أخواتها لكنها كانت هي المطلوبة من الشباب. هي لم تكن تريده، قالت لي ذلك مئة مرة، شقيقتاها أقنعتاها كي ترتاحا منها لانها لو لم تتزوج لما جاءهما

نصيب. كان ممددا في المستشفى في غرفة تحت الارض. مغطى بشرشف ابيض يظهر منه رأسه وكتفاه. كالنائم على ظهره.

وقفن أمامه فكانت اول حركة اقدمت عليها كاملة ان اقتربت منه ورفعت الشرشف عن رجليه ثم التفتت اليّ قائلة:

. صدّقتيني الآن يا ست منتهى؟

لم أفهم مقصدها حتى رأيتها تقترب منه مجددا وتنزع له جواربه. جاءتني نوبة الضحك لما رأيتها تمسك الجوارب من اطرافها وتلوّح بها في الهواء كغنيمة حرب.

. صدّقتيني الآن؟

صدّقتها.

كرّرَت السؤال. تريد مني اعترافا.

. والله العظيم، صدّقتك يا كاملة.

كان افضل ما يمكن ان أعمله السكوت والامساك بها وتخفيف الكلام عنها قدر الامكان.

اخراجه من المستشفى لم يكن بالأمر السهل، أصرت كاملة ان نأخذه معنا. لم نجد لديهم سيارة اسعاف لنقله.

. اريد أن اعرف من قُتل معه.

. لا نعرف بعد.

. اخبروني!

. خمسين قتيلاً.

بالغت بالرقم عمدا لشعوري فجأة انها ستتعزى قليلا إن كان العدد كبيراً.

. أريد ان آخذه معي، الآن!

صرخنا عليهم، انفجرنا نحن النساء الثلاثة. حميد السمعاني كان يحاول التفاوض مع الممرضين. لم نصل الى نتيجة فدخل من الباب طبيب اعتقد انه صاحب المستشفى وقال لنا بوجه ناشف ولهجة عادية لكثرة ما مرّ عليه في حياته من الاموات:

. تريدونه، خذوه.

أحسست اضافة الى لامبالاته بالموت او تعوده عليه ان في لهجته شيئا من الازدراء بنا. تذكّر شيئا:

. لكني أريد رجلاً يوقّع لي على إفادة، انا لا أتحمل مسؤولية اخراج أي جثة من المستشفى قبل أن يعطيني قاضي التحقيق الاذن، وإلا أجازى انا والمستشفى.

تبرع حميد السمعاني ووقّع على الافادة.

حمّلناه في السيارة، وضعنا رأسه على صدر كاملة ورجليه في حضني وجلست أمها في المقعد الامامي الى جانب حميد. السيارة تمشي على مهلها وكاملة تغنّي له. امتلأ المقعد الخلفي دما، لكن حميد السمعاني لم يعر الامر اهتماما، كانت حنجرته تطقطق حزنا ولا يبكي. اتسخ فستاني ايضا لكنه فستان البيت، لم تعطني كاملة وقتاً لأبدل ثيابي.

غنّت له كاملة طول الطريق، كانت هادئة، تمسك رأسه وتشده الى صدرها. لا أعرف من أين جاءها هذا الموّال البغدادي القديم:

احمد محمد علي باشا قتلي راد
بنهار جمعاي (جمعة)
والناس بالميعاد
وانا ركّبوني جمل عالاي (عالي)
والقايدو جلاّد...

كاملة لا تزال تغنّي وحدها حتى اليوم. شبّاكي قريب الى شباك غرفتها، كل ليلة تغنّي. مواويل بغدادية. أنام على صوتها. صوتها حنون، لا يشبهها.

لكننا لم ننم تلك الليلة، لم ينم أحد. بقينا في ثيابنا. لم أتركها. حاولنا اطعامها فلم تأكل. عند الصباح، نقلوا القتلى جميعهم الى ساحة الكنيسة، لا اعرف من طلع بهذه الفكرة. جنازة جماعية، أرسل البطريرك مطرانين، يهون الموت في الكثرة كما يقولون.

ترجع اليّ كاملة:

. لا تتركيني يا منتهى...

انتقلنا الى ساحة الكنيسة. اتفقوا على وضع القتلى حول الساحة. طوال نهار الاثنين، حتى ساعة الجنازة. جاؤوا لهم بأسرّة من البيوت القريبة. لم اتمكن من المرور الى البيت لحظة لأبدّل ثيابي.

. فستاني مليء بالدم، انا ذاهبة لتبديله وأعود، يا كاملة.

. لا تتركيني يا منتهى!

أحسست انها ستموت هي ايضا إن تركتها. كانت مخدّرة، ممسكة بي، نسندها لتمشي، امرأة من كل جهة، تكرر السؤال ألف مرة. سلّمتها الى أمّها لربع ساعة واسرعت لأغيّر فستاني. رجعت فوجدتها تسأله، تسأل زوجها:

. ليش طلعت عابرج الهوا؟

تعيد وتعيد، بصوت رتيب، منهك، كالمسجلة. وفجأة، بين الحين والحين، تستجمع شيئا من قواها وترفع نبرتها:

. ليش طلعت عابرج الهوا؟

ثم تبدأ بتقسيم السؤال. مقطعا مقطعا.

. لماذا – ذهبت – الى – برج الهوا؟

كأنها تصر على سماع الاجابة الآن. ربع ساعة وأكثر لهذا السؤال المقطّع.

ثم تنتقل الى سجل الملامة، بلهجة محببة:

. انت لا تحضر جنازات أقاربك في الكنيسة هنا، من أين جاءتك النخوة لتصعد الى برج الهوا؟

تسكت. أرغمها على شرب الماء على الأقل. تغلق فمها كالصغار الذين يتمنعون عن شرب الدواء المرّ. تشرب، تسقي رقبتها وثيابها، تشرب مرتين وتبدأ بسؤال جديد. السؤال دائما له، سؤال صعب:

. لماذا قتلوك؟

تعيد، تطلب الجواب منه. تصر عليه. هكذا أمضينا النهار.

لم تكن كاملة وحدها تبربر فوق رأس زوجها. عندما كانت تسكت لبعض الوقت تسترجع فيه شيئا من قوتها، كنت انتبه الى ان الكلام دائر حول القتلى الآخرين.

هيفاء ابو دراع فقدت صوتها. هي واخواتها وبناتهن متجمعات فوق رأس شقيقهم. الذكر الوحيد. كانت تشوّر بيديها بدل ان تحكي.

الندّابات ينتقلن من سرير الى آخر. نحن النساء نخاف عندما نكون وحدنا مع الميت فنبدأ بالكلام ولا نعود نعرف كيف نتوقف. الرجال يقتلون بعضهم ونحن نبكي.

تقدّم النهار.

كانت الشمس حادة. كنت أصلّي كي يلهم الله الكهنة ويستعجلوا الدفن. شاب واقف في قبة الجرس، يعدّ القتلى في الساحة بصوت عال. يعدّ ويعيد وهو يؤشر بيده الى كل واحد منهم بدوره وكلما وصل الى العشرة تعالى الصراخ كالجنون. طلب منه احدهم بصوت عال النزول رأفة بالناس فرفض وصار يدقّ الجرس حزناً، من فوق، يمسك كرة الحديد بيده ويضربها على جانب الجرس. ثلاث ضربات ويتوقف.

لا أدري بماذا انشغلت عنها، لكن أحدهم، شخص لا أريد أن أسمّيه، اقترب منها وقال لها همسا شيئا حول فؤاد الرامي وشقيقه بطرس فصرخت كأن أفعى لسعتها. كان رمي الاسماء، اسماء من سيُطالبون بدم القتلى، قد بدأ قبل الدفن.

حوالى الساعة الثالثة، مع اقتراب موعد الجنازة، وكانت الشمس حادة تحرقنا، انحنت امها فوقها وقالت لها:

. مرّي من تحت التابوت.

امرأة قديرة، أمها. تعرف الاصول.

بدا على كاملة كأنها لم تسمع فشدّيتها من كمها كي تستفيق. شعرت أنها لا تفهم ما يقال لها، فكررت عليها الكلام:

. بعد وضع البخور سيرفعون التابوت، مرّي من تحته، هل فهمت؟

اقتربت الساعة.

. ولماذا أمرّ من تحت التابوت؟

تدخلت أمها من جديد:

. يا بنتي، المرأة التي يموت زوجها اذا كانت حبلى...

قاطعتها كاملة بحدة، كأنها استيقظت:

. ... من أين لي الحبل يا أمي؟

سكتنا. لم نشأ أن نجرحها أكثر من ذلك. خفنا من الفضيحة ايضا لو هي بدأت ترفع صوتها. لكن أمها لم تتراجع، عنيدة مثلها، من بيت الفرنجي. انتظرت وضع البخور لتعود اليها من جديد:

. افعلي ما قلته لك، أتسمعين؟

اعتقدت ان من الأجدى اتخاذ القرار عن ابنتها.

. لست حبلى، لست حبلى، لست حبلى...

بدأت ترفع صوتها غاضبة، ضربت يدها على بطنها كما كانت تفعل ساعة يأسها من الاولاد، الواقفات حول القتلى المجاورين لنا بدأن يتلفتن. وضعتُ يدي على فمها ثم همستُ لها من جديد وانا اترجّاها:

. مرّي في كل حال يا كاملة، يا روحي، يمكننا القول في ما بعد اذا لم تكوني حبلى أنك اخطأت...

نظرت اليّ باستفهام، شعرت انها تتردد قليلا ثم نظرت في عيني وقالت بلهجة الصابر على حماقة الآخرين:

. يا روحي، يا عيني، يا منتهى، قلت لكم اني لست حبلى.

. واذا كنت حبلى فماذا نقول؟

كادت تضحك.

اقترب رفع الجثة. أفرغت النساء ما تبقّى فيهن من صراخ. مرت علينا تلك المرأة الغريبة، لم يعرف احد من أين خرجت، كيف وصلت الينا والى أين ذهبت بعد أن أتمت مهمتها.

رأيت امرأة لم أرها في حارتنا من قبل، طويلة بيضاء، تنتقل من سرير الى سرير، تجلس الى جانبهم، ترتّب لهم ربطات العنق، ترفع خصلة شعر متدلية على الجبين او تمسح عن الخد بقعة دم او غبار، تتأمل الوجه قليلا وتكمل دورتها.

ارتمت كاملة فوق زوجها وأغمي عليها للمرة الثانية. حملناها حملاً الى داخل الكنيسة.

X

المقاطعة الحياتية

كنا نحب الزعل، نمتحن به دفء صداقاتنا وحقيقة ما نتغنى به من اواصر القربى. ننساق الى الزعل من مجرد كلام ساخر ينقله الينا نمّامٌ همساً عن لسان رفيق لنا فنشيح بوجهنا عنه في اليوم التالي ونمانع في رمي السلام عليه اذا ما التقيناه في الطرقات. كانت تلك تحديات الرجولة المبكرة. لان الأصرار على تجاهل بعضنا لم يكن يصمد طويلا أمام مصالحة مدبّرة تقول ان الخلفة لا تجوز بين ابناء العمّ، وكلنا أقارب كما كان يحلو لبعض "المُصلحين" تكراره. كنا في واقع الأمر كمن نضيق ذرعا ببعضنا من وقت الى آخر، نضجر لفرط ما نلتقي على مدار ساعات النهار في الساحات والازقة هرباً من بيوتنا الضيقة تطردنا منها امهاتنا كلما حانت ساعة التنظيف والشطف بالماء. فلا نفوّت فرص الخلاف والحرد عندما نعثر على حجة ولو واهية للغوص فيهما...

...حتى سمعنا بـ"المقاطعة الحياتية". وكان وصلنا التعبير فصيحا جاهزا هكذا، يُلفظ كاملا وبالفم الملآن. ومفاده انه إذا خالف احد "القوميين السوريين" كما كنا نسمّيهم اوامر حزبه او ارتكب خروجاً على الاخلاق و"المناقبية"، يتوقف الاعضاء الآخرون عن توجيه الكلام اليه وذلك حتى يوم الممات. وكان ينطبق ذلك حتى على اشقائه اذا وُجدوا، ينصاعون لتعليمات قيادتهم وهي مؤلفة من عميد وناموس وقيّم على "الاذاعة" وخلافه من التسميات الغريبة.

أذكر ان احتمال هذه الزعلة من صنف خاص كان يؤرقنا بسبب طابعها النهائي، لكنه كان يزيد من جاذبية هذا الحزب الذي كان يتلذذ المنضوون اليه تحت عقيدته الصارمة في سرد قصصهم على مسامعنا. يخبروننا عن اغتيالهم للملك الاردني عبدالله بسبب خيانته قضية فلسطين وعن اعدام صاحب عقيدتهم انطون سعاده تحت جنح الظلام وردّهم باغتيال رئيس الوزراء اللبناني رياض الصلح بسلاح رجل من آل الديك قال له قبل ان يطلق عليه الرصاص: "خذها من يد الزعيم". وكان صغيرهم وكبيرهم يصرّ دوما على استخدام ضمير المتكلم الجمع بالقول مثلا "يوم قتلنا عدنان المالكي في سوريا..." فتتحول عمليات الاغتيال هذه بطولة جماعية يتباهى بها من لم يكونوا قد ولدوا ربما عند حدوثها.

علّمونا كيف نرسم "الزوبعة" على الجدران بقطع الفحم او بالطبشور وكانوا يقطعون تمرينهم هذا اذا لمحوا احد "رفاقهم" يمر في الجوار، فيرفعون يدهم اليمنى ويفتحونها الى الخارج بحركة عسكرية ليلقوا عليه تحية مقتضبة مرفقة بنباح مقتضب ايضاً "تحيا سوريا" يُسارع الرفيق عابر السبيل الى مبادلتهم أياه. وكانوا يكررون على مسامعنا كلاما فصيحا مثل "انتم ابناء الحياة" او كلمات مثل "العصامية" وتعابير "الحق والخير والجمال". وكنا نعجب كيف ان رفاقنا في الحارة يجدون في هذه العبارات ما يجعل عيونهم تطفح بمعانيها العصية علينا، لشعورنا انها لا تشبه سوى اقوال كتاب التعليم الديني او رسائل القديس بولس المضنية والمبهمة.

وعندما مشى آل الرامي في ركاب الثورة الناصرية والجمهورية العربية المتحدة وانتصر آل السمعاني لرئيس الجمهورية كميل شمعون في حلفه مع الاميركيين، ضاع انصار "الهلال الخصيب" وهو انجازهم النهائي المأمول مضافة اليه جزيرة قبرص نجمة الهلال. احتار اصحابنا في الحارة وكان عددهم قليلا أي منحى ينحون، فاستسلم "الضعفاء" منهم الى عائلتهم ويمكن القول ان الحظ حالف من توافق موقف عائلتهم مع موقف حزبهم. دارت الدائرة على اثنين او ثلاثة من آل الرامي ركبوا رؤوسهم فخرجوا على عائلتهم ويقال حتى ان واحدا منهم، لا أكثر، حمل السلاح في الصفوف المناهضة للثورة لكن في جبهة بعيدة عن البلدة.

الشيوعيون كانوا أكثر بعدا عن اطباعنا في الثأر والحدّة، وربما بقوا بسبب ذلك قلة قليلة من الراشدين المهذبين. كانت لهم ايضا عباراتهم المبهمة يرددونها من وراء مطالعتهم كتيّبات لستالين ترجمت الى العربية على عجل وكانت توزّع عليهم مجاناً وتحكي في الجدلية والمادية التاريخيتين. وكان شعارهم أقل هندسية من القوميين وأكثر واقعية، ولو اننا نادرا ما نرى منجلا لندرة القمح عندنا ولم يكن من مطرقة بهذا الحجم نعرفها سوى تلك التي يضرب بها الحدّاد العربي الوحيد في البلدة الحديد وهو احمر حام. ومن انجازاتهم القليلة عندنا سعيهم لتوقيع عريضة ضد القنبلة النووية، ومن آثارهم الباقية حتى اليوم "فلاديمير"، الاسم الاول لقائد ثورة اكتوبر الذي يحمله واحد من ابناء هؤلاء الامميين. فلاديمير اقل عبئا على الارجح من الاسم الاول لقائد الرايخ الثالث ادولف الذي أطلقه احد مريدي النازية القلائل ايضا على ابنه البكر، وهو مواز في الغرابة لدالاديه رئيس وزراء فرنسا الذي وقّع اتفاقية ميونيخ.

الديزوتو

السيارة الجديدة، "الوكالة"، المعروفة من رائحة مقاعدها الجلدية، تقودها بعناية الى حارة السيدة في الطرقات الضيقة المتعرجة وهناك تضرب واقي الصدمات بحائط الكنيسة. تضعها تحت حماية العذراء مريم، وتعلقّ لها فوق المرآة الامامية خرزة عين زرقاء، خرزة الحصان نفسها او حدوته لا فرق.

وكانت السيارة اضيفت في مطلع الخمسينات الى لائحة مقتنيات الرجل غير القابلة للاعارة، كزوجته وبندقيته، ولو ان في انفراد الرجل بقيادة سيارته تبريرا ميكانيكيا اذ كان يقال ان "تغيير اليد" على السيارة يعرّضها للاعطال. السلاح زينة ورجولة. اما السيارة الاميركية المصممة بما يشبه جناحين طائرين من طراز شفروليه او ديزوتو وخصوصا اذا كانت مكشوفة ببابين فقط وواجهة القيادة فيها مطعّمة بالخشب الثمين ومشبّكة بقضبان النيكل اللماع ومقاعدها ملوّنة، فتأتي في رأس مستلزمات الاغراء وتتصدر احيانا قائمة املاك العريس، من بيت للسكن و"مصلحة" كما يقال في الاشارة الى المهن الشائعة من نجارة او خياطة. ولا يتردد مقتني السيارة الجديدة في دعوة مصوّر الى التقاط صورة له خلف مقودها او واقفا الى جانبها، واضعا يده على بابها، وحده او محاطا باصدقاء يتركون له مكان الصدارة في الصورة تأكيدا لملكيته سيارة الديزوتو اللماعة.

وكان المشاة يخشون السيارات فتوصينا امهاتنا اولا التلفت يمينا ويسارا قبل اجتياز الطرقات، وكان بعض الحكماء الفطريين المحليين يخافون مبدأ الميكانيك نفسه فيوصون السائق بمنتهى الدراية وينبهونه بان بين يديه "موتوراً" أي آلة لا يمكن كبح جماحها اذا ما انطلقت.

شاعت الكتابة على زجاجها الخلفي، لكن للسيارات العمومية فقط التي كانت تقل الركاب بالاجرة والتي كان سائقها لا يتورع عند ازدياد عدد الركاب ولمّهم عن الطرقات عن حشر راكب الى يساره، أي ان يبقي بابه نصف مفتوح ويبقى نصف الرجل خارجاً. وقد وجد احد السائقين العموميين حلا مبتكرا لعارض ركوب السيارة اي الحاجة الى التقيؤ وما يسبقها من دوخة، بأن يحمّل الراكب المهيأ لذلك حجرا ويطلب منه التركيز على عدم اسقاطه من يده طوال الرحلة، وكانت الوصفة ناجحة وساهمت في تحسين سمعته وتفضيله على غيره من السائقين.

ومع انتشار اعمال التحدي والرغبة المتنامية في الثأر، تراجع سوق السيارات الاميركية لتحل محلها شيئا فشيئا سيارات المرسيدس الالمانية. وقد يغري القول انهم وجدوا فيها صلابة ومقاومة للزوال افتقدوها في السيارات الاميركية ربما، لكنهم بدأوا يفتقدونها في حياتهم الخاصة ايضا مع تكاثر الموت من حولهم. والواقع ان ما كانوا يكيلونه ولا يزالون من مديح للسيارة الالمانية والذي يطال عَرَضاً الـ "بي أم دبليو" . وفي سجل آخر أقرب الى القتل وادواته مسدس "الكولت 12" الاسطوري . يدور اولا وآخرا حول صلابتها وديمومتها لسنوات طويلة. ولهم في ذلك اقوال من نوع ان شاحنة المرسيدس، اذا احسنتَ صيانتها، تعمّر أكثر من بني آدم. وتختلط في هذا المديح مزايا الميكانيك الفعلية بالاعجاب العام بالامة الالمانية التي واجهت العالم منفردة في الحرب العالمية الثانية، وهذا يكفيها فخرا بالرغم من خسارتها النهائية...

ويمكن القول ان اهل البلدة اجمعوا على الاعجاب بسيارات المرسيدس، وكان لهم فيها اقوال استرجعوا من خلالها لغة الحرب التي اعتادوها، بأن المرسيدس اذا اصيبت في رأسها

تستمر في السير او انها اذا رُميت بالرصاص وهي طائرة يلزمها ثلاث سنوات للسقوط ارضا، الى ما هنالك من استعارات تضع في الحديد تهويمات البشر. ومن حافظ منهم على الولاء للمرسيدس اصيب بخيبته الكبيرة عندما اكتشف بعد عقدين او ثلاثة ان الالياف الزجاجية بدأت تحل محل الحديد المقاوم وان سيارة المرسيدس بعلامتها المثلثة الشهيرة بدأت تميل الى "الخفة" والتراجع امام منطق الاستهلاك.

الماء والهواء

. يا جرجس، عليك ان تقوم وتستحم، زوجتك تسخّن لك الماء لأن اخاك انطونيوس عائد بعد يومين من البرازيل...

تردد جرجس قليلا وسأل بكل جدية:

. وإن لم يعد؟

بقيت نادرة الرجل الذي رفض "المخاطرة" بسكب الماء على جسمه تذكّر بمدى الخوف من الماء. لعل الرجل كان يدري باحتمال تأجيل شقيقه لرحلة العودة الى الوطن لما في ركوب الماء من مخاطرة لا تقل عن الاستحمام. والسباحة من مشتقات ركوب البحر، ولم نتقنها يوما حيث نعتبر انفسنا اهل برّ ونحن نقيم على بعد كيلومترين من شاطئ المتوسط.

الاستحمام مشكلة اذ لا تزال تطاردنا الى اليوم اوامر امهاتنا بأن لا نخرج بعد الحمّام وان لا نتعرض للهواء. لأن خروجنا يعني التقاء الماء والهواء. والهواء لا يقل خطورة. فكان تحاشي الوقوف في مجرى الهواء يشغل بالنا، كل ذلك خوفا مما كنا نسميه "صفقة الهواء" وهي اصابة غامضة قد تضرب الجسم في اي مكان واخطره في الصدر والرئتين حيث قد تتطور الى مرض عضال يصعب الشفاء منه. وأخطر انواع الهواء، الاصفر القاتل، ومن ضروبه ما كانوا يسمّونه "ريح السداد" التي كانت تودي بالمصاب بها.

"اذاعة الشرق الادنى"

مشى الخبر يوم أحد ظهراً. إفتحوا على اذاعة بيروت لان اوديت ستغنّي في الساعة الثالثة والنصف. وكانت اوديت التي جاءت من العاصمة حيث تقيم لزيارة اهلها، هي التي اخبرتهم او ربما قصدت ان تكون مع أهلها في تلك اللحظة الفريدة في حياتها، فتجمع اهل الحارة في البيوت الثلاثة التي كانت اقتنَت الراديو وقد جلست اوديت بينهم في بيت خالتها تستمع الى صوتها وتبتسم عندما علت زغردة أمها فخرا بها وبموال العتابا الذي اطلقته في البداية و"كسرته" بأغنية قال المذيع فيها انها من اللون البلدي، وهذا ما لم يزدنا في معرفتنا شيئا. كان الجيران يوزعون نظراتهم بين اوديت الجالسة بثوبها الاخضر الانيق وكعبها العالي في صدر الصالون وبين الراديو الذي يخرج منه صوتها الرخيم، وكانت تلك ساعة حقيقة نادرة للصغار منا الذين اكتشفوا دفعة واحدة ولو بشيء من الالتباس مبدأ الراديو وتقنية تسجيل الاصوات. وقد تسنى لنا في تلك المناسبة التي دخلنا فيها بيت خالة اوديت، رؤية ابن خالتها الذي لا يخرج من البيت وتسري حوله الاقاويل انه يعتقد نفسه ممثلا ويمضي الوقت يستمع الى الراديو ويقلد اصوات الممثلين الذين يتناوبون في برامجها.

كنا حفظنا عن ظهر قلب اسماء المدن المكتوبة بخط رفيع والمتراصة على واجهة الراديو الزجاجية، وكانت تساعدنا للاستدلال على "اذاعة الشرق الادنى" او "اذاعة بيروت". وفي هذه اللائحة المتدرجة مدن لم ولن نسمع بها في ما بعد، مدن هانئة منسية في بلدان بعيدة، مدن الراديو، مثل هيلفرسوم وساراتوف ولفوف وهانوفر وغيرها من الاسماء التي توحي ببرد قارس في شمال الدنيا، لم يرد ذكرها معنا في كتاب.

وكان للراديو موقع قطعة الاثاث من الموبيليا، يوضع في الصالون في علو بارز او ينزل ضمن صوان من الخشب المصقول والمطلي بعناية، وسيدة البيت الشاطرة تخيط للراديو "بيتاً" من قماش الأطلس اللازوردي تزيّنه ثلاث وردات مطرزة بخيط من لون قريب. ويُفتح "البيت" من وسطه فتُربط ستارتاه يمينا وشمالا تماما كما تُربط ستائر المسرح، وليس في الامر مبالغة نظرا لما كانت تبثه الاذاعات في الخمسينات من مسرحيات اذاعية يجتمع لمتابعتها نساء البيت وزوارهن وهن يوجهن انظارهن طوال البث الى الراديو من حيث تصدر الاصوات، كما يرنو جمهور المسرح الى الخشبة حيث تدور الاحداث.

وكان القادرون على اقتناء الراديو غالبا ما يشترون معه "البيك أب" المكمل له من حيث الوانه وما يدخله من خشب ومجموعة اسطوانات "بيضافون" التي تعلن عن نفسها في مطلع كل اغنية من الاغاني. وكانت اصوات الراديو تأتينا من مصر بشكل خاص فألفنا لهجة أهل النيل بالرغم من التشويش الذي كان قدر الراديو ونصيبه في تلك الايام. وكان تركيب الهوائي على سطح البيت وحبكه بخيط الحديد الرفيع وتوجيهه نحو العاصمة مهارة لا يمكن الركون الى أي كان في انجاحها.

فيلمان دفعة واحدة

على قول أمي التي لا تفوّت فرصا كثيرة للتهكم عليه، كان جدي لوالدي يدخل الى السينما اول ما افتتحت لها صالة دائمة في البلدة، على أمل ان يوفّق ولو مرة واحدة في رؤية والده الذي تركه صغيرا رضيعا وهاجر الى الولايات المتحدة الاميركية في نهاية القرن التاسع عشر ولم يعد. وكانت تلك من العلامات النادرة على تعلق جدي بفكرة والده الذي كان يبدو لنا في عمره المتقدم كأنه أقلع من زمان طويل عن محاولة تذكره. لكن جدي كان يعجز عن متابعة ما يجري على الشاشة، وسرعان ما يُسمَع صدى شخيره في ارجاء الصالة فيتدخل صاحبها لايقاظه بناء على شكوى من احد المشاهدين الجالسين في جواره.

اما مَن كنا نتوق الى رؤيتهم نحن كل اسبوع، صبيحة يوم الاحد حيث يُعرض علينا فيلمان لا بل ثلاثة دفعة واحدة . او بالأحرى مقتطفات من هذه الافلام . وبتعرفة مخفضة، فلم يكونوا من صنف الاقارب بل ابطالا قصار القامة مثل ايدي مورفي، او مقنّعين مثل "الفارس الوحيد" وحصانه الحرون، او وجوها اكثر التباسا مثل جاك بالانس تلتهب مشاعرنا عند انتصارهم. نصفق لهم كما نصفق طيلة ايام اسبوع الفصح حيث يجتاح الصالة اضافة الينا عدد كبير من اعضاء الاخويات والمثابرين على القداديس لمشاهدة "حياة وآلام السيد المسيح" في نسخة مدبلجة بالعربية، باستثناء نداء المصلوب الى أبيه السماوي حيث ارتأى المدبلج قولها بالآرامية "ايلي ايلي لمّا شبقتني". وكان يعلو التصفيق كل يوم من الاثنين الى الاحد عندما

تذهب مريم والنساء الى قبر يسوع فيجدن الحجر منزاحا والقبر فارغا. وكان بين التديّن والسينما رابط غير واضح الاسباب، فصاحب السينما كان يكلف رجلا حمل اعلان فيلم السينما يرافقه ولد يدق الجرس. ويوم نزل الى احد الاحياء الداخلية حاملا صورة آفا غاردنر، وكان شهر أيار، شهر العذراء، اعتقدت بعض النساء انه يتم تزييح صورة مريم فتوقفن عن اشغال البيت ليرسمن اشارة الصليب...

نتذكر الصالة احيانا اكثر مما نتذكر الافلام، سمّاها صاحبها على اسم ابنه، مرسيل، وكنا ننتظر ان يبدأ عرض الفيلم لنتقدم من شبّاك التذاكر عارضين القليل من الفرنكات التي في حوزتنا فكان يُدخلنا يائسا.

وعندما انقسمنا حارتين لا يجرؤ الا من تجمع لديه الكثير من علامات الحياد على التنقل بينهما، افتتحت صالة ثانية للسينما للذين حرموا النزول الى سينما "مرسيل"، لكن الافلام نفسها كانت تُعرض مداورة في الصالتين باتفاق صاحبيهما. وعندما يتخلّف واحد منا عن حضور احد افلام المغامرات في السينما التحتانية، ويسمعنا نقول في هذا الفيلم اجمل ما يقال من مديح، كان يشعر انه سيبقى يعاني نقصا ابديا ان لم يحضره، فيصعد ليلا الى السينما الفوقى لحضوره وهناك لا يتعرف عليه احد لكنه يرجع الينا كأنه عائد من عملية تسلل عسكرية نكاد نهنئه على نجاحه فيها.

الروليت الكلاسيكية

يقولون ان القمار والنساء تكشف الرجل. ان في تفسير هذه الحكمة شرحاً قد يطول لكنها لا تشي كيف يمكن لعبة "الاربعة عشر" أن "تكشف" الستّ الماظ وكانت من اشهر النساء اللواتي أغرمن بالعاب الورق وكانت تنافس فيها الرجال وتبزّهم سهرا حتى ساعات الفجر الاولى. كان لعب الورق لقلة من النساء دليلاً على انتمائهن الى حلقة ضيقة ترتاد بيوت الوجهاء وتؤكد تحررهن من اشغال البيت وهمومه. لكن من الصفات المحمودة في الشاب المتقدم للزواج أنه لا يمسك الورق بيده. فالقمار احدى الطرق السريعة نحو "خراب البيوت"...

وباستثناء العاب الزهر وارقامها التركية، فان العاب الورق الجديدة والروليت وغيرها جاءت بقائمة طويلة من المفردات الفرنسية اغتنت ايضا من سباق الخيل والمراهنة عليه. وكان

اختصاص البعض منهم بالبارولي او مكاتب الرهانات من خارج المراهنات الرسمية مما يضاعف الربح والخسارة. وكان منهم من تورط ايضا في "شدّ" الخيول ورشوة الفرسان والسائسين. والى جانب القمار، والجانب هنا يعني جوار طاولات البوكر والباكارا، امتهنوا ايضا ما يسمونه هم "دين الفائدة"، أي انهم كانوا يحملون في جيوبهم اموالا يسدون بها بصورة فورية حاجة المقامرين الخاسرين الى الاستمرار في اللعب مقابل فائدة مرتفعة جدا، وكانوا إما يطلبون في المقابل سندات من الدائن وإما يسلّفونه لمعرفتهم به وثقتهم من ان المسدس الذي يحملونه على خصرهم كفيل اقناعه رد الدين مع فوائده. ومن خلال ارتيادهم محيط كازينو لبنان حيث كانوا يرابطون في انتظار الزبون الملهوف لمتابعة مراهناته على طاولة الروليت الكلاسيكية، تعرفوا على فئة من الناس لم يكن من سبيل امامهم للالتقاء بهم. أبناء عائلات غنية من بيروت او من حلب، ينفقون ميراث آبائهم وحساباتهم المصرفية التي راكموها من ارباح تجارة مبكرة بالادوية او بالادوات المنزلية او السيارات او اصناف من كتّاب الصحف والشعراء والرسامين يعيشون ليليا مواجهة دراماتيكية مع آلات اللعب الكهربائية او مع احتمال "الصفر" في الروليت.

الكلب الافرنجي

يروى عن سنوات الحرب العالمية الثانية أن جنديا انكليزيا صادف في منطقة "الحريق الاعلى"، وكان للانكليز معسكر في الجوار، احد نواطير بساتين الزيتون المشهورة بزيتها وبترابها الأحمر، يضرب بالسوط حصاناً مسكيناً يرفض التقدم حتى ادماه، فعاجل الجندي الحصان بطلق ناري في رأسه ثم وجه قبضته الغليظة الى وجه الناطور بقوة رمته ارضا فتركه ممدداً هناك شبه مغمى عليه الى جانب الحيوان لا يدري اي ذنب اقترف. وقيل أن الجندي الانكليزي اراد بفعلته هذه اراحة الحيوان من العذاب الذي يذوقه على يد صاحبه "البربري". هذا أقله هو التفسير المحلي لفعلة الجندي الذي لم يتفوه بكلمة واحدة.

الا ان الدرس، اذا كان صحيحا، قد ذهب سدى فبقينا نضرب الحمار بـ"حيّال" التوت كي يمشي، ونشعل النار تحت ذنب البغل اذا كبا او نعضّه في اذنه لينهض، كما نطلق النار على الطيور المهاجرة بحيث يقال انها حولت بالغريزة خط تحليقها من فوق بلدتنا، ونصطاد سمك النهر باصابع الديناميت، ونركل الهرة ما ان تحاول كسب ودّنا والاقتراب من دائرتنا. وبلغ بنا الاستهتار عندما نصبنا المتاريس قبالة بعضنا البعض عام 1958، حدّ تزنير الكلاب او الحمير

بالديناميت وارسالها نحو الخطوط المقابلة علها تلحق هناك اقسى الاضرار الممكنة، لكنها كانت تقضي في منتصف الطريق وينفجر حملها نتيجة الرصاص الذي يطلق عليها من المتاريس المتوجهة اليها. ننعت احدنا بالكلب اذا اردنا وصمه بقلة الاخلاق او الضعة فيما نشهّر ببعضنا في الساحة العامة عندما نكتب على الجدران ان فلانا هو "أكبر حمار في سوريا ولبنان". وضمّنا سوريا الى لبنان في هذا الباب كان ربما من اجل توسيع الدائرة الجغرافية بحيث تشمل عددا لا يحصى من الناس فيزيد حجم الاهانة.

وكنا نعرف من الكلاب صنفين فقط، الجعاري أي الشارد القبيح الذي لا فائدة منه ولا اسم له. وسخ يخشى الصغار عضّته واسوأ احواله ان يكون مصابا بالكلب، وهو انقرض شيئا فشيئا بين المساكن ليحتفظ بعض الرعيان بنماذج منه راقية بعض الشيء. وكلب الصيد المدلل النظيف، وله اسم يتحرك عند سماعه، وبصفّارة من فم صاحبه يرفع اذنيه استجابة لها، وهو ايضا من عدة الرجل يبني له بيتا خشبيا في الحديقة الصغيرة ويطعمه وفق الاصول، وقد وصل حدّ تدريبه بالبعض ان كان احدهم يرسله ليأتي له بمسدسه من المخبأ اذا ما سمع حراكا في الجوار او اصواتا غير واضحة المصدر تستوجب منه الاستنفار.

دخل الكلب الافرنجي الى البيت مع بنات الوجهاء المدللات اللواتي قصدن مدارس الراهبات الراقية في بيروت. واول ما ظهر كان صغيرا يمكن حمله ومداعبته، ولم يكن في الامر كبير عجب حتى جاءت الصدمة الكبرى يوم رأينا في الشارع العام شابا من عندنا، نعرفه ويفترض انه يشبهنا، لأنه ولو غاب لوقت قصير عن البلدة الا انه منّا وفينا، رأيناه يسير وهو ممسك بيده رباط كلب غريب الشكل. مصغّر كلب اذا أمكن القول، خاط له جلالة صغيرة مطرزة وربط له شيئا يتدلى من عنقه، فصفّر له البعض استهجانا لكنه، وليزيد من صدمتنا، لم يعر الامر اهتماما. لا بل انه، وربما بدافع التحدي، اشار الى الكُليب فقفز بين يديه فحمله ومشى، والكلب ينظر الينا بعينيه الصغيرتين مستغربا من خلف كتف صاحبه ومحتميا به من خطر شعر بالغريزة انه يمكن ان يطاله منا. وضعنا منذ ذلك اليوم شكوكا حول رجولة الشاب الذي فضّل صحبة الكلب الصغير على صحبتنا، لكن شعورا اعمق انتابنا ولو اننا لم نبح به بأن الدنيا تتغيّر وأننا لن نتمكن من مقاومتها.

XI

انطلق ايليا في نيويورك دون هوادة. لعشرين عاما ويزيد. كالاطفال الصغار، اكتشف لذة السير وحده فراح يستمتع بها حتى الثمالة. استمتاع السابح بالماء. هكذا لم ينضبط أكثر من شهر واحد في صف الهندسة الميكانيكية في الجامعة حيث تسجل فور وصوله وفق المخطط الاصلي لدراسته، اذ سرعان ما ذكّرته المحاضرات التي كان يلقيها اساتذة يعلوهم الغبار بدروس الفيزياء البليدة في المدرسة. فانقطع عن الجامعة وانتقل، ودون حاجة مادية وبسبب اعلان صغير مبّوب في احدى صحف مترو الانفاق، الى العمل في مطعم للوجبات السريعة في احدى ضواحي المدينة. هناك تمرّن على اولى القبلات في المرحاض الخلفي، وكان يغمض عينيه وهو

يقبّل احدى خادمات الطاولات التي افصحت له انها تفضل رؤية عينيه مفتوحتين وهو يقبلها لان ذلك يثيرها اكثر. أتقن تحضير البيتزا بأنواعها فاكتفى، ليبدأ بتلقي دروس في اللغة الالمانية على يد معلمة اميركية شقراء راح يحلم بالخروج معها ويرسم الخطط للايقاع بها لكن دون جدوى.
أخبرها عندما سألته بالانكليزية يوم الدرس الاول لماذا اختار تعلم لغة غوته، أنه يستعد للتخصص في الفلسفة، ورسم على وجهه تعبيرا مفاده ان الامر مفهوم. وربما دفعت به اجابته المرتجلة الى متابعة محاضرات في فلسفة هيغل لم يحلم يوما بمتابعتها، وقد ثابر عليها دون ان يفهم منها الكثير او على الارجح دون أن يفهم منها شيئا، لكنه رفض الاعتراف بأنه عاجز عن ادراك مفاهيم مثل الـ"بغريف" او الـ"اوفهابونغ"، فبقي مسمّرا في كرسيه لا يفهم ولا يمكنه اعطاء الانطباع بانه يفهم كي لا يفضحه المحاضر بسؤال لن يتمكن من الاجابة عنه. لكنه خلال شهر من الزمن التقط بعض العبارات والافكار الناقصة بقيت تطنّ في ارجاء عقله فمكنته من الادعاء بأنه خبير في الفلسفة الالمانية.

تعويضا عن هذا الاسر النظري الذي كاد يجفف مشاعره، انتسب الى نادي مشجعي فريق كرة السلة النيويوركي في انجراف حماسي مفرط ومضحك بالنسبة لوافد جديد الى المدينة العملاقة. فبقي لفصل كامل لا يفوّت مباراة واحدة، منتقلا مع "النيكس" احيانا الى حيث يأخذهم برنامج البطولة في ولايات أخرى. رغبة دفينة للتعلم كانت تنتابه من جديد كلما تصعلك لحقبة من الزمن، وكأن حياته باتت تقوم على استئناف نمط حياة ابناء "حارة العصابة" بالتوازن مع طلب "العلم" في كل الاتجاهات. واحدة تكفّر عن الاخرى في شكل من الاشكال. هكذا كان يعود الى ارتياد الجامعة لكن بصفة مستمع حرّ في غالب الاحيان لاقتناعه المسبق بان اقامته لن تطول.

تكاثرت لغاته أو انصاف لغاته وتداخلت وتشابكت فأدرك غرابة حالته عندما صارت بعض الافكار وبعض الاسئلة تأتيه بالفرنسية وتراوده افكار غيرها بالانكليزية او حتى بالالمانية. وكان يزيّن بلاغته بعبارات لاتينية ايضا، بينما كان أثر اللغة العربية يتضاءل شيئا فشيئا. كان سعيداً بتعدّد الاصوات، وقد عمل مترجما مباشرا في محادثات وفود علمية لا ينقطع مجيئها الى نيويورك وحارسا في مدينة للملاهي وسائق تاكسي على سبيل التجربة المعيوشة، كما قال، وملاحظا للسيناريو في احد الافلام الذي شاهده ثلاث مرات لكنه لم يدخل مرة صالة السينما الا متأخرا بحيث لم ينجح في قراءة اسمه في لائحة المشاركين.

في الوقت نفسه كان يبدل مسكنه باستمرار. ينتقل من شقة الى شقة حاملا معه بعض اللوحات وصندوقين من الكتب، العدد الاكبر منها قواميس، وكرة سلة موقعة من ماجيك جونسون. كان يغيّر مسكنه ونظّارتيه فيضجر من الاطار العريض ليعود الى العدسات الرقيقة واقتناء النظارات السوداء الشمسية قبل ان يعتمد العدسات اللاصقة. وكانت المكتبات العامة

وخصوصا المكتبات الجامعية أهم مسارح نشاطه التي لم تخذله ابدا، اذ سرعان ما اكتشف ان لديه ما ترتاح اليه الفتيات. فكان يجد نفسه دائما محاطا بطالبات في العلوم الانسانية يغريهن ذكاء الرجل اكثر من عرض كتفيه. أسرف ايليا في الاغواء الكلامي وفي اتقان فن الايحاء عند التحدث في أي موضوع أنه يعرف دائما أكثر مما يقول، وكان يلجأ في سبيل هذا الايحاء الى احراج محدثه بأسئلة من نوع "أنت تعرف أن بيكاسو كان بخيلا..." أو "أن التروتسكيين الجدد سيحكمون قريبا الولايات المتحدة، كما تعلم"، فيترك في عيني من يواجهه فراغ الجهل وتأكيد تفوّقه.

وكان بدأ في وقت مبكر تجميع استشهادات أدبية وفلسفية. جمل قصيرة استلها من هنا وهناك، من القديس اغسطينوس الى جاك ديريدا، يسجلها على دفتر ويحاول حفظها غيبا ليستخدمها ضربة قوية عند اللزوم، في سياق ان لديه لكل مقام مقالاً. وكانت تلك احدى وسائل اغرائه، وبقي في هذه الاثناء، وقبل أن يخلد الى النوم، يسجل كل ليلة في دفتره وإن جملة واحدة يستخرجها من مشاعره الخاصة، ولو بات يصعب عليه التمييز بين ما ينتابه فعلا وما حفظه غيبا عن عباقرة العالم. وكان يروّج عن نفسه تارة انه آخر الرومنطقيين وطورا أنه أول الرقميين، شاهرا تفضيله للرسم السوريالي الفرنسي فيرمي اسماء الفنانين والشعراء المغمورين كأنهم من اصدقائه الحميمين.

كان الطبخ وسيلة اغرائه في المقلب الآخر من الحاجات البشرية، فتعلَّمه في الكتب وتمرّن على تحضير الاطباق بصبر كان يُكافأ عليه. درسَ الأكل في الكتب وكان إذا خاض في نقاش أدهش مستمعيه بقدرته على التمييز بين مكوّنات المطبخ التايلاندي و"ثوابت" الاطباق الكورية، حافظاً اكبر قائمة من اسماء المطاعم المتخصصة في احياء نيويورك كافة. لكنه في ذلك كله بقي عازفا منفردا خرج من بين أهله فرحا ليرتمي وحيدا حيث نزل قبل قرن من الزمن اجداد له لا تزال اسماؤهم مسجّلة في دفاتر أيليس ايلاند.

صيادا وحيدا بقي. علاقاته مع الرجال والنساء لم تكن تدوم طويلا اذ لم يكن يحسن ادارة الصداقات وسط خضم السير الذاتية المتباينة والمتنوعة التي كان يرويها عن نفسه. كان يعطي اجابات متعددة عن جميع الاسئلة المتعلقة بحياته الشخصية دون استثناء، فصار يخاف الغلط ويفضل الانقطاع عمّن يشعر أنه أشبعهم خيالات حول حياته خشية ان يكشفوا اوهامه، فلا يتذكّر امام صديق عاد ليلتقيه بعد غياب ايّ مهنة كان ادّعى لوالده "الذي لا يزال على قيد الحياة وفي أوج عطائه"، او ايّ مصير اختار لأمه التي يقول عنها أحيانا إنها توفيت وكانت رائعة الجمال فيفضل منعا لاي التباس التوقف عن لقاء هذا الصديق.

يكثر من سِيَر الطفولة، يضيفها الى ترسانته في التأثير على عقول الفتيات، وكانت في مجملها روايات صعبة يخترع فيها كل شيء تقريبا. ومنها، وفي تحوير بسيط لأحد الافلام التي

كان شاهدها لتوّه، أنه ايطالي الأصل، لا يتقن لغة بلاده، ولد في أحد أحياء نابولي الشعبية، تلك التي تنزل ادراجها نحو البحر، فهربت به والدته الى الولايات المتحدة خوفا من تجنيده في صفوف المافيا عندما يكبر لأن اعمامه متورّطون فيها وهم من كبار المطلوبين من "الكارابينييري". أو في تحوّل في اتجاه الشرق، يدّعي ان أصله من مدينة تعز في اليمن، وانه نشأ بين صحراءين، الربع الخالي وبادية الشام، والده من وجهاء بني شمّر، أقنعته نصيحة صديق انكليزي قديم من مخابرات جلالة الملكة بمنافع التعليم العالي فأرسل ابنه، أي هو، الى أميركا. وأن لوالده هذا الكلمة الفصل اذا ما انعقد الاجتماع الخرافي تحت الخيمة ودارت القهوة على الجالسين المقتصدين في الكلام، يتداولون في مسألة تقديم الدعم للحكومة في صنعاء او ارسال مبعوثين سريين للتفاوض مع الثوار الشيوعيين في عدن.

يضطر في هروبه الدائم الى أن يغيّر رقم هاتفه باستمرار الى أن توقف عن اعطاء هذا الرقم لأحد قبل أن يتقدم بطلب لشطب اسمه من دليل الهاتف العمومي. ولما شاعت العناوين الالكترونية ألّف لنفسه عددا لا يحصى من العناوين كي لا يصل اليه احد، فكان يؤلّف اليوم عنوانا ويرسل منه رسائل ثم يهجره لينتقل الى عنوان آخر خشية أن يتلقّى الاجوبة. وقد أسس في وقت لاحق موقعا الكترونيا باسم مستعار ولو انه مشتق من اسمه الاصلي. هو نفسه الموقع الذي كشفه ابناء حارة "العصابة". ويتحاشى معاشرة أي شخص يمت بصلة الى مسقط رأسه.

حتى أنه لم يتخذ لنفسه معارف يتقنون اللغة العربية، والذين عرفوه وعطفوا عليه يؤكدون ان الكذب لم يكن عنده هواية بل انسياقا وراء ما يرضي محدثيه ومعارفه. فاذا التقى من يبحث مثلا عن وسيلة للحصول سريعا على إجازة اقامة، لم يكن ايليا يتمالك نفسه عن الادعاء انه يعرف مسؤولا كبيرا في دائرة الهجرة يمكنه المساعدة، ويعطي ايليا اسماً كاملاً يخترعه للتوّ او يقتبسه، ثم يضرب وعداً لصاحب الطلب بأن يعاود الاتصال به قريباً، مشددا ان القضية محسومة لا جدال فيها، وان مسؤول دائرة الهجرة مدين له بخدمة كبيرة لا تقاس بمجرد إجازة اقامة. وتكون هذه المحادثة هي الاخيرة، اذ يختار ايليا بعدها الاختفاء عن انظار صاحبه. وكان قد جهّز لنفسه مرضين خطيرين او ثلاثة، قصور الكلى وجلسات غسيل مفترضة، وقوعه في حالات من ضيق النفَس الخانق وحتى اصابته باللوكيميا، وكان يشهر أمراضه هذه في وجه من يحاول مواجهته بالحقائق فيقلب استنكار اكاذيبه اشفاقا عليه.

مشى الزمن بايليا كالسهم، ذهب عمره وهو لا يجد سبيلا للتوقف في يوميات حياته التي كانت تشبه العطلة الدائمة. لكنه لم ينج من السأم، من شعور التكرار، ليس تكرار التفاصيل فقط بل هذا السيناريو الذي يعاود الوقوع فيه دون أن يقصد. هناك شيء بدأ "يملّص" تدريجيا في

نظامه، مع أنه ظلّ مجاهدا منطلقا، ينهض كل صباح كأن أمامه مهام حيوية يقبل عليها بتفاؤل.

لكنه بدأ يؤنّب نفسه. الساكن وحده يحدث نفسه في نهاية المطاف. يؤنّب نفسه في الحمّام او عندما يستلقي على سريره لدقائق بعد الغداء متأملاً في سقف الغرفة. بدأ ينظر الى وجهه في مرآة المصعد اذا ما استقله وحيداً، ويوجّه ابهامه الى صورته يهددها بقبضته احيانا. يطرح على نفسه اسئلة بالصوت العالي فيخيل للنادلة في مطعم "جاكز" للوجبات االسريعة الذي ينزل اليه ظهرا في بعض الاحيان، انه يتوجه اليها بالطلب لكنه يسارع الى الاعتذار خجلاً. لو كتبها هذه الملامات التي يوجهها لنفسه تكرارا، أو لو تمكن من قولها لأحد لجاءت كلها في لهجة التعنيف:

. توقف يا ايليا، بالله عليك توقف، ألا تدرك انك تبالغ في ما تفعله، ألم تضجر من تصنّع اللهفة كلما تماوج شعر انثوي أشقر في فضاء المكان، في الشارع، في المقهى، في المحلات التجارية؟ شقراء وراء شقراء، كل هذه البلاد شقراوات فما العمل؟

عندما ذاب الصباغ عن شعر جولي صار لامباليا بها. هو نفسه لم يصدّق انقلاب مشاعره، بكت وهي تطالبه بتفسير ما جرى له حيالها فعجز عن الافصاح. ما ان يلمح شقراء حتى يُخرج هوائياته ويحضّر كلماته. يبدأ بعصير الرمّان ممزوجا بالصودا، اللون الاحمر القاني في الكأس يصلح جيدا مقدمة لثرثرة حميمة تنتهي النهاية نفسها في كل مرة. ومن فرط تصنّعه حاول مرة ابتلاع محتوى كأس الفودكا بالليمون دفعة واحدة في حلقه امام احداهن على طريقة الروس في مآدبهم الصاخبة كما أُخبر. فكاد يختنق وخرجت عيناه من وجهه ورفعوه عاليا كي يلفظ الفودكا من حلقه وضربوه على وجهه حتى عاد الى رشده.

يرمي على الطاولة العدة كلها دفعة واحدة كلما جلست قبالته فتاة: عبارات الآخرين وكلماتهم المأثورة، يلجأ الى القصص، قصص ألّفها قبل دقائق وهو يتنقل في المترو وصولا الى مكان الموعد. قصص لا ينفك يستوحيها من كل ما يقرأه، محاولا بأي ثمن خلق هذا الانطباع بأنه العبقري التائه على أرصفة شوارع مدينة نيويورك، او ان الشرق الاوسط لفظه الى العالم الجديد مرة اخرى لان الشرق لا يحتمل الاقليات. يضيف شيئا من الحنين الادبي الصادق الى أمكنة لم يزرها في حياته ثم ينهض فجأة بعد أن يتأكد في نظرات مجالسته أن الخطة فعلت فعلها مرة جديدة، وانه نجح في رسم صورة غريبة عن نفسه تفتح أمام صديقته الجديدة احتمالات لم تكن تتوقعها في حياتها الرتيبة وتبقيه هو على لهفة لا ترتوي الى ما يعتقد ان النساء يملكنه لكنه لم يوفق حتى الآن الى الحصول عليه. يرقص رقصته وفجأة، كما في كل مرة، يتذرع باضطراره للعودة الى البيت عارضا على الفتاة ايصالها الى منزلها. يتصرف بانضباط كلي موقنا ان هاتفه سيرن في الغد او بعد غد اكمالا لافعال الغواية التي تنتقل من ضؤ النهار الى مسرح

الليل. يتقن اللعبة ايضا ولو بدأت خيوطها تفتضح من فرط تكرارها، فما ان ينجح في مطعم حتى يتفاءل به فلا يعود ينقطع عنه. يأتي بهنّ على التوالي اليه، ويسمّي الخدم باسمائهم الصغرى لاعتقاده أن الالفة هنا من عدة الاغراء.

لكن امره انفضح احيانا مثل اليوم الذي دخل فيه الى مطعم الـ"كالابريزه" ورأى الصهباء الممتلئة التي كان تعرف اليها قبل شهر وابتعد عنها. رآها تتناول العشاء هناك، فقال انشقّي يا أرض وابتلعيني لأنها رأته يعيد تمثيليته نفسها وقرأ في نظراتها وهي تتابعه كيف يدعو الفتاة الجديدة التي اصطحبها الى الجلوس في الزاوية نفسها من المطعم حيث أجلسها هي. حتى انها ربما كانت قادرة على التكهن بأي نوع من المآكل سينصح رفيقته الجديدة، "أنصحك بشدة بفيليه ذئب البحر مع صلصة الليمون المرّ...".

هكذا أتقن ايليا فنّ المقدمّات على انواعها، ومنها ايضا استدراج الفتيات الى شقته حيث أكثر ايضا من اشارات الاغواء كالصور والتماثيل الصغيرة وقطع الاثاث المختارة، وما يرويه من قصص وتفاصيل حولها تفتح مخيلة "طريدته" وتزيد من شوقها الى كشف سرّ هذا المشرقي النحيل... وكان تأجيله الدخول الى السرير يبعث في البداية شيئا من الطمأنينة في نفس صديقته التي تضع تعففه هذا في حساب أدبه الرفيع. لكن تأخره كان سرعان ما ينقلب قلقا يوحي بأن ايليا يؤجل استحقاقا لا يبرع فيه كما يبرع في التحضير له.

لم يبلغ سن الاستكانة وهو لا يزال يرمق بعين الشهوة طالبات يكبرهن بعقد ونصف العقد من الزمن. يربط ولا يقطع، يربط ويربط حتى يكاد يختنق فيسحب رأسه من الانشوطة التي صنعها بيده ويسلّم ساقيه للريح. الفرار ثلثا المرجلة. لا يعرف كيف ينهي محادثة. يعتذر ويخترع ويؤلف كل ما يؤلفه لانه اعجز من ان يقطع صلة ولو كانت عابرة. اذا لم يودعه الشخص الآخر لا يحسن الخروج من المأزق. ما ان يشعر بأن احدى "فتوحاته" تودّ السكن معه او الالتصاق به لانها في حال من الاستغاثة وجدت العاطفة الفائضة التي تعوزها في هذا الآسيوي الزرب اللسان حتى يولي هو الادبار كأن النار اندلعت في مؤخرته. وصل به الامر انه ترك شقته وانتقل الى شقة أخرى في نيويورك خشية أن يضطر لاستقبال الفتاة الفيليبينية التي بدت مصممة على اكمال معرفتها به، وغيّر رقم هاتفه ايضا.

مع الوقت استنفد لعبته وبدأت تأتيه مشاعر الرغبة في التقاعد الى ان كان ذات يوم في احد مواقع "الصيد" المفضلة لديه في قسم دراسات الشرق الاوسط واللغات السامية يلاطف سكرتيرة القسم مس دايفيز عندما رأى تلك الاميركية الشقراء. لم يكن في عينيها ما يوحي انها ضائعة في المدينة وهذا ما كان يجذبه. ابنة المدينة كأنها. تخيّلها: طفولة سعيدة، وحيدة أمها وأبيها، تسكن في المدينة وتمارس الجنس دون الكثير من الاسئلة. طاردها الى داخل المكتبة ونجح في الجلوس الى جانبها. انتظرها كي تلقي نظرة مواربة على الكتاب الذي بين يديه،

"التاريخ المنحرف للقلب البشري" وهو من عدة شغله ايضا. وكأنه كان ينتظر هذه الحركة منها ليستدير نحوها ويقول في جملة واحدة انه يعتقدها طالبة في القسم العربي لكنه يشكّ في قبولها دعوته الى العشاء يوم الثلاثاء المقبل كونها حريصة على صيت الفتيات المعمدانيات المولودات في عائلات بلتيمور العريقة والقويمة التفكير، والتي تقتصر ملذّاتها، ويرفع هنا كتابا ثانيا كان امامه كي ترى الفتاة عنوانه "قاموس الملذات الصغرى"، على الخروج في الربيع الى الطبيعة لقطاف توت العليّق في موسمه دون النظر ولو لمرة واحدة في العام الى اتساخ الثياب.

قالها دون توقف حتى لكاد يفقد نفَسَه ليكملها ثم أتبعها بضحكة عصبية أراد الايحاء بها انه يمثل دور زير النساء المحترف الذي يحضّر "مبادرات" جاهزة تجاه الجنس الآخر وانه ليس كذلك في حقيقته. جاءت لعبته في وقتها. كنت الفتاة الشقراء في مزاج منفلت فلم تصحح له اخطاءه بل أجابته كما يُفترض بها:

. فليكن المطعم فرنسيا وتعال بالتاكسي ولو كان عندك سيارة فخمة فهذا لا يعنيني، تنتظرني عند الباب الخارجي في الرقم اثنين من جادة ارلنغتون ابتداء من الساعة الثامنة، قد اتأخر حوالى النصف ساعة في الخروج وقد افعل ذلك عمدا لامتحن صبرك وشوقك الى ملاقاتي.

وأتبعتها ايضا بضحكة مدروسة أفهمته بها أنها تتصنع التجاوب مع اقتراحه أكثر مما توافق فعليا على مرافقته! كانت اللعبة مثيرة لكل منهما، أكثر من عشر دقائق من الباروديا الهامسة في المكتبة الصامتة، وبعض عيون القرّاء تنظر اليهما شذرا، الى ان اتفقا بعد وقت قصير كما هو متوقع عند اللعب بالنار على موعد فعلي. نهض عندها عن كرسيه بطريقة احتفالية غير مبال بهمهمات القراء ليصافحها ويعرف عن نفسه ايذانا ببدء الجدّ ربما.

قال ان اسمه ايليا فاعتقدت أنه يهودي من احدى دول الشرق الاوسط. رافقته الى خارج المكتبة وعند المرور بالبهو كانت مس دايفيز ترمقها بنظرات قاتلة. لم يخبرها ابدا أنه استعلم من سكرتيرة القسم عن هويتها ومن أي عائلة تنحدر. انه يعرف اسمها، هيذر بولوك، ابنة القس هنري بولوك الابن.

دعاها الى مطعم فرنسي، وأي مطعم! "لو روليه داركاشون"، وهو يقول ضاحكا ان الاكل الفرنسي باب من ابواب اغواء النساء الاميركيات. مفعوله عليهن مثبت علميا، الاحصائيات تؤكد ذلك. يُجري عليها التجربة وهي مستسلمة. لا يخفي لعبته. يقرّ بكل ما يمكن ان يُتّهم به، يفسد اللعبة ويستمر في لعبها. راح يقطّر لها أخباره وهي لا تنفك تصرخ فيه:

. من أين أنت، بحق الله؟

ابتسم كأنه نجح في ايصالها الى حيث يريد. شرب من كأسه جرعة طويلة ومرت في عينيه نظرة جديدة، مزيج من الفخر والحنين. قال لها اشياء كثيرة، ومنها ان الليل يقلقه

وخصوصا مساء الاحد. ثم ربط الفوطة البيضاء حول عنقه، نظر الى النبيذ في الكأس وهو يحركها بين اصبعيه ثم أغمض عينيه وراح يشم النبيذ وهو يحرّك الكأس قبل ان يتذوقه ويكرر عبارات كأنها مستلة من زاوية المطبخ في "نيويورك تايمز". طلب من الخادم ان يسأل الشيف اذا كان لا يزال يطبخ البط بصلصة الليمون الذي قال عنه انه بات طبقا "شعبيا". حضر رئيس المطبخ شخصيا ليجيب عن أسئلته. بدا ان كل هذا متفق عليه سابقا. سأله عن القريدس وعما يصل طازجا من المحيط. تجادلا، أضحكها، استسلمت بأسلحتها وأمتعتها، لم يعد لديها سوى سؤال واحد، تكرره كالبلهاء المشدوهة:

. من أنت؟ من أنت؟

وهو منطلق أكثر فأكثر. تصاب بالضحك الهستيري وبالكاد تتمكن من القول:

. توقف. بالله عليك، توقف. من أنت؟

وصفته في رسالة الى صديقتها: " في بداية الاربعينات من عمره، نحيف، عيناه تبرقان ذكاء، اذا رأيته يتسكع صباح يوم الاحد في احدى الجادات قبل ان يضع عدساته اللاصقة لقلت في نفسك ان هذا على الارجح روائي يبحث عن موضوع لكتابه المقبل عن اهل الارصفة المتكلين على الاعاشة الفيديرالية وعن كسيري القلوب من البسطاء".

بعد وقت قصير، فاجأها:

. أريد أن ازور لبنان...

هكذا، دون مقدمات بينما كانا يتمشيان فوق احد جسور المدينة.

. أحب أن أرى زهر شجر اللوز الأبيض في بداية الربيع...

تبتسم. يضيف:

. أريد أن أرى أمي قبل ان تموت.

قالها دون انفعال ظاهر ودون رغبة في التأثير عليها. قالها كمن يقول يجب ان أكون في محطة القطار الساعة السابعة والربع والا فاتتني الرحلة الصباحية الى مدينة بيتسبورغ.

هذه المرة لم يكن يخترع عذرا للهرب من صديقته الجديدة.

XII

ما كان سيخطر له يوما في بال أن يطلب النجاة بروحه زاحفا على ركبتيه ثم كابيا فمنبطحا بطوله وسط ركام متهالك من النساء المتشحات بالسواد والراهبات وبنات دار الايتام، وهو يبتهل دون توقف للقديس فاسكين داخل كنيسة مكرسة لأحد قديسي الموارنة. يستغيث متمتما، لا يعرف ما يقول لان دويّ انفجار الرصاص في رأسه كان يمنعه من سماع ما يخرج من فمه. أطبق عينيه كالاطفال الذين يرفضون النظر عندما يُطلب منهم، راكعا منحنيا متجمعا على نفسه، يصطدم باجسام النساء، يحتمي في الحقيقة خلف النساء. لا، لن يموت وعيناه مفتوحتان. صوت الرصاص يضجّ في رأسه، الطلقات تضرب في كل انحاء جسمه، وصوت يصرخ، صوت رجل واحد ينادي بكامل قوته، ينادي ولا يتوقف:

. يا هو... خافوا الله!

لا يسمع العويل المتصاعد من حوله. أنين امرأة شابة أصيبت في كتفها تنزف دماً غزيراً، وراهبة اصيبت بنوبة من الهستيريا، ترتجف واسنانها تصطكّ دون توقف وهي تقبّل

الصليب المتدلي من عنقها. هلع الراهبة كان يأخذه الى الهاوية. كان يسمع صوت الرجل فقط، يتمسك بكامل قوته بالصوت الجهوري الغاضب كأنه حبل الخلاص. اذا استمر الرجل في الصراخ سيبقى نيشان هوفزيب دافيديان، المصور ابن الخمسة والعشرين عاما، على قيد الحياة.

تشبث أيضا بآلة "الزايس ايكون" الجديدة المعلقة في رقبته وبالتمتمة للقديس فاسكين.
على غرار تمتمة أمه. ضبّ آلة التصوير في حضنه وكوّر جسمه فوقها. كان يشم رائحة النساء ورائحة الراهبات. الشعور المكويّة، الامونياك الذي يحرق القلب، العطور الرخيصة الممتزجة بعرق الحرّ وعرق الخوف وعرق الكنيسة المكتظة بخلق الله. لا يريد ان يموت ولا يريد للـ"زايس ايكون" ان تتكسر لانها باهظة الثمن. وكان وُفّق في شرائها بنصف ثمنها من رجل لم يستخدمها اكثر من شهر واحد، اضطر الى بيعها بداعي السفر، ولن يتمكن نيشان من شراء غيرها. لم يصوّر بها سوى فيلمين، عرس وتوزيع شهادات. كان مصمما على انقاذ "الزايس ايكون" مهما كان الثمن.

يشدّ جسمه، يستعد لتلقي الضربة القاتلة. ستطاله الضربة التالية. المهم ان لا تصيبه في رأسه. يعتقد ان الرصاصة في الرأس لا تُحتمل، يخاف الالم اكثر مما يخاف الموت. يفكّر في والده، يفكر في أمه. جالسان هادئان، جنبا الى جنب على الارجح. هو يقرأ الجريدة الأرمنية وهي تشتغل بالابرة، وربما تتمتم صلاة سريعة للقديس فاسكين. وهو هنا تحت الرصاص المنهال كالحجارة. لن يفلت منه الا اذا بقي الرجل يصرخ واذا ظل هو يسمع صراخه...

وفجأة انفرجت الدنيا، عادت الحياة. فتح عينيه فانتبه الى أشعة الشمس الداخلة من الفتحات العالية، وشعر بالدم يجري فيه من جديد. سكت الرصاص وسكت صوت الرجل الصارخ في الكنيسة. بقي نيشان دافيديان حيّا. ارتخى جسمه شيئا فشيئا، رفع رأسه اولا. لم يتجرأ احد في الكنيسة على الوقوف. ارتفع انين الجرحى تقطعه صرخة جارحة. راح يكتشف القتلى. لن يعرف من كان الرجل الصارخ في الكنيسة. لم يسأل عنه. استعادوا امامه تفاصيل كثيرة لكن احداً لم يأت على ذكر الصوت وصاحبه. سأل نازاريت فقط. سأله في ما بعد، بعد يومين او ثلاثة، عندما زاره في البيت، ما اذا كان سمع صوتا هادرا فوق صوت الرصاص داخل الكنيسة. قال نازاريت إنه لم يسمع شيئا، وإنه كان محشوراً عند باب السكرستيا بين الكهنة الهاربين من امام المذبح. لم يكرر نيشان سؤاله. خاف ان يسخر مواطنه منه. ربما لا وجود لمن كان يصرخ، ربما كان نيشان يسمع وحده الصوت يضجّ في رأسه.

فتح عينيه فشاهد الدم فوق بنطلونه. كان يسيل من رجله اليمنى. بقعة سوداء فوق البنطلون الازرق. لم يشعر بألم، لم يشعر بشيء. رأى جرحه قبل أن يشعر به. لا يزال في كامل وعيه وخوفه، لم يمت. كان سمع ان من يصيبه الرصاص لا يشعر بالألم في البداية، ثم يأتي

الألم عندما تبرد الرصاصة. الموت لا يزال هنا اذن، ممكنا، يمسكه من تحت، يهدده بالصعود من رجله الى قلبه. سمع تدافعا عند باب الكنيسة. جزم بينه وبين نفسه أن نازاريت قُتل، واستعد لهذا الاحتمال. اول ما انهمر الرصاص كان رآه واقفا يصوّر الحضور في الصف الأمامي، الوجهاء وأهل الفقيد والاكليروس، بينما تراجع هو الى جهة النساء الخلفية ليصور المذبح والكهنة في لقطة عامة. عندما راجعا صور الحادثة، ابتسما عندما اكتشفا ان نازاريت ظهر في صورة نيشان، ونيشان ظهر في صورة نازاريت. مصوران وفي ايديهما الفلاشات الدائرية الكبيرة. نازاريت كان مكشوفا للرصاص أكثر منه.

فلاشات الماغنازيوم كانت رائجة في تلك الايام، تلمع في العيون، حتى في الخارج تحت ضوء الشمس. هاغوب، معلّمه، اوصاه باستخدامها في جميع الظروف. تمنع ارتسام الظلال على الوجوه، كما يقول. لم يعرف نيشان ان نازاريت سيحضر الى برج الهوا. لو عرف لما كان أتى هو ايضا. كانوا في عزّ موسم المدارس في شهر حزيران، موسم الصور التذكارية. الاستاذ وتلامذته فوق مدرج خشبي. نصف ساعة لاسكاتهم وترتيبهم من الاقصر الى الاطول. لكن المدارس تدفع جيدا وكل تلميذ ملزم شراء صورة لصفّه، فلا بأس.

التقى نازاريت في الساحة خارج الكنيسة. يحضر المصوّرون دون دعوة في الجنازات. توزّعا في البداية أرجاء الساحة هنا وهناك طمعاً بزبائن بين الرجال المرتدين بدلاتهم بالرغم من الحر. يعرفهم هو ايضا، يرتدون بدلاتهم ليخفوا المسدس تحت السترة. ناداه بعض الرجال، تجمعوا، وضعوا اياديهم خلف اكتاف بعضهم البعض، يحبون بعضهم، كالعادة لا يبتسمون. التقط لهم صورا الى جانب الدكان، ثم رافق الموكب مع نازاريت من بيت العزاء الى الكنيسة وهما يتبادلان الكلام وحتى النكات بالارمنية من فوق رؤوس الرجال العابسين.

لم يكن يتحدث كثيرا الى نازاريت في العادة، الكلمة اللازمة فقط. منافسه نزاريت، لحق به الى برقا، صار يقلده ويسرق منه الزبائن. من دنيا الله الواسعة لحقه الى رزقته هنا. لكنهما كانا خائفين امام باب الكنيسة فأسرفا في تبادل الحديث بلغتهما. كان الرجال ينظرون اليهما شزراً اذا حين يسمعون زقزقتهما الارمنية.

أمطرت السماء دون سابق انذار فزاد خوفهما. كان هناك الكثير من الكهنة والراهبات، شعرا ان الرجال جميعهم يحملون المسدسات ويتبادلون النظرات. النظرات الحادة المتوعدة لا توفرهم ايضا. انفرط الموكب من جراء المطر ودخل الحشد بسرعة الى الكنيسة. شعرا بالامان اكثر داخل الكنيسة. لن يحدث شيء هنا. طالما الناس في الكنيسة لن يحدث شيء، لن يتحدّوا بعضهم خلال القداس. بدأت الصلوات والالحان السريانية، لمعت فلاشاتهما لبضع دقائق قبل أن يصلهما صوت الرصاص من الخارج. جمد كل شيء في الكنيسة، حتى التراتيل توقفت شيئا

فشيئا باستثناء كاهن عجوز ربما كان أصمّ لم يدرك ما يحدث واستمر وحده يصدح بترنيمة الجنّاز الماروني.

نازاريت لم يمت. هرع الى نيشان يسعفه. بحث عنه فوجده على الارض عاجزاً عن الوقوف على رجليه. من لنازاريت غير نيشان؟ كل عائلة انسحبت من جهة، بقي القتلى ارضا وبعض الجرحى، بقيت راهبة منحنية فوق احد الجرحى المرتمين ارضا يتلوى من الالم وهي تُطمئنه الى انه سينجو، وبقي المصوران الارمنيان. واحد لا يستطيع المشي والثاني معقود اللسان. صار دافيديان يحكي، يحكي ولا يتوقف. من رأى الموت يحكي ولا يتوقف، ونازاريت يسنده صامتاً كي يصلا الى السيارة. قال شيئا واحدا نازاريت:

. عالم لا دمّة ولا دين!

قالها بالارمنية.

والعالم يقصد به الناس.

أخذوهما الى التحقيق، الى السرايا والى الثكنة، مرتين، ثلاثا، أربعا، الدرك، الامن العام وحتى الجيش... أول مرة قصد محققان بثياب مدنية محل دافيديان ومعهما مجلة باللغة الفرنسية، فتحاها على صورة الشبان الخمسة وسألاه من التقطها.

. انا ما صوّرت شباب!

أنكر دافيديان، تسرع في الانكار فعادوا. وصلوا بسرعة، نزلوا من الجيب، فتشوا محله ومحل نازاريت. خربوا الدنيا، فتحوا الآلات، سكبوا دواء التظهير، حرقوا الافلام واوراق الصور البيضاء، عرّضوها للنور. لاحقوهما باسئلة لا تتوقف:

. اسمك، سنك، صنعتك.

. صنعتي؟ شو يعني صنعتي؟

ربع ساعة لتهجئة الاسماء الارمنية، اسم والده هوفزيب، يصعب لفظه فكيف بكتابته.

. أين كنت؟

. كنت خلف، بعيد، جهة النسوان، والله العظيم!

حلف بالله لعلّ المحقق يتوقف عن طرح الاسئلة عليه.

. ماذا رأيت؟

. أنا بابا ما شفت شي، سمعت.

. شو سمعت؟

. سمعت صوت رصاص... متل الشتي، سمعت نسوان بتصرّخ وراهبة بتبكي وولاد صغار كمان، بنات ايتام لابسين مريول مدرسة...

لم يخبره عن صوت الرجل الذي انقذ حياته. صوت النساء ابشع من ازيز الرصاص.

. ماذا فعلت؟

. غمّضت عيني، بابا، ما بدّي موت وعينيّ مفتوحين. أُغمض عينيّ وأشدّ عليها حتى انتهى الرصاص، فتحت عيني. كان الدم يسيل من رجلي، من هون.

يرفع بنطلونه ليريه الجرح الذي بدأ يشفى.

. اين الصور؟

من حينها الجميع يسألونه:

. اين الصور؟

. لم نصوّر شيئا، يا أخي، صدقني.

. واذا قسونا عليك، اذا فركنا لك أذنك ستعترف، أليس كذلك؟

صمد ولم يعطهم شيئا. لا يريد أن يضر أحدا، دافيديان.

لكنه بعد وقت قصير حمل أغراضه ونزل الى المدينة. هرب. ترك نازاريت وحده فوق. مبروك عليه. فليصوّرهم حتى يشبع، لا يحسده عليهم.

توقف رجال الدولة عن زيارته، أوقفوا التحقيقات، ارتاحوا وأراحوا. بدأ أناس آخرون يزورونه، حشريون قيل لهم او افترضوا أنه صوّر الرجال شاهرين مسدساتهم. اعتقدوا انهم اذا رأوها سيتعرفون على من اطلق النار، جاء اليه صحافيون عرضوا عليه مالا، وقصدته تلك الصحافية التي تتكلم الفرنسية. ربما تكون ذهبت أيضا الى نازاريت لكن نازاريت ليس خبيرا في النساء. اعطاها تلك الصورة التي نشرت في المجلة والتي سأله عنها المحققون. لم يستطع مقاومة الصحافية الشابة. لا يعرف كيف تمكنت من اختلاس الصورة منه. صورة الشباب الخمسة. ناداه هؤلاء الشبان، كانوا خمسة واقفين ينتظرون الجنازة ان تبدأ. يتذكّر كيف صار يطلب منهم ان يرصّوا صفوفهم. طوّقوا بايديهم اكتاف بعضهم البعض، وشعر انهم يحبون بعضهم، وانهم سعداء جدا باجتماعهم في صورة واحدة. قتلوا جميعهم. الخمسة. صوّرهم وصوّر غيرهم من الرجال المتوزعين في الساحة. انتزعت الصحافية الصورة منه انتزاعا، بالمداعبة والدلع. أعطته مئة ليرة ايضا. جميلة القوام وضميرها حيّ. جاءه من بعدها رجال من الذين شاركوا في الحادثة أو من اقاربهم. فتح بابه ايضا لاقارب الضحايا. لحقوا به الى هنا، لحقوا به الى المدينة. يعرفهم من لحظة وقوفهم في باب المحل. واحد منهم دخل، وضع يده في جيب سترته، وقال:

. أكتب لك شيكاً على بياض، تعطيني ما لديك وتكتب المبلغ الذي تريد.

لا يخافون الشهود، لا يخافون المحاكمة ولا القاضي، يخافون الصور. رجل قصير القامة، اصابعه غليظة، حضر ذات صباح وكان مقطّب القسمات. سأل دافيديان السؤال المعهود فلم يحصل منه على نتيجة. كرر عليه دافيديان أنه عندما يبدأ الرصاص يهرب المصور مثله مثل الآخرين.

. المصوّر بيخاف حبيبي، انت قبضاي ما بيخاف، بس المصور بيخاف...

وأخبره كيف أنه انبطح ارضا واحتمى بالنساء.

. تصدّق؟ تخبيت ورا النسوان!

كانت الجَبَانة أسهل طرق الافلات. لكن الرجل ذا الاصابع الغليظة لم يصدّقه، استدرجه الى الغرفة الخلفية في الاستديو حيث كان دافيديان الشاب الوسيم في تلك الايام، بطل البلياردو في المدينة بلعبة الكارامبول، يلتقط ويظهّر صور الهوية ويستدرج الفتيات الجميلات من زبائنه ليغازلهن بعيدا عن انظار المارة بعد ان يغلق باب المحل من الداخل ويرفع لافتة "نعود بعد قليل". دفعه الرجل دفعاً صوب الحائط، وضع يده على كتفه وشهر مسدسه وصوّب على رأسه مهدّداً. ارتفع مع دافيديان السكّري منذ تلك اللحظة بالذات على الارجح.

كان نيشان دافيديان قد أمضى سنوات طويلة بينهم. كان مصوّرهم الوحيد الى أن جاء نازاريت. وظهر في البلدة ايضا خورخي وهو من ابناء العرب، تعلم المهنة في اميركا لكنه كان مجنونا. خاف نيشان في قرارة نفسه ان يبدأ ابناء العرب بتعلم المهنة وممارستها. لكن خورخي لم يأخذ من أمامه الزبائن ولم يعمّر طويلا. مسكين.

مرّوا جميعهم أمام نيشان، في الغرفة الخلفية التي حولّها الى استديو. اقتنى لهم في البداية سلاحا. دينهم ومعبودهم السلاح، بندقية عتيقة لا تعمل، وصفّين من الخرطوشُ يربطان على الخصر او يُعقدان صليباً على الصدر. كان يحتفظ لهم ايضا بعقال وكوفية طالما لم يجدوا بعد لانفسهم صورة بديلة من الرجولة العربية. كما جهّز سيفا للراغبين، سيفين في الواقع، احدهما معقوف.

يدخل عليه الرجل وحده، اذا قصده فليس لأنه يكون معجباً بجماله او بطلّته بقدر ما كان يتحسب للصورة التي ستتصدر جنازته او التي سترفع في صدر بيته بعد الوفاة. فجأة صاروا يخافون ان يمضوا الى الآخرة ولا يبقى لهم صورة تُذكِّر أهلهم بهم. يقف الرجل بسلاحه الكامل امام عدسة دافيديان، ولو لم يكن لديه في بيته "سكين تجرح" كما يقال. ينتبه الى الشاربين، يتفحّص نفسه في المرآة اولا. العبسة كانت ضرورية، ترتسم تلقائيا على قسمات الرجل الواقف

متحدياً العدسة كأنه ينظر في عيني خصمه، وكان يزداد عبوساً كلما طلب منه نيشان الثبات كي لا تهتز صورته.

بدأوا يطلبونه الى الخارج ليلتقط لهم صورة تجمع اكبر عدد من الاصدقاء المتحلّقين حول سيارة جديدة، او لتصوير عروسين في البيت وسط باقات الورود والزغاريد. أطلّت النساء عليه متأخرات عندما تحسّنت اطباع الرجال فصاروا يصطحبون زوجاتهم والاولاد. تحضر العائلة بكاملها، يقفون معا في الثياب المدنية. كانوا ربما كلما اشتروا ثيابا جديدة يرغبون في الوقوف بها أمام المصوّر، فيطلب منهم ابتسامة خفيفة، يتجاوب معه الصغار اولا ثم المرأة. يصعب على الرجل اظهار اسنانه فيحافظ على انقباضته. يطالبهم بالابتسامة ويحاول جذب نظراتهم جميعا اليه. نظرة شاردة الى ما يلهيها في المشهد العام خلف المصور او الى جانبه كانت من الأخطاء الواجب على المصور الناجح تفاديها. ثم بدأوا يصوّرون الصغار وحدهم. في القربانة الأولى في ثياب الملائكة أو يوم أحد الشعانين باكين وحاملين شمعة أطول منهم. أو يأتون بهم اليه حيث يمتطون حصانا خشبيا ويعتمرون قبعة قشّ مكسيكية عريضة. نازاريت نافسه، كان يصورهم وهم يقودون طائرة مرسومة في الخشب الملوّن. لم تجرؤ النساء على المجيء اليه بمفردهن الا عند الضرورة التي لا مهرب منها أي عندما شاعت صور الهوية النصفية وصور جوازات السفر.

تركهم نيشان، نزل الى المدينة. أمضى احلى ايام حياته فيها. الحياة هنا سهلة، الناس يسعون الى حاجاتهم بمزيج من الخفة والقبول والحيلة. لكنه وصل اليوم الى آخر الدرب. الهزيمة بادية على الواجهة الزجاجية لمحله. غبار وصورتان باخت الوانهما، عريس وعروس تلبس طرحتها البيضاء وطفل محمول على الأكف وبيده غصن زيتون. تحول الاستديو الى مجرد "مجلس" صباحي له. لا يطيق وحشة البيت. لم يبق معلقاً فوق الباب من الحروف الحديدية لاسمه "فوتو نيشان" سوى "شين" مائلة و"ألف" صامدة. تحكّمت به تماما هذه الرجفة اللعينة فمن أين ليديه أن تطيعاه في حمل آلة التصوير. تلك هي هزيمته الحقيقية وليس انتشار مختبرات التظهير السريع كما يشاع.

يعرّج عليه بائع القهوة المتجول مرتين، مرة عند وصوله في التاسعة ليسكب له فنجاناً ساخناً مرّاً من ابريقه اليمين، ومرة بعد دورته الطويلة في السوق ليستعيد الفنجان الفارغ وثمنه. يستقبل صديقا قديما يجرجر رجليه بين مقاهي ساحة التل. يدخل عليه صاحب معاملة تائه، نازل من الجرد العالي، لهجته الفظة تسبقه وتدل عليه، يفتح الباب فتدخل معه رائحة الشواء من المطعم المجاور، يريد شراء طوابع أميرية أو يسأل عن طريقة الاستحصال على السجل العدلي. يقفل نيشان الباب للذهاب الى الغداء حوالى الاولى والنصف وينتهي الامر، ولا يعود الا في صباح اليوم التالي.

سيناريو المستقبل معروف، حتى هو شارك في وضع تفاصيله: ما ان يغمض عينيه، والموعد قريب بسبب المرض الذي ينهكه، أكثر من ثلاثين عاما مع السكّري، حتى تبيع زوجته المحل، تبيعه لصاحب مطعم الشواء المجاور، يقترح شراءه مرة في الاسبوع على الأقل. لا تبيع فرش البيت بل تعطيه لشقيقته الساكنة في بيروت دون مقابل. كرر عليها اكثر من مرة أن تعطي فرش البيت لأخته دون مقابل وان لا تبيعه لاحد. يعرف ان زوجته بخيلة. طلب ان تدفنه هنا، في مقبرة الارمن الارثوذكس، بعدما اشترى عقارا صغيرا فيها. يحب رائحة هذه المدينة، كما يحب المرء رائحة من يحبهم، وتلتحق هي بابنه وعائلته الذين سبقوها الى كندا. مئة عام في لبنان لآل دافيديان تكفي، جاء اليوم دور بلاد البرد البعيدة.

أطل ايليا برأسه الى الداخل وهو ممسك بالباب المفتوح بيد ويقرأ الاسم الذي سأل عنه في ورقة يمسكها باليد الأخرى. بقي جسمه في الخارج وأطل برأسه كأنه ينظر الى بئر. لم يرفع دافيديان رأسه لينظر بامعان الى السائل الا عندما سمع اسمه. يجيب عادة السائلين التائهين الذين يحملون في ايديهم معاملاتهم الادارية، يجيبهم باشارة من يده او بكلمة مختصرة دون ان يتطلع الى وجوههم. من وقت طويل ما عاد أحد يدخل المحل قاصدا صاحبه. يتصورون في الفوتوماتون على بعد أمتار ويفتحون بابه للاستعلام او لاعتقادهم ان في المحل آلة لتصوير المستندات.

. نعم، موجود.

. هل يمكنني التحدث اليه؟

مبالغة في التهذيب.

. تفضّل، تفضّل حبيبي!

عرفه.

. أنت من برقا، أليس كذلك؟

يعرفهم دافيديان، يعرفهم من لهجتهم الحادة ومن نظراتهم ايضا. نظراتهم القاسية تلك عند دخولهم الكنيسة في ذلك اليوم.

. ابحث عن صور!

. صور مين، بابا؟

ما زال لا يحسن العربية، مع انه ولد هنا أو انه اعتاد على هذه الاضافات: بابا بين كلمة وكلمة، حبيبي في خاتمة الكلام، يكثر منها لاشهار هويته، كي يصنّفوه على الحياد في مشاكلهم.

. صور من برج الهوا.

حادثة برج الهوا على الارجح. هي نفسها، أمضى فيها ساعة من الزمن فتحولت قصة حياته. الى ان يموت. لكن لا شيء يمنع نيشان دافيديان مرة اخرى من تفادي الموضوع.

. انا هون بيصوّر ناس، رجّال، مدام... ما بيصوّر ضيعة بابا. انت بيشوف رسّام اكواريل بيرسملك طبيعة، قرميد، في منّو كتير تلاميذ شاطرين...

بالغ دون قصد منه في اللهجة الارمنية. عاوده شعور الخوف القديم فالتجأ الى لهجته وكادت لغته العربية تتحول ضربا من الهذيان المكسّر.

. كنت في برج الهوا يوم الاحد...

لكن الامور تحسنت قليلا عندما أحس نيشان، ليس لسبب واضح، ان الرجل الواقف قبالته لا يسعى وراء الشرّ، ولا يريد الحاق الأذى به. قاطعه:

. كيف عرفت؟ انت لم تكن ولدت... شو عمرك حبيبي؟

. 42 عاما... هل تعرف هذه البطاقة؟

سأله ايليا وهو يشهر الورقة الصغيرة التي يحملها.

أخذ البطاقة من يد ايليا. ابتسم هو ايضا. اوراق صغيرة عليها الاسم والعنوان ورقم التلفون يعطيها المصور لمن يقنعهم بالوقوف أمام عدسته في الطرقات والحفلات او في الحديقة العامة كي يعودوا اليه بعد يوم او يومين لستلّم صورهم. يقبض ثمن الصورة ويعطيهم البطاقة، هكذا يضمن حقه.

. من وين هيدا؟ هيدا قديم...

مطّ الـ"قديم" طويلاً.

. كانت في جيب والدي عندما قُتل في حادثة برج الهوا...

. لن نخلص ابدا من هذه القصة.

قالها لنفسه تقريبا.

. تتذكرها جيدا؟

سأل ايليا.

انحنى الرجل ليرفع بنطاله كاشفا عن ساقه البيضاء الرفيعة.

. شوف حبيبي...

دلّه على جرح صغير.

سأله ايليا:

. كيف أصبت؟

. لم أعرف اني أصبت حتى وقفت لأمشي، عندها صرخت من الوجع ورأيت الدم يسيل من رجلي بابا، كنت لجهة النساء لا أعرف من أين وصلت اليّ هذه الرصاصة...

. اذا كان عندك أي صور عن برج الهوا انا مستعد أن أدفع ثمنها، الأمر يهمني كثيرا...

جميعهم يريدون ان يدفعوا له مالا، لا يصدّقون انه لا يهتم.

تردد قليلا، فكر في موته القريب، في داء السكّري، في رحيل زوجته الى كندا. ممّ يخاف؟ قال فجأة لايليا:

. شوف بابا انا ضميري حيّ...

وقف وأخذ عن احد الرفوف مغلّفاً من الكرتون البرتقالي.

. كل الصور التي لم يأت اصحابها لتسلّمها جمعتها في هذا المغلف وقلت لنفسي: شوف يا نيشان ان اصحاب هذه الصور دفعوا ثمنها سلفا، انا كنت اصور بابا واقبض مصاري دغري، وربما يتذكرون ويرجعون للمطالبة بها... في ناس ماتوا وفي ناس نسوا، بس نيشان دافيديان ضميرو حيّ.

رمى المغلف البرتقالي على الطاولة.

لم تكن محفوظات نيشان تقتصر على الصور التي لم يأت اصحابها لاستلامها. كان لديه مغلف آخر من الصور، تذكره الآن. يفتحه احيانا، صور نساء، صور فتاتين جميلتين، صور خورخي. لا بد ان يعرضها على احد ذات يوم. اذا جاءه من يسأل عنها، اقارب "خورخي" مثلا، سيعطيهم كل شيء.

. اجلس هنا، تفضل، راجع هذه الصور، لم أعد أريد ثمنها، لكن انتبه، لا تأخذ صور غيرك...

جلس ايليا امام المغلف كمن يجلس الى وليمة بعد جوع طويل.

XIII

. وصلت الشاحنة!

كنا ننتظرها منذ الصباح. ننتظرها رواحا ومجيئا وصراخا بين الحارة والشارع العام من حيث نتوقع قدومها. كان الشارع العام حدودنا، خصوصا في تلك الأيام الصعبة.

ما ان دخلت الشاحنة المفترق حتى رحنا نعدو أمامها هاتفين. نصرخ بالمارة والجيران كأن النار تطاردنا. نهتف بهم ان يبتعدوا ونحن ندلّ السائق الى البيت. تسد الشاحنة الطريق بعرضه، لا تترك مجالا للمشاة. عالية مخيفة.

كان العتّال واقفا في صندوق الشاحنة. مع وصوله الى النزلة القاسية أخرج السائق رأسه من النافذة ليصرخ بنا ان نبتعد بدورنا من أمام عجلاته لأن الفرامل قد لا تلبّيه. يقول وسط ضجيج المحرك انه يعرف البيت الذي يذهب اليه وانه لا يحتاج الينا كي ندله، ونحن لا نأبه لصراخه ونصر على العدو أمامه.

. الى أين سيذهبون يا أمي؟

. الى حارتهم...

. ...

. ... يبدو أنهم استأجروا بيتا هناك.

. هل لديهم أقارب حيث سيذهبون؟

. طبعا لديهم أقارب، جميع أقاربهم هناك، أقول لك انها حارتهم. انظر أين يسكن اعمامك، أليس هنا في جوارنا؟ انها حارتنا، وهم حارتهم فوق.

. لن يعودوا الى هنا؟

. لا أعرف، لا أعتقد.

. ولماذا سكنوا هنا بعيدا عن أهلهم؟

. ...

. سيأخذون الهرة معهم؟

. ...

لم تكن أمي تجيب عن جميع اسئلتي وانا، من جهتي، كنت اعمل على هواي. لا أنتظر أجوبتها. الهرّة، لم يكن لديها اسم، الهرّة كانت تثق بي، بسبسة صغيرة وآخذها الى آخر الدنيا. استدرجتها في الليلة السابقة، ما ان شاع خبر رحيلهم.

قيل ان رسولاً جاء من قبل ابو جميل، رسول لم يره أحد، جاء تحت جنح الظلام على الأرجح، أبلغ أم جميل بأن توضّب اغراض البيت. أن تستعد للرحيل. أبو جميل يرسل اليهم صباح الغد شاحنة تحمّل فرش البيت. وجد لهم أبو جميل بيتا ينتقلون اليه. كان سبقهم الى هناك، الى حيث ينتقلون. أقاربه، ابناء عمه، يساعدونه هناك في مسعاه. الرجل معرّض للخطر أكثر من زوجته واولاده على ما يبدو. هرّبوه من عندنا، هرّبوه قبل زوجته وأولاده. تركهم عرضة للخطر اياماً عدّة بينما هو في أمان. على عكس خالي سعيد. ما ان بدأ قصف الهاون حتى هرب بعائلته. غاب يومين وعاد وحده، اطمأن الى اقامتهم وعاد هو الى المتراس.

لاعبتُ الهرّة قليلا، دلّلتها، حملتها، مشيت بها، أغمضت لها عينيها ورميتها في برميل كبير فارغ. رميت لها قليلا من اللحم تأكله وأغلقت عليها. حتى مواؤها لن يصل الى مسامعهم. أضاعوها في المساء، لم تظهر في الجوار فسألوا عنها. اتفق الجميع على الرأي ان الهرّة لا تريد مغادرة الحارة فلذلك فرّت. ضحكوا، ضحكة انتبهوا بسرعة الى ضرورة خنقها. المهم ان الهرة اضحكتهم فراجعوا مرة أخرى كل ما يعرفونه من اخبار الهررة وذكائها. سبحان الله. امتدت اخبار الذكاء الى الفئران ومنها الى الكلاب، كالعادة، دورة كاملة أكد الجيران لأم جميل في آخرها أن هرتهم لا شك ستظهر من جديد.

. نرسلها اليكم ما ان نلمحها، لا تقلقوا.

أدركتُ في ما بعد ان الكبار عندما لا يريدون لأجواء الحدّة ان تُوقع الخلاف بينهم يتبادلون التفاهات المتفق عليها مثل اخبار ذكاء الحيوانات ويدّعون انهم يصدّقونها ويتعجّبون منها ارضاء بعضهم لبعض. انتبهت دائما ان التحادث في احوال الحيوانات في حارتنا كان الطريق الاقصر الى المصالحة او الى تفادي الشجار.

. ابتعدوا يا صغار...

. ليسترنا الله..

. ستضرب مرآة الشاحنة بطرف الشبّاك، انتبه، انتبه..

. هل تريدين مساعدة يا أم جميل؟

. انتبه لشريط الكهرباء، لا تقطعه.

. ستوووب...

أدخل السائق شاحنته خلفيا بعد ان فتح الباب وأخرج نصف جسمه منه ليكون صندوق الشاحنة في موازاة باب البيت تماما ونحن ما نزال نعطيه التعليمات... قفز العتّال أرضاً. متقدم في السن خفيف الحركة، عتّال محترف كنا نراه للمرة الاولى. اقتربنا منه، كان يحمل على ظهره مربعا نحاسيا صغيرا محفورا عليه رقم تسلسلي، 64. عتّال رسمي من المدينة، من طرابلس.

دخل الى البيت، غاب قليلا وعاد حاملا خزانة غرفة الطعام. كانوا قد أفرغوها من أواني الزجاج وكؤوس الكريستال التي كانت تلتمع فوق رفوفها عند مرورنا بجانبها. كنا نتعمد الاكثار من الرواح والمجيء امامها لنتمتع بلعبة الصور لان المرآة التي في خلفيتها كانت تقابل مرآة أخرى معلقة الى جانب باب المدخل فينعكس مرورنا أمامها الى ما لا نهاية. لم نكن نضجر من صورنا التي لا تحصى. حزّم العتّال الخزانة على ظهره وشدّها على جبينه بزنّار من قماش لا يفارقه اثناء عمله كي يسهل عليه رفعها. ركّزها في صندوق الشاحنة ودخل من جديد ليعود حاملا قطعا من السرير النحاسي الذي كان يتراءى لنا وخلفه ستارة خضراء في غرفة نوم صاحب البيت وزوجته، التي وبالرغم من مرورنا اليومي امامها لم نر مرة بابها مفتوحا عن آخره. لم يكن في بيت ابو جميل سر علينا الا هذه النصف فتحة في باب غرفة النوم. خلوة الرجل والمرأة.

على هذا المنوال، سيفرغ البيت في أقل من ساعة من الزمن. الجيران متجمعون خارج منازلهم، متجمعون أمام عتبات الابواب، وقوفا وحتى جلوسا على الشرفة او الشرفتين المطلتين على بيت ابو جميل أو متحلقين جهاراً في وسط الطريق. يتفرّجون على رحيل بيت أبو جميل من حيّنا وانتقاله الى حيّ اعدائنا. لم يكن يبدو على النساء أنهن انتُزعن من اشغال البيت انتزاعا، ولا

على الاولاد انهم توقفوا فجأة عن ألعابهم في صباح يوم العطلة هذا لمتابعة حدث طارئ. كما يحصل أحيانا عندما يهرع الصغار والكرة في اياديهم والوحل يعلو ركابهم، أو عندما تخرج النساء واياديهن مبللة بماء غسيل الثياب من دون ان يجدن وقتاً لتنشيفها عند وقوع جارنا الشاب بـ"النقطة". يحصل له ذلك فجأة ويرافق اغشاءته وخروج الرغوة البيضاء من فمه عويل صارخ تطلقه أمه في كل مرة فيستنجد الجيران بسيارة تنقله الى المستشفى.

الشاب الذي يصاب بالـ"نقطة" مرة في الشهر على الأقل كان حاضرا ايضا بيننا، واقفا لا يبدو عليه أي من علامات المرض. كنا جميعا مستعدين سلفا، بعدما تفرّغنا من يوم أمس لمتابعة المشهد. صاحبة البيت، أم جميل، واولادها كانوا مثلنا واقفين في الخارج في الجهة المحاذية لبيتهم، يتفرجون معنا هم أيضا. نحن كنا واقفين نتفرج عليهم وهم يتفرجون على العتّال يفرغ البيت من أثاثه، ويتفرجون علينا. ربما توقعت أم جميل، في قرارة نفسها، ان الجيران سيعترضون، في اللحظة الاخيرة، على انتقالهم. لا هي ولا اولادها كانوا يرتدون ثيابا توحي بأنهم يشدّون الرحال. أم جميل ترتدي فستان البيت الذي يكشف دائما عن ذراعيها البيضاوين المتهدّلين.

العتّال يعمل وحده. لا أحد، لا شاب ولا امرأة يضع معه يداً. أيدي النساء مكتّفات على صدورهن في صمت مهيب. أم جميل كانت كلما أخرج العتال على ظهره غرضاً تنظر الى الجيران، تنظر الى صاحباتها النساء واحدة واحدة. تنظر في عيونهم مباشرة. تريدهن شهودا على ما يحصل لها. حتى دمعت بعض العيون، ومنها عينا أمي.

أمي حزينة. ذهاب أم جميل وعائلتها سيترك فجوة وسط حارتنا. فجوة بمعنى الفراغ الذي لن يملأه أحد. حزينة أمي بسبب الشباب الذين يقتلون وحزينة ايضا لأن أم جميل صديقتها وابنة عمها. أم جميل من عائلتنا، من قلب عائلتنا. تحبنا، بكت دما يوم حادثة برج الهوا، ملأ صراخها الحي، نتفت شعرها. قد تكون بالغت في البكاء حماية لزوجها واولادها، هكذا يقول بعض ألسنة السؤ.

حزينة أمي ايضا بسبب الفسحة الواسعة أمام بابهم. ربما يسكن مكانهم من يحرم الجيران منها. ربما يؤجرون البيت عن قصد لمن يعرفونه خسيسا يسيّج الفسحة ويزرعها. فسحة تسبب بها تراجع غير مفهوم للبناء بضعة أمتار عن الطريق بينما فضّل أصحاب المنازل الأخرى "أخذ حدّهم" كاملا وبالتالي فتح ابوابهم مباشرة على الشارع العام. "سهلة" بيت أبو جميل كانت ملعب الحارة الوحيد. قطعة الأرض "البور" هذه ملكهم لكنهم لم يتصرفوا يوما كأنهم أصحابها، فبقيت ملعبا للجميع. كان والدي يقول دائما أن في امكانهم تسييجها ومنع أي كان من المرور فيها، لكنهم لم يفعلوا.

أهل الحارة يتعاملون معها كأنها امتداد للطريق ومحطة "يبسّط" فيها بائعو "الشنط" من صيدنايا السورية بضائعهم. يرتاحون هناك من عبء الحقائب الضخمة التي كانوا يحملونها على ظهورهم ويجولون بها. تقدم لهم أم جميل الكراسي وللجيران القهوة. يتساومون حول اسعار القمصان والمناشف والشراشف، يقسمون على صدق اسعارهم بما يوحي انهم مسيحيون. كانا شقيقين يرتديان الشراويل السوداء الواسعة، ينكشان بضائعهما فيلزمهما جهد جديد لاعادة توضيبها وحشرها في الشنط قبل رفعها على الظهر والسير حثيثا الى حارات أخرى. هنا ايضا يعرض البائع الأسمر الطويل صور القديسين مع أنه كان يقال عنه أنه مسلم. وفي "سهلة" بيت أبو جميل كنا نجلس في الليالي المقمرة ونتبادل الحكايات المخيفة الى ان يدعونا صوت أليف الى النوم. صوت أمي.

. متى يأتي دور بيت فياض؟

سألتها هامسا.

انفعلت. كان حلقها يغصّ من التأثر. مسحت دمعة من عينها.

. من أين تأتي بهذه الاخبار؟

صرخت تغطّي انفعالها.

. من أخبرك؟

كنا نعرف كل شيء. نعرف أن عائلات أخرى ستترك الحي، نعرفها ونعدّها واحدة واحدة. وأن عائلات أخرى من أقارب لنا لا نعرفها ولم نرها يوما من قبل ستحمّل فرش منازلها وتأتي الينا، تحتمي بنا.

. عمّي حميد، أليس من عائلتنا؟

استخفت بسؤالي:

. اسكت يا صبي.

. لماذا ذهب عمي حميد وعائلته؟ لماذا تركوا الحارة وانتقلوا الى بيروت؟

. ...

. لماذا توقف ابن عمي منير عن اللعب معنا قبل ان ينتقل مع أهله الى بيروت؟

نظرت اليّ للمرة الاولى وقالت بحدة:

. لا أعرف. اسأل امرأة عمّك...

كنت أعرف أن امرأة عمي غريبة وتضع أحمر الشفاه والبودرة على خديها، لكني لم أفهم لماذا كان عليّ ان اسألها عن سبب توقف منير عن اللعب معنا.

كل غرض يُخرجه العتال كان له وقعه على المتفرجين من أهل الحارة، فنحن نعرف بيت أبو جميل قطعة قطعة. نعرف بيت أبو جميل لأن بابه مفتوح النهار بطوله على الطريق. كان بالنسبة الينا نوعاً من امتداد للطريق، لو عدونا هربا من كلب شارد لوجدنا انفسنا دون تصميم واقفين نحتمي على درجات مدخل بيتهم. لو لعبنا "الغمّيضة" في "السهلة" نختبئ في صالونهم دون شعور بالذنب. نقرفص خلف ستائر الصالون، حتى اننا نطالب أهل البيت بعدم ابداء أي اشارة تفضح وجودنا، وهم جميعا من الصغير الى الكبير متعاونون يتحملون ضجيجنا ويبتسمون. ولو لعبنا بالحرب عمدنا الى التراشق بالنار بين المطبخ والحديقة الصغيرة الخلفية حيث نتمترس وراء جذع شجرة الاكيدنيا. ندخل اليهم معنا ضجيجنا ووحل الطريق العالق بأحذيتنا. لم نسمع منهم تذمرا ولو لمرّة واحدة.

عندما ظهرت الدراجة الأولى مرفوعة على كتف العتّال، تحدث الصبيان. همهمنا، قلنا شيئا يشبه الاستنكار. كأننا ادركنا فجأة ما رفضنا تصديقه وهو ان ذهاب ابو جميل يعني ذهاب دراجاته معه. كان أبو جميل ملك الدراجات الهوائية. الساعة بربع ليرة. اشتراها أبو جميل بعد تقاعده من الأمن العام. كان مثالا على الانضباط في الأمن العام، مرتّب، مهفهف، لم يتأخر مرة واحدة في الوصول الى وظيفته. يتسلى بتأجير الدراجات الهوائية، كما تقول زوجته. كانت تخجل بعض الشيء من مهنة زوجها هذه، كانت ترى فيها تقهقرا بعد وظيفة الامن العام. هو كان بالغ الحرص على دراجاته، يعرف من لا يتقنون القيادة من اولاد الحارة فيحرمهم امتطائها، يوصي بالتمهل وعدم المبالغة في الشدّ على الفرامل كي لا ينقطع.

ورحنا نعدّها بالصوت العالي، كلما أخرج العتال دراجة نضيفها الى المجموعة. سبع. ثلاث بمقود مستقيم، كنا نسمّيها "هامبر"، وأربع بمقود منحن، "كورس". انا كنت أفضل المقود المنحني. صدمت مرة رجلا ولم أخبر ابو جميل. لم يصب الرجل بأذى كبير، أوقعته أرضا فشتمني. سبّ أمي وأختي ولم اجرؤ على اجابته.

. من سيسكن محلهم؟

اسأل أمي ولا تجيب. يبدو اني أكرر طرح الاسئلة منذ صغري، سلسلة تبدأ من أي موضوع فتتشعب ولا تنتهي. الحقيقة انه كانت تراودني فكرة ان من سيسكن مكانهم سيقتني ايضا دراجات يؤجرنا اياها ايام العطلة.

ضربتني على يدي كي أسكت.

. يقول رفاقي انهم سيذهبون من هنا ويتركون البيت مفتوحا، صحيح؟

نحن الصغار تعودنا على أبو جميل خصوصا. في النهار، نركب دراجاته، نختار الدراجة ذات الجرس العالي الرنين، نتحدى الطرقات الصاعدة بعضلات أرجلنا الضعيفة، وتدق

قلوبنا خوفا من الهرولة نزولا. ما ان نبتعد عن نظر ابو جميل حتى يمتطي صديق خلفنا او امامنا، ونروح نتبادل الادوار في القيادة ونتقاسم اجرة الدراجة. وهو عبثا كان يحذرنا من الركوب معا على دراجة واحدة. لكنه كان يعاملني معاملة خاصة، الساعة نصف ساعة، فنحن جيران كما يقول. له تقدير خاص للجيرة، ابو جميل، خصوصا اذا كان الباب مقابل الباب، كما بيتنا وبيته. يعاملني جيدا لكن ليس أمام أعين رفاقي الآخرين كي لا يطمعوا به ربما. يعيد لي الفرنكات في وقت لاحق، عندما يصادفني وحيدا أو اذا وجدني ألاعب الهرة في بيته. أقمتُ صداقة قديمة مع الهرة، ولما أضاعوها عشية رحيلهم، هناك من طلب منهم ان يسألوني، فلا احد قادر على ايجادها غيري انا.

في المساء كان ابو جميل يلبس روبا للنوم. كان أول رجل رأيته يلبس روبا للنوم في حياتي، يلبسه فوق البيجاما. روب من الساتان الازرق اللماع الذي يرتعش له البدن عند ملمسه. كنا نشعر ان آباءنا نحن، الرجال عموما، اذا ما داهمهم زائر مفاجئ وهم في ثياب النوم هبّوا حياء واحتراما لاعادة ارتداء ثياب النهار. أما ابو جميل فعلى العكس، كان كمن يتباهى بعدة النوم فلا يكتفي بارتدائها باكرا، مع غروب الشمس تقريبا، بل كان يقوم بزيارات قريبة داخل الحي، يقبل الدعوة الى فنجان من القهوة وهو في لباسه هذا.

العتّال يواصل العمل وحيدا، يتوقف ليأخذ روحا فينظر حوله مستغربا هذا الحشد من الناظرين اليه. قالت شيئا واحدا أم جميل عندما ارتطمت طاولة السفرة بحاجب الباب الخارجي فجُلفت.

. سيزعل أبو جميل.

كان أبو جميل يُغيظنا من فرط نظافته ودرايته. يغيظ النساء ايضا، ينافسهن في كارهنّ. يمسح كل ما يمر بجانبه. قضبان الدراجات ومقاودها تلمع من تحت يديه، أم جميل لا تحتاج في وجوده الى ضرب مكنسة واحدة في الارض ولا الى تنظيف الطاولات والواجهات من الغبار. خبير عالم في شؤون اعتقدنا أنها حكر على النساء. تسأله أمي كيف تكبس البندورة او كيف تصلح ماكينة الخياطة السنجر وهي ملء الثقة بأنه سيعطيها الجواب الصحيح. مع انه كان موظفا في الامن العام . صحيح انها كانت وظيفة ادارية فهو اخبرنا مرة انه كان يتلقى ما يسميه "البرقيات" أي التقارير وينقلها الى الضابط المسؤول . لم يدخل أبو جميل الى زمن الرجولة. وهو لم يكن يأبه لذلك بل كان راضيا بحاله كما هو.

لم يدخل زمن الرجولة لكنه كان من آل الرامي. اسمه ثقيل، ثقيل عليه ايضا ولا يمكن التغاضي عنه.

لم نعرف تماما كيف حدث ذلك. قيل أولا إن هناك من مر بهم ليلا بعد حادثة برج الهوا،

يسمونها "حادثة" وهي تحتمل المذكر فتصير "حادثا" ولو ان تاء التأنيث تنسبها الى الخطب الجلل، وكان سبقها وساهم في فداحتها "حادث التلّ" (والادغام الشفهي قد يكون هنا على الارجح وراء الغاء التاء المربوطة من آخر الحادثة) وهو كان فاتحة المواجهات الجماعية والذي سقط فيه قتيلان لم يعرف تماما من أرداهما، وبقي حيا من أطلقت عليه عن كثب عشر رصاصات على الاقل اصابته جميعها، و"الحادثة" في كل حال اشارة توافقية متأنية الى مقتلة او موقعة . والتأنيث هنا ايضا علامة الخطورة . لا يراد تحميل وزرها الى طرف دون الآخر كما في المجزرة او الكمين الذي يوصف هنا بالـ"ربيطة" اشارة الى قيام مسلحين باطلاق النار غفلة وبغزارة على من نمي اليهم انه سيسلك الطريق التي "ربطوها" او عندما يكمن مسلحون في طريق امداد للاخصام فيغتالون أول صيد "سمين" يمر بها. وقد طغت شهرة الحادثة على البلدة التي وقعت فيها، كما المعارك الكبرى في التاريخ العسكري بحيث بات شائعا الاضمار والاكتفاء باسم المكان كأن يقال ان فلانا قتل في برج الهوا في اشارة الى سقوطه بين ضحايا يوم الاحد من شهر حزيران من العام 1957، او ان يؤرخ لولادة او زواج بأنه حدث "قبل برج الهوا" او بعدها فيتحول اسم المكان الى اسم زمان. والحادثة على ما يقولون مثلا "استقامت" عشر دقائق. ولا احد يعرف من اين يُشتقّ هذا الفعل المتعدّي هنا خلافا لاستخدامه في صيغة اللازم عند القول "استقامت" المرأة في أشارة الى الحَبَل وفيه تبقى "مستقيمة" طوال شهوره التسعة. وتختزل الحادثة هنا الى الوقت الذي دام فيه اطلاق النار دون توقف . او تحديدا البداية بطلقتين تلاهما صمت ثقيل على ما يروي مشاركون في الجنازة، تلاه رشق صغير من مسدس قيل انه من عيار 9 ملم، تلاه صمت طويل نسبيا فانهمار غير منقطع للرصاص توقف فجأة ايضا ولم يعقبه أي اطلاق نار آخر وهذا ايضا من غرائب هذه الحادثة . بين انصار لزعماء العائلات وأقارب لهم وبوجود هؤلاء الزعماء وربما يكون اندفاع الاقارب والمرافقين لحماية هؤلاء الزعماء هو المتسبب في هذا العدد المرتفع من الضحايا ولا يقدر البعض تبادل الرصاص بأكثر من ثماني دقائق او حتى خمس امعانا منهم في توخي دقة كان من الصعب التوصل اليها.

مرّ بهم ليلاً من انذرهم بضرورة الانتقال من هنا. لن نتمكن من حمايتكم، قال لهم. هكذا هددوه، أبو جميل. أخبرونا أيضا أن أحدهم ضرب حجارة على زجاج نافذتهم فكسرها، مرة لا بل مرتين. وسرى ايضا أنهم وجدوا اشارة مرسومة على بابهم، لكننا بحثنا عن هذه الاشارة ولم نجدها. وبحثنا عن زجاج النافذة المكسور فلم نجده. لكنهم صمموا على الذهاب.

انتهى العتّال من تكديس اغراض البيت في الشاحنة. عجز عن رفع جرن الكبة، جرن كبير من الحجر السماقي الاحمر.

. اتركه!

قالت أم جميل.

لم يتبرع أحد للمساعدة.

رتّب العتّال الاغراض من الاكبر الى الاصغر، من الاصلب الى الأكثر معطوبية. ساعدوه بنصائحهم فقط: لا تضع الخشب على الخشب، أفصل بواسطة الوسادات، هذه ليست في موضعها، قد تسقط معكم في الطريق. نقل أثاث البيوت مهارة ومعرفة. يعمل العتّال بالارشادات دون النظر الى من يطلقها من المتفرجين. هكذا دائما كان لأهل الحارة كلمة في ادارة شؤون بيت أبو جميل، نقاش مفتوح حول دراسة الاولاد وأي أطباء يقصدون، وتقاعد ابو جميل المبكر، واليوم ايضا كان للجيران رأي ايضا في رحيلهم.

فوجئنا كيف ان اغراض الأكل وشرب القهوة والسيران والنوم وهمس النساء في شؤونهن الحميمة والسهر في الليالي الصيفية الحارة وصخب الاولاد الذي لا يتوقف الا مع نومهم، الصبحيات، الراديو، الضحك والبكاء وعدّة الحياة كلها التي كان يضج بها بيت أبو جميل، يفرغها رجل وحده ويحشرها في هذا الحيز الضيّق. انتهى التكديس فختمها العتال بالتحزيم. ربطة حبل طلب للمرة الاولى مساعدةً من أجل شدّها كما يجب. حزّمها وجلس فوقها منتظرا ومتفرجا بدوره علينا.

أقفلت أم جميل الشبابيك والابواب. أدار السائق محرك الشاحنة. نظرت ام جميل الى الجيران وقالت:

. استروا ما شفتوا منّا.

هذا كان كل شيء. لكنها، كما اعتقد، كانت تفكر بأمور كثيرة لم تقلها. كانت تتوقع ربما أن يتمسك بهم أهل الحارة.

تقدمت الشاحنة ببطء لتخرج من طرقاتنا الضيقة. لم تدبّ النخوة بنا من جديد لارشاد السائق صعودا. كنا مشتتين والمشهد صار خلف الشاحنة. مشت أم جميل واولادها سيرا على الاقدام خلف الشاحنة، بثياب البيت واحذية خفيفة، كما هم عليه كل يوم. اختفت الشاحنة عند أول مفترق فأكملوا السير وراءها.

أفلتُّ من أمي ولحقتُ بهم.

. لا تبتعدوا!

صرخت بنا أمهاتنا.

لحقنا بهم نحن الصغار، بقينا على مسافة منهم، لكل دوره، هم ذاهبون دون رجعة ونحن نواكبهم فقط. رافقتنا دلال التي كبر جسمها ولم يكبر عقلها. الجيران، على الشرفات وفي وسط الطريق بقوا واقفين صامتين بعد ذهاب الشاحنة واختفاء أم جميل وأولادها في المفترق، واقفين ينظرون الى الباب المغلق.

لحقنا بهم صامتين. يلتفت اولاد أم جميل احيانا الى الوراء فتطالبهم أمهم بالتقدم. لما شارفوا على التواري في الطريق المؤدي الى الحارة الفوقا، أي قبل ان يجتازوا الشارع العام، التفتوا جميعهم الى الوراء ونظروا الينا، أمهم نظرت الينا أيضا. استداروا نحونا، لم يلوحوا لنا بايديهم، لم يقولوا كلمة قبل أن يكملوا طريقهم. نظرنا بدورنا الى بعضنا وتفرقنا عائدين الى حيّنا. لكن دلال تابعت وحدها لاحقة بهم. كانت دلال مشدوهة بما يحصل، تابعت سيرها وراء الشاحنة الى ان ناديناها طالبين اليها بالرجوع فوقفت للحظة وسط الطريق حائرة وأقفلت عائدة صوب حارتنا. بالرغم من ضخامة جسمها، لا تعرف دلال حدود حارتنا ولا يوجّه اليها التحذير نفسه من عبور الشارع العام ربما لا يخشى أحد تعرّضها للخطر بسبب بساطتها.

الهرة كانت أكثر تصميما من دلال. رجعتُ الى البيت. كانت حلقة المتفرجين قد انفضّت، فقصدتُ على الفور البرميل الذي أغلقته عليها. سمعت مواءها. لم تمت. رفعت الغطاء فقفزت اليّ، تفتح عينيها وتغمضها بسبب انبهارها بضوء النهار المفاجئ. نزلت ارضا، نظرت حولها، استعدّت قليلا، شمّت ونفخت وبدأت بالجري، الجري السريع. لحقتُ بها بأقصى قدرتي فلم أتمكن من الامساك بها. سلكت الطريق نفسه، طريق الشاحنة، الطريق الذي سلكته أم جميل واولادها. لم تتوقف ولو للحظة أمام باب بيتهم، لم تلتفت، كأنها لم تدخل اليه مرة من قبل بل انعطفت صعودا، وصلت الى الشارع العام، لم تصل أبدا الى الشارع العام من قبل. اجتازته كالسهم، كأنه طريق تعبره كل يوم وتوغلت حيث اختفت الشاحنة وعلى سطحها العتّال حاملا رقمه النحاسي 64.

فجأة، ودون أي مقدمات، بعد اسبوعين تقريبا على مغادرة عائلة ابو جميل الحارة، وصل رجلان الى باب البيت الفارغ. عالجاه قليلا بآلة حادة فانفتح. هرعت الى أمي فوجدتها على علم بما يحصل. ففوجئتُ ولا ازال بانتشار الاخبار دون ضجة، وكنت ارغب كثيرا ان اسأل أمي كيف عرفت ان اناسا سيأتون لاحتلال بيت ابو جميل. بيت أبو جميل، رأيتهم في ما بعد، هناك حيث نزحوا. مررتُ أمام بيتهم الجديد. يحبون البيوت التي امامها فسحات. شعرتُ أنهم جالسون على

مقاعد خشبية وهم سعداء ضاحكون، يشربون القهوة مع بداية المساء. لم ار ابو جميل في مروري العابر. لا بد انه كان يتجول في تلك الساعة من النهار على بيوت الجيران، جيرانه الجدد، وهو لابس روب النوم فوق البيجاما. لم يكن بيت ابو جميل في الغربة والمنفى الذي تخيلته. لقد وجدوا لانفسهم حياة جديدة بدوننا، بعيدا عنا. كنت اعتقد انهم لن يشفوا من مغادرتهم حيّنا وان اقامتهم خارجه ستكون اياما من الحزن والشوق الينا. في الحقيقة انتابني شعور بالغيرة. لم أكن أريد ان يسعد بيت ابو جميل بعيدا عنا. عزائي الوحيد كان في ما أُخبرنا به من ان ابو جميل توقف في حارته الجديدة عن تأجير الدراجات الهوائية، وكان حاول الاستمرار فيها لكنه عاد وباع دراجاته كلها بعد ان تعرض احد زبائنه الصغار لحادث اصطدام كسر فيه رجليه الاثنتين. لم أكن أريد لعائلة أبو جميل ان تسعد في مكان اقامتها لكني لم أكن أقرّ إني كنت قد بدأت استلطف الذين احتلوا بيت ابو جميل. كانت لديهم بلابل في اقفاص وكانوا ايضا يشربون القهوة خارجا في الليالي المقمرة.

"ضحية أخرى من ضحايا الثأر الاعمى؟!

من مراسلنا في طرابلس:

وجد صباح يوم أمس الجمعة المواطن جرجس طانيوس العنداري، 41 عاما، جثة هامدة داخل منزله في بلدة برقا. وقد عاين رجال المباحث الجنائية المكان وتبيّن لهم ان الوفاة حدثت قبل يوم كامل على الاقل. لم تُعرف بعد اسباب الوفاة لكن يرجح كما هي الحال في هذه البلدة الشمالية المنكوبة بأعمال الثأر أن يكون العنداري ضحية جديدة من ضحايا المسلسل الدموي ولو انه لا ينتمي الى احدى العائلات الكبيرة المتناحرة في ما بينها. التحقيق جار لجلاء الحقيقة على أمل أن تكون خاتمة اعمال العنف في هذه البلدة اللبنانية العريقة التي تتمنى لها اسرة "صدى لبنان" الخلاص السريع من هذه المحنة وتحكيم العقل والقانون في حلّ الخلافات بين أهلها"

(صحيفة "صدى لبنان"، السبت 27 نيسان 1957)

اذا كان نيشان هوفزيب دافيديان ومواطنه ومنافسه نازاريت ورثا مهنة "التصوير الشمسي" التي جاء بها آباؤهما من اسطنبول في طريق فرارهم المتعجل والمأسوي الى لبنان، فان خورخي، واسمه الحقيقي جرجس العنداري، عاد بهواية التصوير الداخلي من مونتيفيديو البعيدة. وقد أخبر احد الاشخاص القلائل الذين تبادل معهم الاحاديث هنا انه تعلم المهنة على يد مصور يهودي الماني فرّ الى بوليفيا هربا من الاضطهاد النازي في آخر الثلاثينات. قلّة في البلدة اليوم يتذكرون خورخي، هذا الشاب الكئيب الوجه، طويله، المنفوش الشعر دائما كأن ما كان يشغله أهم بكثير من العناية بتفاهات مثل تسريح الشعر او حلاقة الذقن او الاستحمام. قلة يعرفون عنه أكثر من نَسَبه العام ومن تبقى على قيد الحياة من اقاربه البعيدين. ذلك انه وجد ميتا بعد أقل من عام واحد على عودته، وكان رجع في العام 1956، في عزّ المشاكل التي يبدو انها لم تصل

الى مسامعه هناك ولم تؤثر فيه كثيرا هنا. لكن الواقع انه وُجد ميتا ولا دماء تسيل منه في "الاستديو" المرتجل الذي أعدّه في غرفة داخل حديقة صغيرة مزروعة بالليمون وراء بيته العائلي الذي انتظر عودته. لم يكن خورخي يقبل ان يحمل الآلة كالمصورين الأرمن ويدور بها على الراغبين بل كان ينتظر الزبائن في غرفته. وقد جاءه البعض منهم في البداية لكن الجلوس أمامه كان مضنيا وأقرب الى الجلوس أمام الرسّام اليدوي، اذ كان يتنقل بين عين العدسة والزبون عدداً لا يحصى من المرات تحسيناً للجلسة ولتفاصيل صغيرة. وهو يوصي الجالس امامه دون توقف ان لا يحرك ساكنا، الا انه يحرك له ذقنه يمينا او يسارا بيده، وينفض عن سترته ما علق بها او يأتي بمشط يضرب به خصلة شعر متمردة... أرهق عذاب الجلوس الراغبين في أخذ صورة فامتنعوا عن الذهاب اليه. وهو اذ عاد من مونتيفيديو في ظروف لم يعرفها احد، ولو قيل على جري عادة اكتشاف الاسرار في كل سلوك غريب، انه هرب من امرأة مغرمة به خانها وهي تطارده لتنتقم منه، فقد امضى القسم الاكبر من وقته داخل هذا الاستديو بحيث لم يتعرف به سوى نفر قليل من الجيران المقرّبين. ونادرا ما كان يخرج حتى اذا لعلع الرصاص في الشوارع القريبة منه. وقد سرت اخبار أنه انتحر او أن امرأة دسّت له السمّ. عالقة عليه حكاية النساء ولو ان مظهره لا يوحي البتة بأنه من أهل الغواية والمغامرات. المهم ان الذين اكتشفوه ممدّداً فوق ارض الغرفة، أرسلوا في طلب نيشان دافيديان. كانت آلة التصوير مرفوعة على ركيزة من ثلاث قوائم وكانت عدّة الانارة كاملة ومضاءة من كل الجوانب في هذه الغرفة الصغيرة. بعد ان سحبوا الميت، انكبّ نيشان على تفحص ما كانت تحتويه الغرفة فجمع الصور التي وجدها في كيس. وعندما وصل الى آلة التصوير، واذ وجد نفسه دون رقابة احد، فتحها وأخرج الفيلم ليقفل عائدا الى محله حيث بدأ بتظهيره آملا في ان يقع على سر ما من اسرار هذا المصور الغريب الاطوار. لكن نيشان راح ايضا يتفحص صور خورخي التي كانت في كيسه فاذا بها مجموعة كاملة من صور النساء، بورتريهات لا تحصى. رفع نيشان حاجبيه مستغربا. الغالبية لامرأة وحدها، هي نفسها، واحيانا صور لامرأتين، نساء وأقمشة وسرير. السرير نفسه. لماذا كل هذا التبذير بالافلام والورق؟ تساءل نيشان الحريص على ضبط مصاريفه. النساء في الصور كن عاريات لكن عوراتهن دائما مستورة بالقماش، الحرير او الساتان. قطع قماش هي نفسها ايضا يتبدل استخدامها من قبل المرأة، اذ تضعها تارة حول نهديها، او اذا اخفت نهديها بوضعية جلوسها، رمتها على كتفها بدلال غير مفتعل. ما من صورة تشبه الاخرى تماما. كانت وضعية المرأة تتغير. "بوزات" متنوعة فيها من الاثارة الناعمة، ومن النظرات ما لا يستفزّ احدا. القماش تتغير وظائفه. كانت مجموعة خورخي اشبه بالتمرين المتكرر وصولا الى اللقطة المثالية التي بالطبع لم يهتد اليها نيشان دافيديان. تساءل فقط إن كانت النساء الظاهرات في صور خورخي العنداري من البلدة ام غريبات عنها، أم انها صور التقطها في مونتيفيديو البعيدة حيث خيّل

لنيشان ان هناك مجال حرية اوسع كي تقف الفتيات امام المصور بهذا القدر من السهولة التي لم يشعر انها متوافرة هنا. في اليوم التالي عمد نيشان الى تظهير الفيلم الذي وجده داخل آلة خورخي المرفوعة على السيبة الثلاثية الارجل في الاستديو. كان من الواضح ان للرجل اسلوباً غريباً ونزعة الى تبذير الافلام السلبية، اذ سرعان ما تبين لنيشان أن كل ما التقطه خورخي من صور قبل وفاته، كانت مجرد صور ذاتية له وحده، ما يقارب العشرين صورة، اوتوبورتريه، لخورخي العنداري كان يصعب من نظرة أولى تبيُّن الفارق بينها لفرط تشابهها وهو فيها جميعها جالس على كرسي يتطلع مباشرة في العدسة، لا أكثر ولا أقل. وادرك نيشان ان خورخي كان يحضر اللقطة ويسرع الى الجلوس. تمعن نيشان في الصور ففهم ان الصور في الترتيب الذي التقطت به كانت تظهر التعب يزداد على وجه خورخي. صورة بعد صورة، كانت نظراته تتيه اكثر فأكثر وقسمات وجهه تنقبض كأنه يعاني ألما يزداد مرة بعد مرة. فخلص نيشان الى القول ان هذا المصور الشاب كان يعرف انه مقبل على الموت وقد حاول قدر الامكان تثبيت آخر لحظات حياته، مما دفع الارمني الى الاستنتاج ان خورخي إما انتحر بالسم وإما ان احدا دس له هذا السم، وعندما ادرك انه صار في النزاع الاخير سعى الى تصوير موته وخصوصا انه يرتدي في الصور الثياب نفسها التي كانت عليه ساعة وجدوه ملقى على الكرسي الذي كان يدعو زبائنه للجلوس عليه. تقاسم اقاربه محتويات البيت وحاول أحدهم في ما بعد بيع عدة التصوير لنيشان الذي رفض. ليس فقط لانه لم يكن في حاجة اليها في شغله بل لان شعورا غريبا سيطر عليه من انه يجب ألا يقترب من حوائج خورخي فهو شعر ان فيها لعنة ربما تنتقل اليه.

المزواج يقع في الشرك!

ادعت م. ن. امام القاضي المنفرد في طرابلس على زوجها ش. س، 54 عاما، بأنه يحاول الزواج مرة ثانية خلافا لقانون الاحوال الشخصية لغير المحمديين، وعن طريق الحيلة. وبالفعل ضبطت عناصر الشرطة القضائية المدعو ش. س. بالجرم المشهود في قرية عبرا النائية

وكان قد أقنع هناك كاهنا بترؤس حفل زفافه على الفتاة ت. ف. وهي تصغره بخمسة وعشرين عاما. وعند وصول رجال الشرطة حاول الفرار لكنه تعثر بفستان العروس فوقع ارضا والقي القبض عليه".

("التلغراف"، 10 تشرين الاول 1959)

لم يعرف أحد كيف كان لتبرير غيابه المستديم عن البيت يقنع زوجته بأنه كان يسعى وراء اشغال تدرّ عليه الربح. لكن العارفين بالمرأة، وكانت قوية الشكيمة ومفتّحة العينين، يقولون انه لم يكن يخفاها شيء من مشاغل زوجها الحقيقية. لكنها كانت في قرارة نفسها تحبه، وتريد له الغياب عن البلدة ضنا منها بحياته ولو اجمع الناس على انها ساذجة يسهل الضحك عليها. كان شفيق يخون زوجته وهي راضية. تفرح لعودته وتسهّل له الانطلاق من جديد. تغسل ثيابه وتطعمه. لا بل يقول البعض انها كانت تظهر ايضا فخورة بالنجاح الذي يحققه بين النساء وأن ابتسامة رضا كانت ترتسم على وجهها، ولا يمكن الخطأ في تقديرها عندما تقدّم اليها امرأة على باب فرن سميح همسا نصيحة مفادها ان تنتبه على زوجها. وكانت تسأل عن تفاصيل مغامراته، تريد معرفة كل شيء، الاسماء والامكنة ودرجة جمال عشيقاته، لكنها لم تكن تواجهه بها. كان يهمها قبل كل شيء ان لا يسلك طريق شقيقه فريد. فريد بدوي السمعاني، "خوخ الدب" الذي له في كل شرّ جولة. هي نفسها لم تكن تصدّق انهما شقيقان الا عندما تنظر الى وجه زوجها فترى التؤلولة على خده الايسر. في المكان نفسه على خدّ فريد. كان شفيق يحب الكيف والنساء وهو لا بد اكتشف اقصر الطرق الى قلوبهن. الفرح والضحك. كان يحب "الجلسات" كما يسميها. في نفسه اندفاع لا يكلّ لاعادة تشكيل المشهد نفسه كل يكون فيه ذلك متيسّراً: تجهيز مائدة في احد المطاعم الريفية او المطلة على نهر او بحر، مفروشة بالمازات الملونة كالحديقة. فالأكل منظر كما كان يقول مقتضبا وهو يتأمل صحون المازة الشهية المرصوفة تنتظر المدعوّين، وهم شلّة من الاصدقاء ليس بينهم واحد من برقا. يحضر قبلهم الى المطعم ليضع لمسته على المأدبة. كان يختار اصدقاءه من اماكن بعيدة يعرف انهم لن يذيعوا اخباره حيث يجب ألا تصل. وشلّته لا تكتمل الا بوجود النساء ولو انهنّ يكنّ عموما أقل عددا من الرجال حول الطاولة. وهن نساء غريبات متحررات اللسان يدخن النارجيلة ويشربن العرق، لا بد انهن من اصول وضيعة، لا يعرف الا هو كيف يخرجهن من اوكارهن. وكان يحرص عموما على اصطحاب ضارب عود صوته جميل لا يستحثه على الغناء من البداية بل ينتظر ان تلعب الخمرة بالرؤوس قليلا فيُخرج

له العود من ثوبه القماش ويسلّمه اياه بيده لتبدأ الحفلة. وهو يمضي في الواقع نصف الجلسة واقفا بالرغم من وجود الخدم في المطعم، لا يستطيع منع نفسه من خدمة اصدقائه. هذا كان مثاله، نموذجه الذي لا يبلى، يعمل دون انقطاع الى اعادة تأليفه كل يوم. كل حركته قبل الظهر وبعده، كل نشاطه اليومي يمكن اختصاره في انه سعي لـ"تركيب الطاولة" في العشاء. والحقيقة أن شفيق لم يكن يأكل بقدر ما كان يتمتع بمنظر الآخرين وهم يأكلون. فالأكل منظرٌ ايضا، أي منظر الصحون المفروشة على الطاولة، ومنظر الذين يأكلون، يلقّمهم ويطلب منهم تذوق الاصناف الممدودة على الطاولة بعنايته. فالعشاء، ولو كان في المطعم، لا يخلو من صنف جاء به شخصيا. كأن يوصي على "الشنكليشة" من رحبة، القرية التي يعرفها مشهورة بصناعته. او البصل الأخضر يشتريه من بائع يشكّه خلف بيته ويسقيه ماء نظيفا. كان لا يعبأ بما يحدث في البلدة. واذا اضطر الى الادلاء بدلوه كان يقول انه يحب الجميع والجميع اصحابه وان الحياة يومان يجب الاستفادة منها. لم يكن يعكر صفاء تمتعه الا تذكره اليومي لاندفاع شقيقه فريد الى التحديات والسلاح، وبقي يتوقع خبر مقتله الى أن جاءه وهو في ترحاله هذا بين بلدات جبل لبنان. اغرورقت عيناه بالدموع وقال انه كان ينتظر النبأ من زمان. وسأل اذا كان فريد تعذب فقيل له بل مات في لحظته فتعزّى قليلا وقفل راجعا الى أهله. كان مقتل شقيقه فريد هزيمة لحياته. دعاه داعي الثأر فخرج مع اقاربه يربطون طريقا او ينصبون كمينا لكنهم لم يوفّقوا، وصار يضع مسدسا على خصره ويبرر ذلك بانه "مُصاب"، اي ان مصيبة وقعت عليه بمقتل أخيه. وكان حمله المسدس مجرد اشارة الى انه موافق على مبدأ الثأر ولو انه لا يسلك أياً من الدروب المؤدية اليه. انقطع عن رفاقه حوالى الشهر... وعاد. عاد شيئا فشيئا الى سيرته السابقة. ويتبيّن لمن يعرفه عن كثب ان دورانه الفعلي كان حول النساء، وأن تنظيم الجلسات ليس سوى طعم لاصطيادهن، وهو اصاب في هذا المضمار نجاحات لم يكن يتوقعها، واستمر سجله في التحسّن بالرغم من تقدمه في السن. كان هو يكبر، وطرائده من الجنس اللطيف تصغر. وكانت فيه بعض العيوب كتعمده غمز اصدقائه على النساء في وجودهن، في تلميح منه الى قدرته على اجتذابهن وايقاعهن في شباكه. كما كان يُكثر من حركات اليدين والوجه ذات الدلالة على قدرته الجنسية الجامحة، وكان اشتهر بضربه يديه على صدره بسرعة، معبّراً عن حاجته الملحة الى مضاجعة المرأة، وأنه لكان أقدم على ذلك لولا وجود الاصدقاء. كانت ترتسم على شفاه معارفه الذي يستعرض أمامهم طموحاته الجنسية، ابتسامة فاترة تخفي تساهلا وادعاء بتصديق بطولاته. الى ان صدّق نفسه وبدأ محاصرة فتاة باغراءاته فوجد لديها ما يحبه من بداية تجاوب. لكن ابنة الريف الجميلة والواقعية هذه وضعت عليه شرطها الأخير بأن يتزوجها قبل أن تستسلم له وهو يضرب صدره بقبضتيه تحفزا. كان أخفى عنها سيرة حياته كاملة وكانت تحسن استدراجه بغريزة تتقنها النساء حتى اللواتي لم يتعلمن الكثير في المدرسة. وقد سبقته في الاعداد والمراوغة.

تُسلّمه يدها، تترك يده تداعب فخذها لتنهار فجأة بالبكاء قائلة انها مظلومة وان الرجال يحاولون استغلال براءتها، وهو مثله مثل غيره، طامع بها لرميها في ما بعد. كان خائفا من فقدانها، فراحت تراوده فكرة عقد زواجه عليها في منأى حتى عن رفاقه. لكن الفتاة تحدثت، فوصل المشروع الى الجاسوس الذي كانت زوجته وضعته له بين اصدقائه. اتفقت معه على ابلاغها فقط اذا ما اقدم زوجها على ما يعرّض حياته او بيته للبهدلة او للخطر. وهكذا صار. أخبرها ان زوجها مصمم على الزواج يوم الاحد في عبرا. وصلت وسط الزغاريد، ترجلت من سيارة الاجرة، اقتربت منه وقالت: "قم الى البيت" ثم نظرت باستخفاف الى عروسه وسألتها: "هل جرّبته على الأقل؟".

تملّك الكنيسة والمقبرة!

كلّف كاهن بلدة كفربيضا ومجلس رعيتها المحامي الالمعي الاستاذ نسيب السودا رفع دعوى لدى محكمة الجنايات في الشمال بحق المدعو ف. ر. بعدما تبين ان هذا الاخير قد قام بتزوير او المشاركة في تزوير مستندات تعطيه حق ملكية العقار الذي تقوم عليه كنيسة البلدة، مار يوسف الظهور، ومقبرة البلدة القائمة خلفها وحيث رفات ابنائها منذ مئات السنين. وقد أفادت المعلومات أن المتهم خارج الاراضي اللبنانية في الوقت الحاضر وقد ابلغته المحكمة بالحضور لصقا.

("النفير"، 12 أيلول 1961)

كأن حياته كلها واقفة على خيط الحظ الرفيع. سنة 1956، كاد يصيب الجائزة الكبرى في سحب اليانصيب الوطني اللبناني الخاص برأس السنة بفارق رقم واحد، علما انه يشيّع دائما

ان القيّمين على اليانصيب يزوّرون النتائج ويفبركونها سلفا لصالح اقاربهم ومن يتقاسمون معهم المال. زعران، يقول، وهو يمطّ الالف ويهزّ رأسه بلهجة الواثق. في لعبة الروليت، في كازينو مدينة نيس الفرنسية حيث كان في ضيافة احد الاغنياء المعطائين الذين يتسلون بأخباره ولو انهم يعرفونها كاذبة، ويستفيدون من خبرته في استمالة النساء، تقفز الكرة الحديد الى الرقم 14 بعد ان يكون المتحلقون حول الطاولة اعتقدوا جميعهم انها استقرت في الـ 13 التي راهن عليها بصولده. تقفز فقط لتحرمه من الربح الوفير.

. انهم مافيا، يضعون مغنطيسا تحت طاولة الروليت تجذب الطابة الحديد الى حيث يريدونها. ليس مكتوبا لي الراحة...

ويقصد بذلك ان يجمع ما يكفيه من المال ليستقر. في كراكاس، فنزويلا، وفي سباق الكلاب، هذا هو ايضا مصير الحيوان الذي يراهن عليه، يتصدر السباق بمسافة كبيرة عن رفاقه، وفجأة يتوقف، ينظر خلفه لسبب لا يفهمه أحد في الامتار الاخيرة، كأنه اشتاق لرفاقه لا يريد الابتعاد عنهم، ثم يضع رأسه في الرمل ويمرمغه فتتجاوزه الكلاب ويحل أخيرا في الترتيب.

. من يراهن على كلب؟

هو يطرح السؤال على نفسه. وفي سباق الخيل في بيروت يخسر "على الصورة".

. والله العظيم ان الجوكي "شدّ" الحصان، رأيته بأم العين.

ولأنه لبّى دعوة صديق الى فنجان قهوة صبيحة ذات يوم وهو متوجه الى الدائرة العقارية تأخر ربع ساعة فقط عن ابرام صفقة العمر، قطعة أرض في منطقة التلّ في طرابلس كانت ستغنيه وتغني ولد ولده. لم يرو في حياته كلها نجاحا واحدا. مثله مثل لاعبي القمار الذين لا يخبرونك الا فصول حظهم العاثر. القمار خسارة. ومع ذلك كان يعيش أميرا، أنيقا، مهفهفا، سلسلة ذهب عريضة في عنقه وساعة ذهب ثمينة في معصمه، يقصد باستمرار طبيب الاسنان ويعتني بأظافره، وكان من اول الذين صبغوا شعورهم خوفا من الشيب الوراثي المبكر، وهو يرتعب من تساقط شعره واحتمال الصلع. لا يتوقف عن الترحال في ارض الله الواسعة. استهلك ثلاثة جوازات سفر بكامل صفحاتها، احتفظ بها وربطها معا، يعرضها على الملأ، تأشيرة وراء تأشيرة، من كوستاريكا الى غينيا الاستوائية. كان يعود احيانا مكسور الجناح الى البلدة، مفلساً، اذا أخرج جيوبه لا يسقط منها ليرة واحدة. ينام عند قريب له يتحمله على مضض. لكن سرعان ما يختفي، تتناهى الى مسامعه عبارات لا يحبها من ان "الجوّ ليس نظيفا في البلدة" أو "الله يسترنا من هذين اليومين"... فيعرف ان اخبار القتل والثأر ستعود. قُطموا على القتل، يقول عنهم بشيء من الشفقة ويبتعد من جديد. يتدبّر خطة جديدة، وجهة جديدة. كأنه يشتمّ المال عن بعد. يعرف بالمال ما ان يفيض عن اصحابه. تصل اليه أخبار من يربح في القمار او يوفّق في تجارة القمح او الالماس، فيحضر عند الرابح والمال لا يزال طازجا. يحضر بأخباره ونكاته.

. شممتَ الرائحة؟

يسألونه ضاحكين.

لا يطلب لكنه ينال. يعرف الجاليات اللبنانية عن ظهر قلب، يفضل من بينهم بطبيعة الحال الاغنياء اذا كانوا لا يزالون شبانا، ولاعبي القمار اذا كانوا متقدمين في السن. يأمل في كرم الاغنياء الشباب الراغبين في النساء وغباء المقامرين، لكنه أمضى حياته تقريبا يأخذ من الأغنياء مقابل الظرافة والنساء ليعطي المقامرين مقابل لذة غامضة يوفرونها له. لذة الخسارة. لكنه "ينقطع" احيانا في الغربة. تنضب امواله فجأة بعد ليلة ليلاء لا يمكنه التوقف فيها عن الشراب والرقص على الطاولات برفقة سمراء تغوي الشيطان في سان دومنغو او في هافانا. هناك طارد دون جدوى عمة قيل له انها وصلت خطأ الى الجزيرة وهي متجهة الى الولايات المتحدة لكنها بقيت فيها وحصّلت ثروة كبيرة من زراعة التبغ. لكنه لا يعدم حيلة. ينزل في مطار ليما مثلا، يطلب دليل الهاتف ويبحث في حرف الخاء عن عائلة خوري لتأكده من ان آل الخوري هؤلاء موجودون في كل انحاء العالم. فلا يتردد في الاتصال باسم يبدو له متميزا، وبعد محادثة قصيرة يقول فيها انه أضطر لترك بلدته على عجل بسبب الاحداث الدامية التي تدور فيها، وان اقارب له قتلوا هناك في حادثة برج الهوا، وان اعمال الثأر دائرة من كل فجّ عميق، وأنه وصل الى عاصمة البيرو هربا ولا يعرف كيف يتدبر أمره. لكنه يتدبر أمره جيدا اذ يسحرهم بكلامه واخباره. لكنه ما أن يشتم رائحة كفه حتى يعنّ على باله لعب البوكر من جديد. لا أحد يعرف كيف يهتدي الى اللبنانيين الذين لا يشفون من محنة اللعب ما وراء البحار، فيبارزهم بشرب التاكيلا ومحاولات الخداع وايهام الخصم وتهريبه، حتى وُفّق ذات ليلة وحصد المال كله عن الطاولة، فاغتاظ احدهم وكان من بلدة قريبة من برقا، والذي بعد ان خسر كل ما في جيوبه اخرج سندات ملكية لبنانية وطلب مقابلها مالا منه فتفحصها قليلا ووجد ان مساحتها كبيرة جدا فاعطاه ما اعتبره بينه وبين نفسه جزءا يسيرا من ثمنها. احتفظ بها في حقيبة ثيابه وكاد ينساها، الى ان حطّت به الايام من جديد فعاد الى البلدة وكانت الحوادث قد هدأت وعاد الناس الى اشغالهم. كان مفلسا فأبرز ملكيته الجديدة وفي نيته بيعها والاقلاع بالمال من جديد. وجد من يشتريها دون التدقيق فيها كثيرا لأنه عرضها بسعر بخس جدا. خاف الشاري أن يغيّر رأيه فعاجله بالدفع طالبا منه توقيع عقد البيع عند كاتب العدل ابراما للصفقة قبل نقل الملكية الى صاحبها الجديد على الصحيفة العقارية. وانطلق من جديد في دنيا الله الواسعة.

XV

اختار محسن حجر الرحا، حجر معصرة الزيتون المجاورة. ذات يوم، مع بداية إقامة المتاريس، تجمع ابناء الحارة حتى تمكنوا من دفع الحجر الضخم واخراجه الى الطريق لايقافه له متراسا. مع ذلك لم يقترب منه محسن قبل أن ينظفوه من زيبار الزيتون، في تقسيم للعمل يقضي بأن المقاتل لا ينحدر الى اشغال يدوية لأنه متفرغ للسلاح والمواجهة. كما ان محسن لم يتوقف في ما بعد، عندما جلس وراءه طوال أيام الثورة بين نيسان وايلول 1958، عن مطاردة البقع السوداء الصغيرة التي بقيت عالقة فيه من مخلفات الزيتون بواسطة سكين الجيب الذي لم يكن يفارقه، بشفراته السبع وطقّاته السبع. سدّ دائرة الحجر الداخلية بثلاثة اكياس صغيرة من الرمل ولم يترك سوى "مرماية" واحدة يُخرج منها فوّهة بندقيته "المعدّل طويل" ويصوّب نظره منها الى المتاريس المقابلة. في البداية أعطوه بندقية كانوا يسمونها "موديل" لكنه لم يرتح اليها.

. لا تحصر جيدا.

يقول ذلك دون ان يكلّف نفسه بطبيعة الحال شرح معنى هذا الفعل الجديد علينا والذي لا نعرف من اين استقاه. وربما يكون ابتكره في اللحظة عينها التي صوب فيها "الموديل" ولم يصب الهدف فما كان امامه سوى وضع الخطأ في البندقية.

يوم توافرت لهم بندقية "معدل طويل" كالتي طالب بها اعطوه اياها وقالوا ممازحين:

. لم يعد امامك من عذر...

وبالفعل اكتملت عدّته، لم يبق عليه سوى اظهار مهارته. وفي ما يشبه الطقوس التحضيرية، أمسك البندقية بيده ورفعها عموديا متفحصا ادنى تفاصيلها ثم صوّب بها الى السماء قبل ان يجلس على كرسيه ويدخلها في مرمايته. يروح يحنو عليها اولا. وجنته تداعب حديدها. يُغمض عينه اليسرى ويتطلع من خلال "النيشان" الى الجهة المقابلة. اعتقدناه بداية الامر تمريناً على بياض. قلنا ان المقاتل "يأخذ هوى" سلاحه. لكنه ثابر على مراسه هذا، وكان يمضي اوقاتا طويلة ومتقطعة في هذه العملية الغامضة والتي راحت تضجرنا لانها لا تفضي الى فعل. يثابر ولا نفهم لماذا يصوّب محسن ويصوّب ولا يطلق النار. لاحظنا فقط انه كان يهزّ رأسه متوعّدا عند انتهاء نوبة التصويب، مؤجلا فعلته الكبيرة الى وقت آخر، ربما يكون قريباً ومطمئنا نفسه، على ما يظهر، ان معانقته البندقية هذا الوقت الطويل لم تذهب سدى، ولو انها تركت على وجنته اليمنى ثلما ورديا يبقى ظاهرا لبعض الوقت.

كان محسن بطل حجر الطاحون. نعرف مع ذلك انه يتقاسم متراسه مع شقيقه، هو في النهار وحليم في الليل. كان محسن محاربنا في الخط الامامي، نتابع حربه ولو عن بعد، فنحن لا نجرؤ على الاقتراب من حيث يجلس لاعتقادنا انه في مرمى النار. يسلّم شقيقه المتراس في الساعة الثامنة، ساعة العشاء تماما. يحرص، قبل أن يسلّمه، على الانحناء مرة فوق بندقيته "المعدّل طويل"، ليصوّب مرة أخيرة في اتجاه المتاريس المقابلة. مجرد تصويب كعادته المملة.

يأخذ معه بندقيته وكرسيّه القش الذي يضع عليه طرّاحة تقي بنطلونه الاتساخ. لا يجلس مرة قبل أن ينفض الغبار المتجمّع على الكرسي.

هكذا يفعل في المتراس وفي البيت او في المقهى. يحرص على نظافة البندقية وعلى ثنية البنطلون وياقة القميص الناصعة. يحمّل النادل في المقهى ما جاءه به ليردّه الى المطبخ اذا اشتبه بلطخة صغيرة على كوب الماء او برائحة لا تشتمّها الا الانوف الطويلة من بقايا طفيفة لمسحوق الجلي في فنجان القهوة. يتسلّم شقيقه المتراس دون ان يتبادلا كلاما كثيرا. صودف ان شاهدنا احيانا وصول حليم، في الايام القليلة التي كنا نتمرد فيها على قرار العودة باكرا الى البيت. لا يتبادلان ولو كلمة واحدة. ربما "همدرة" خفيضة لا تصل الى مسامعنا. كما ان أحدهما لا يتسلّم من الآخر شيئا، يحمل محسن كرسيه وبندقيته ويذهب بهما دون ان ينظر الى الوراء مرة واحدة.

يحارب نظيفا جالسا، محسن.

القتال من وراء المتراس يكون وقوفا على العموم. وإن يكن الوقوف لم يناسب مقاتلاً آخر في جبهتنا. ابو بشير، الذي خلقه الله برجل اقصر من الاخرى. فكان يصعب عليه الاستقامة وتصويب سلاحه في آن واحد وقد نقل عنه أنه انبرى ذات يوم الى مناشدة رفاقه قاطعاً وعداً لهم أن:

. هاتوا كرسي (ليجلس عليه او ليسند عليه رجله القصيرة) وخذوا قتلى!...

فأضحك الرجال من رفاق متراسه طويلا بينما الرصاص كان ينهمر عليهم بغزارة.

محسن يحارب جالسا لغرض لم ندركه في البداية. نحن لم نكن بالطبع نعرف الكثير مما يحدث. قرأنا بعد سنوات، في صحيفة قديمة، تصريحا لمسؤول اميركي يقول فيه ما معناه ان جميع الذين ناصروا "حلف بغداد" كانوا مقاتلين في سبيل الحرية في الشرق الاوسط ومن ابطال التصدي للشيوعية. ومنهم المقاتلون في بلدتنا الواقفون في جانب الحكومة، اي اولاد الحارة التحتا انفسهم الذين كانوا يقتّرون في استهلاك الطلقات من بنادق "المعدّل طويل" التي ارسلتها اليهم الحكومة محملة على ظهور البغال، ومن بينهم محسن الواقف خلف حجر الرحا.

كنا في الحقيقة أحرص على حريتنا، نسرح في الأزقة بعد ان أقفل مدير المدرسة بابها بسلسلة من حديد وانصرف الى بلدته البعيدة في قضاء البترون فور اندلاع اعمال العنف. ما كان ليبقى بيننا، فهو عضو مؤسّس في الحزب الاشتراكي، مسيحي واشتراكي! اقتنع بالاشتراكية من فرط ما قرأ من كتب أفسدت عقله، كما قال لنا عنه بواب المدرسة ذو اليد اليسرى المقطوعة

الأصابع. لم نحب المدرسة يوما. ضربٌ على الأيدي بالمساطر الخشبية من جهتها الحادة، وبردٌ قارس ولغةٌ فرنسية. عبثا كنا نحاول تدجين مخارج اصواتها وتفادي افخاخ الاملاء التي لا تحصى فيها.

اقتفينا أثر البواب. كان يلعب الورق، يمسكه بطريقة عجيبة بيد ونصف اليد، يفضّله على السهر في المتاريس. اطمأنينا الى انه غارق في لعبة تفوح منها الشتائم المتبادلة ودخان السجائر. تسلقنا الجدار بسهولة، دسنا على اكتاف بعضنا البعض وقفزنا الى داخل الملعب. كتبنا الشنائع بكل ما وجدناه من اصابع طبشور. أكلنا مرطبان اللفت المكبوس الذي نسيه الناظر في مكتبه، وكان جلبه من البيت ليكسر به شيئا من جوعه ايام الدوام الطويل. كان ثأرنا مشهوداً. بوّلنا واقفين على الطاولات. مزّقنا سجل العلامات. محونا أثره الى الأبد. أحرقنا صفحاته ورميناها في الجورة الصحية، وضربنا عليها السيفون. قرعنا الجرس قبل ان ننسحب منتصرين، فاجتمع على صوته بعض أهل الحارة. رجعنا نسرح في الازقّة، عطلة الى أجل غير مسمّى، حتى تنتهي الثورة. تلك كانت فرحتنا على ما اعتقد بالثورة التي انتهت بنزول جنود البحرية الاميركية على شواطئ لبنان. كنا نأمل، وبعض منا يجزم انها ستطول وتطول هذه الثورة الى ان تخرج المدرسة من حياتنا الى الابد.

نتفقد الجبهة من متراس الى متراس. ننقل اخبارا لا نُكلّف بنقلها، نتجمّع قريبا من محسن الجالس على كرسيه القش خلف حجر الرحا. نطل برؤوسنا من زاوية الزقاق، ينتبه الى ثرثرتنا، يطردنا فنسكت ونختفي لكن نبقى في مواقعنا. نخاف عندما يسلّم شقيقه المتراس ساعة هبوط الليل. نخاف ان يستغلّ الأعداء لحظة الفراغ والاهمال هذه فيشنون هجومهم في الغفلة.

نخاف ايضا عندما يقف عن كرسيه، محسن، لدقيقة واحدة فقط، يحرّر خلالها خصيتيه من طول جلوسه فوقهما، فيُدخل يده عميقا في جيبه اليمين ويروح ينقلهما من جهة الى جهة من سرواله ليريحهما. نخاف ايضا عندما يسند بندقيته على حجر الرحا ويبدأ ببطء "شرق" الشورباء بالخضر او "اللبنيّة"، فيما البخار يتصاعد من صحنه. كان ينفخ على الملعقة ويشرق بصوت عال. كلما كان الأكل ساخنا، كان الصوت الذي يخرجه محسن من بين شفتيه واسنانه عاليا، حتى اعتقدنا احيانا انه قد يصل الى مسامع الواقفين في المتراس المقابل، فيتحينون الفرصة لاطلاق النار في اتجاهنا، بينما مقاتلنا الاول يتناول الغداء شرقا... تأتيه كاترين بالأكل ساخنا عند الظهر تماما، اذا تأخرت يناديها:

. كاترين!

نداء واحد، فتسرع على دفعتين حاملة كل ما يلزم. صحن الزيتون والمملحة والمزيتة ورغيف الخبز الموسّع. وفي الردّة الثانية صحن الفاصولياء باللحم والبيض المقلي. كان يحب البيض المقلي. يعصر فوقه الحامض ويرش عليه الفلفل الاحمر.

سلّم زوجته شؤون الدكان وذهب يحارب خلف حجر الرحا، على بعد مئة متر من بيته ودكانه. كاترين لا تتذمر اذ ما الفائدة منه ومن جلوسه خلف جارور الدكان طوال النهار. وطأة الرجل ثقيلة. اذا طلب الزبون فحما، صرخ:

. كاترين!

فتهرع لتلبي الزبون لان محسن لا يقبل ان تتسخ يداه بالفحم، اذا جاء من يشتري كازا صرخ محسن:

. كاترين!

لا يجوز ان تعلق رائحة الكاز بثيابه النظيفة. واذا دفع الشاري له اوراقا مالية متسخة ومجعلكة، نظر شذرا شامرا انفه الى حاملها وسأله:

. هل اعطيتها للكلب ليعلكها؟

ثم يمسكها مضطرا من طرف اصابعه بكل احتقار ويسارع الى رميها في الجارور كأنها تحمل مرضا معديا.

ليس مريضا محسن لكنه يخاف الرطوبة، يخاف الليل. وصفوا له ان يربط حزاما من الصوف على بطنه يحمي به معدته عندما "تسحّر" الدنيا بعد منتصف الليل. شقيقه حليم أصغر منه سنّا، يتحمّل السهر والرطوبة. حاول محسن في الايام الاولى تسلّم نوبة الليل. هو الاخ الاكبر والليل خطير. قد يتسللون الى جهتنا في الليل، ويفضّل ان يكون حاضرا شخصيا في تلك اللحظة. لا يريد المخاطرة بشقيقه الاصغر. لكنه لم يتحمل البقاء خارجا في الهواء الطلق. صار يمضي الليل وهو يُخرج الهواء من جوفه. بدا كأنه مصنع للهواء فيريّح من اسفل او يتدشّى من اعلى. وكان الفعلان مشهودين لا يحاول محسن او لا يمكنه كتمهما، فتُسمع موسيقاه عن بعد خصوصا في الليل البهيم الساكن.

محسن يحارب في النهار.

النهار مُضجر. في الليل كانت التوصية الدائمة للرجال الساهرين في المتاريس ان يطلقوا طلقات تحذيرية ليعرف الاخصام اننا جاهزون لاستقبالهم بالنار، كي لا تسوّل لهم نفسهم الاقتراب من خطوطنا. في النهار لا يحدث الكثير. يحدث تبادل الشتائم كسرا للضجر ليس إلاّ. هم يبدأون عادة. اخصامنا في الطرف المقابل ضجورون أكثر منا على الارجح، من طول الوقوف خلف متاريسهم. يأتي الصوت البادئ من العمارة بثلاث طبقات، من خلف أكياس الرمل التي تسدّ شبابيكها المخلّعة. احيانا يهدأ الرصاص. يوفرونه لأنه كان عزيزا ويصل اليهم هم ايضا بالتقتير. يصلهم من سوريا، سلاحهم شرقي وسلاحنا غربي. يسندون الاسلحة ويبدأون

تبادل الشتائم. شتائم بحدة الرصاص. صراخ يصل الى مسامع الاخصام واحيانا لا يصل. تمتلئ المنطقة الفاصلة بين الحارتين بالشتائم قبل ان يطغى انفجار القنابل اليدوية ودوي رشاشات الـ 24 x 29 على الاصوات المنهكة من سهر الليالي الطوال وتدخين السجائر الملفوفة على اليد.

ينادي الرجل محسن باسمه. يعرف محسن من هو الواقف في المتراس قبالته. يناديه. يعرفه وقيل ان بينهما قربى بعيدة. يهز له رأسه عندما يبدأ بالصراخ. "يتملّح له" كما يقولون. حتى انه يبتسم قليلا لكن يحرص ان لا يجيب على النداء. يتحمل التحدي، فالمناجاة تبدأ بالتحدي، نداء مفاجئ:

. أخرج يا محسن إن كنت رجلا...

وبعد قليل، صوت آخر:

. أطلّ برأسك يا جبان !

يتحمل السبّ على عائلته وسلالته وصولا الى شتم القديسين، لكنهم لا يجرؤون. لم يجرؤوا مرة واحدة على شتم العذراء القائمة كنيستها في حارتنا. كانوا يشتمون زعيم عائلتنا. يصلون حتى الى نبش الاموات العزيزين علينا. تتغير الاصوات والالحان لانهم يتناوبون على الصراخ في المتراس المقابل، وهو لا يردّ. لا يردّ لانه يعتقد انهم ينصبون له فخّاً. يحاولون تحديد موقعه ليتمكنوا من اصطياده على الصوت. هكذا يعتقد، او هكذا يدّعي، كي يجد لنفسه حجة بعدم الدخول في جوقتهم. الى ان اكتشفوا نقطة ضعفه فأخرجوه عن طوره.

عندما سمع اسمها، أرنب أذنيه ليصغي جيدا. كان مجرد اطلاق اسم زوجته عبر المتاريس المقابلة تشهيراً لا يمكنه احتماله. قال له الواقف في متراس "العمارة" قبالته إنه سيضاجع كاترين لأنك يا محسن لا تقوم بالواجب على ما يرام.

لم يدعه محسن يُكمل. وقف عن كرسيه، سحب البندقية من المرماية بين اكياس الرمل وراح يطلق النار واقفا دون حماية في اتجاه المتهكمين. أفرغ ممشطا بكاملة ثم بدّل ممشطا ثانيا وأفرغه حتى هدأ غضبه. كانت المرة الاولى يخرج فيها محسن على قواعد الانضباط الصارم، والمرة الاولى التي نقترب فيها خلسة من متراسه لنجمع الخرطوش الفارغ وكان لا يزال ساخنا. اصلاهم رصاصا لكنه لم يحكي. لم يجبهم بالكلام.

يحارب ساكتا، محسن.

اذا جاءه عند غروب الشمس احد ابناء عمّه المتهورين الى متراسه خلف حجر الرحا ليهمس شيئاً في اذنه، يُبعده قليلاً عنه لأنه لا يحب كلام الوشوشة ورائحة الفم القوية. يطلب من ابن عمه التحدث عاليا لان لا احد في الجوار يمكنه سماعهما. يقول له وعلى وجهه علامات

الاقدام انهم سيصفّرون له من خارج بيته عند العاشرة ليلا بعد العشاء. يسأله ألاّ يُكثر من الأكل ليلتحق بهم دون أن يخبر أحدا ولا حتى كاترين، ومعه مسدسه واربعة مماشط وحذاء من الكاوتشوك لا يصدر ضجة، الحذاء نفسه الذي ينتعله في رحلات صيد الفرّي. وهم ثلاثة رجال وهو الرابع مصممون على... ويكتفي محدثه بالاشارة بيده في اتجاه خطوط الاخصام، ويروح يرسم له الطريق. نخلع باب ابو سعدى، ندخل منه الى منشرة الخشب من الشباك ومن هناك ننعطف يسارا.

تذرع محسن بهذا المغص في معدته الذي لا يفارقه في الليل. قال انه لم يعد شابا وانه قد يعيقهم علما بأن الكثرة في هذه الحالات لا تنفع. وأنه اذا كان لا بد له ان يُقتل في المعركة فانه يفضّل الموت عن يده هو، وليس بسبب غلطة غيره، في اشارة واضحة الى عدم ثقته بالمشاركين في مهمة الاقتحام هذه. ربما بسبب صغر سنهم وقلة خبرتهم في القتال الذي لم نتمكن في حينه ولا لاحقا ان نعرف مِن اين اكتسب محسن علمه العميق فيه. وما لم يقله محسن أن له أختاً، حسني، متزوجة في الطرف الآخر وربما يخشى أن يواجه صهره أو اشقاء صهره. لكنه يعد الشباب بأنه سيظل ساهرا في متراسه منتظراً عودتهم.

بعيد منتصف الليل يرجعون اليه كأنهم لم يتكبدوا كبير مشقة، ويخبرونه عن تقدمهم السهل وكيف وجدوا باب ابو سعدى مخلوعا، وانهم عندما دخلوا المنشرة كانت رائحة الخشب قوية جدا، وسمعوا انينا، فاستنفروا، وردّوا ديوك مسدساتهم طالبين بعضهم من بعض الصمت الكامل، لكنهم سرعان ما انتبهوا ان في الزاوية رجلا يقضي حاجته وسط نشارة الخشب وانه مصاب بالكتام الشديد وقد سمعوه يشجع نفسه على الانتهاء من حاجته بالقول:

. يلاّ يا ابن نعمة الله...

عرفوه من صوته ومن اسمه وكان اسما نادرا. أنه اللحّام قبالة الكنيسة. أخذ نفسا قويا من جديد وعاد للشد ففشل وأنّب نفسه بالقول:

. جبان يا ابن نعمة الله...

انتظروه طويلا حتى نجح في افراغ حمولته فتنفس الصعداء عميقا ونهض على قدميه.

. مسح قفاه بنشارة الخشب. غرف بيده كمشة نشارة من الارض ومررها على قفاه!

اخبروه ممازحين، او ربما اخترعوا هذا التفصيل لعلمهم بمدى حساسية محسن على القذارة.

قاطعهم وكانت علائم القرف قد ارتسمت على وجهه منذ دخلوا الى منشرة الخشب، وعلّق قائلا:

. وفي الغد يطعمهم في الحارة الفوقا لحما بيديه!

ضحك واردف جازما آمرا كأنه يراه بأم عينه:

. اقتلوه!

كأنه يريد له القتل قصاصا على فعلته هذه بمسح قفاه بنشارة الخشب وليس على كونه مسلحا منخرطا في صفوف اخصامهم. وهو ليس ابن عائلة بل من اللفيف، ولا شيء يرغمه على اظهار كل هذه الحماسة. أخبروه انهم عندما رأوا هذا المنظر المزري لم يحاول أيّ منهم اطلاق النار عليه بل تركوه يذهب في سبيله، فلم يريدوا كشف انفسهم مقابل هذا الصيد البخس. تابعوا تقدمهم البطيء ودخلوا بيتا في العمق وعادوا بصورة والد صاحبه المعلّقة في الجدار وكان صاحب البيت يتباهى بوالده وبأفعاله المجيدة. والآن سيبلغونهم بالصوت العالي ما فعلوه ويخبرون الرجل من متراس الى متراس بأنهم سيبوّلون على صورة والده وانهم لو ارادوا لأصابوا نعمة الله اللحام في قفاه تماما.

يضحك محسن من بطولاتهم ويشجعهم لكنه يعرف في قرارة نفسه انها لا تجدي نفعا في القتال. في كل حال، هو لا يشارك في التسلل ولا في الكمائن على الطرق البعيدة.

حربه نظامية، محسن.

لها قواعد لا يعرف احد من اين يُخرجها، وله في كل حالة من احوال الاشتباك اجتهاد ورأي جازم. لا تهجم على خصمك الا عند طلوع الضوء، ساعة النوم العميق. لا تطلق رصاصة صائبة واحدة فقط على خصمك فقد يبقى معه حيل ليقتلك. انظر على من تطلق النار بالعينين... ومع ذلك كاد يقتل الخوري بولس، هو نفسه. اذا وافق بعد رجاء طويل منا، على سرد هذه الحادثة مرة، فهو يمانع في سرد زلاّته. يعجب كيف لم يصبه وكنا في لحظة عجبه هذه نشعر كأنه كان من الافضل انقاذا لصيت محسن ان يصاب الخوري بولس ولو اصابة غير قاتلة. غشّه الخوري بولس يومها.

ينادي الخوري بالصوت الصارخ، معلنا مروره في كل مرة "يقطع" فيها بين الحارتين. وحده ينتقل بين الفريقين، وينقل معه الاخبار والرسائل. اخبار من ماتوا برصاص الطرف الآخر واخبار من ماتوا ميتة ربهم واحوال المرضى من الاقارب، و"هذه المئة ليرة من عمتك لانهم اخبروها انكم قاصرون في هذه الايام الصعبة" او "قولي لابن اختك ان ينتبه لنفسه"، واخبار سرية تبقى في الآذان العميقة التي يودعها اياها.

نسي التعريف عن نفسه ذاك اليوم. كان سارحا في افكاره، مهموما. كان منشغلا مصمما على ان ينزل الى حارتنا ليخبر من يعنيهم الامر أن سوريا أرسلت "لهم"، أي الى الطرف الآخر، مدفع هاون وانهم يركّبونه وسيقصفوننا قريبا وانه لا يمكن لأحد الاختباء من الهاون. ما ان لمح محسن ظلا يظهر عند الزاوية في اول الطريق حتى أطلق بندقيته. أصيب الخوري بولس بشظايا

من حجر الجدار الذي اصابته الرصاصة. اطلق النار محسن دون انفعال، ولم يظهر عليه الاسف حتى عندما ادرك خطأه.

صحيح ان "جبهته" كانت نسبيا هادئة بالمقارنة مع غيرها، لكن الاشهر الستة التي امضاها خلف حجر الرحا شهدت في منتصف شهر تموز محاولة تسلل اضطرت محسن الى طلب النجدة لردها. كان "مفتّح العينين" حيال ادنى حركة في الجهة المقابلة. مرور كلب او هرة يوقظه. اذا سرحت الماء من اعلى الى اسفل، اذا سمع صوتا ضاعف انتباهه خوفا من مناورة او لعبة. صار يعرف تماما من هم الرجال الواقفون في المتاريس قبالته. يعرفهم باسمائهم ويعرفهم من صوت الرصاص المنطلق من سلاح كل منهم وطريقته في اطلاق النار، رشقا او تقطيعا. وكان ما ان يسمع الرصاص حتى يسمّي مطلقه بكامل الثقة.

باقي الايام، وهي طويلة، "التزم" محسن متراسه كما يحب ان يقول، وكما تطلب الرصانة من المرأة الحشرية الساعية في الجيرة الى القيل والقال ان "تلتزم" بيتها. لم تظهر عليه أي علامات الضجر. في جلوسه المتجدد ما يوحي بأنه مستعد للبقاء هنا، خلف حجر الرحا، حتى "يفرجها الله". لكنه لم يكن نائما. كان محسن يعمل ونحن كنا الغافلين الضجورين ننكفئ عنه احيانا كثيرة بحثا عن الاثارة في جوار متاريس أخرى.

وضع خطته من اليوم الاول لتسلمه متراس حجر الرحا، وبقي يتحين الفرصة لمدة ثلاثة أشهر ونصف شهر بالتمام. يصوّب فوهة بندقيته الى فراغ مكشوف يمرّ به الجالس في المتراس المقابل له لحظة يدخل الى متراسه ولحظة يخرج منه، عند موعد البدل. انها فجوة بمساحة شبّاك صغير. يلمحهم محسن وهم يعبرون هذه الفجوة سريعا. ظل يمر خطفا. وهو كان ينتظر اليوم الذي ينسى فيه أحد اخصامه نفسه مكشوفا ولو لثوان قبل أن يدخل الى متراسه. هذا ما اخبرنا به فيما بعد. وهذا ما حصل في العاشر من شهر آب عند الساعة الثانية عشرة والنصف تماما، فأرداه بطلق واحد من بندقية "المعدّل طويل"، أصابه في رأسه... كانت الشمس حادة، قبل وجبة الغداء بقليل. نادى على واحد منا وقال له ان يبلغ كاترين بان لا تجلب له الغداء اليوم لانه ليس جائعا. واضاف استباقا لما يمكن ان تقوله:

. قل لها اني لست مريضا...

ثم امرنا من جديد ان ننسحب الى البعيد. كانت لهجته صارمة، وهذا ما جعلنا لا ننصاع تماما، كنا نتوقع حدوث شيء ما. اختفينا عن ناظريه لكننا بقينا نراه. بقي سر وحيد: كيف عرف ان خصمه في متراس البناية القديمة بثلاث طبقات سينكشف أمامه بعد دقائق؟

لأول مرة يتلفت حوله قبل أن يصوّب بندقيته، يحنو بخده على استونها، يعانقها، وينظر الى البعيد. كان هذا ربما اطول عناق شهدناه بين محسن وبندقيته، أكثر من عشر دقائق. وفجأة، ودون أي اشارة من جسمه او حركة من رأسه، يطلق محسن رصاصة واحدة تخرق السكون العام

الذي كان مخيما على الجبهة ظهيرة يوم الصيف الحار ذاك. بعد طلقة محسن لم يحصل جواب، لا بل كأن الصمت تأكد أكثر. بعد دقائق سمعنا صراخ امرأة من الجانب الآخر، فَعَلا هتاف الفرح من جانبنا وانهمر الرصاص كزخّ المطر.

يحارب صابرا، محسن.

XVI

اعتقدت كاملة أنها ارتاحت. أقفلت الباب ورمت المفتاح فوق السطح. مات يوسف فصارت كاملة خارج الحياة. والغريب انه لم يبدُ لها ان ترمّلها، على الاقل في بدايته، أي بعد مرور اسبوع الدفن والتعزية، سيكون أسى خالصا.

فهي مثلا، من الآن وصاعدا، لن تغتسل الا متى اصبحت رائحتها لا تطاق، متى انذرتها منتهى لانها الاكثر التصاقا بها. ولن تغيّر ثيابها الداخلية كل يوم، لن تكوي شعرها ولن تخاف الشيب. اللون الاسود يريحها من عناء تغيير الفساتين. الجوارب السوداء وحدها تضايقها في ايام الحرّ هذه، تمزق رجليها.

تنفّست بعض الشيء، صغيرة أمها وأبيها، غنّوجتهما التي لم يُرفض لها طلبٌ يوماً.
أنزلت الدنيا عن كاهلها دفعة واحدة. ستتوقف عن الطبخ والنفخ، تقعير الكوسا ونزع شعر الارجل، التوجّع وزيارة الاطباء، أطباء النساء خصوصا. لن تفتح فخذيها امام أحد، سيبقى جسمها بشحمه والمعركة الكبيرة لن تحدث. لن يُنتزع منها شيء، ولن تطلع روحها قبل ان تخرجه.

ستكون حياتها ملساء، ساعاتها متشابهة، يتوالى عليها فقط برد كانون وحرّ الصيف الرطب، تأخذ منهما حاجتها لا أكثر. لن تجاهد بعد اليوم لاقناع زوجها بدخولها طمعا بالحبل. ليلة بالرجاء وليلة بالحيلة وبهذا الاغراء الذي لم تنجح فيه يوما. ما عادت تريد ان يدخلها احد. ارتاحت من الاولاد ومن الاستجداء. استجداء زوجها واستجداء القديسين.

سيسعى أقاربه للثأر. مكتوب عليهم ألاّ يناموا على موته. دمهم لن يحملهم طويلا. بدأوا يربطون الطرقات في الليل، يلتقي ثلاثة او اربعة منهم ويختفون عن الانظار، سيصطادونهم عاجلا أم آجلا. اخوة من قتلوا اخوتهم او أقاربهم البعيدين، لا فرق.

هي لن تفعل شيئا، لن يُطلب منها شيء. مقهورة ممن قتله ومقهورة ممن زوّجها اياه. لم تعد مضطرة لفتح باب بيتها أمام أحد. لن تضطر لمسايرة احد، خصوصا اقرباءه. ستكتفي بالجلوس الى جانب منتهى، بليدتين ساهيتين على كرسيي قش واطئين في رطوبة الصيف، فيما يهب عليهما هواء عليل من النهر القريب، او رائحة يأتي بها الأخرس صائد الحنكليز. ترخي جسمها دون ورع وتتحدث مع منتهى بأخبار الناس. لن تتركا أحدا من شرهما. ستؤكدان الخيانة الزوجية على كل امرأة تتحمّر وتتبودر، والسرقة والاحتيال على كل من جدّد سيارته أو فَرْش بيته. لن يمرّ أحد في الطريق دون أن يلقى نصيبه من نظراتهما المتفرسة المتفحصة وكلامهما الواقف مثل السكين.

عندما تكون وحدها، تزرع الزهر على الشرفة، أزهارا لكل الفصول. تتابع تلك الحياة الصغيرة، تساعدها، توجه غصونها الطريّة النحيلة بالخيطان المشدودة. ترويها، تشذبها وتغضب منها اذا تكاسلت. ويجزم جيران كاملة انها لما طالت بها السنون وحدها بعد سفر ايليا الى أميركا، صارت دون ان تنتبه تحكي مع ازهارها بصوت منخفض، كأنها في الحقيقة تشجعها تارة وطورا تؤنبها.

سيكون هذا مشروع حياتها الوحيد. لن تزور احدا غير أمها، ومن يحبها فليأت اليها. ستنام الليل بأكمله. لن تتقلب في السرير بعد اليوم عالقة في الشرك لساعات وساعات، منتظرة عودة زوجها من سهرات القمار التي لم يصطحبها اليها مرة، والتي لا تعرف لها صورة ولكن تتخيلها مليئة بالاضواء في صالة سقفها عال تعج بالنساء الغاويات اللابسات الاسود المفتوح

على الصدور والظهور. سهرات لا تنتهي الا مع طلوع الفجر ليعود يوسف على رؤوس اصابعه، يفتح الباب خجلا، محاولا عدم ايقاظها كي لا تشم فيه رائحة نساء أخريات.

. أبناء عمه كثر وقبضايات، يأخذون بثأره!

لن تتزوج من جديد. فمن يمت قتلاً يظل واقفا حائما كالنسر فوق رأس أرملته حتى تموت بدورها. سيبقى "مسلّطا" عليها ولو ثأروا له وخربوا الدنيا من اجله. سيقولون لها مسايرة "تزوجي يا كاملة"، لكنها لن تقبل، ويعرفون أنها لن تقبل، ولن يتقدم منها أحد في كل حال.

لا تريد الزواج. لم ترغب فيه يوما. دفعوها اليه دفعا أول ما هفّ قلبها.

. تزوجي يا كاملة، اخواتك البنات ناطرين.

كانت احلاهن واصغرهن سنا، كلما حام حولهن شاب اعجبته وحدها. تعجب الشباب دون جهد، وهي تحاول الاختباء عن الانظار. لا تتزوج ولا تدع أختاً من اخواتها تتزوج. طلبها يوسف الكفوري، فتح قلبها له، أحسوا بها فلم يعطوها وقتا.

. لم يتركوا لي الوقت كي أحبه.

تقول.

أحبته في ما بعد، بشدة، وكلما كان يتبخر أملها في الاولاد كلما كانت تتمسك به. حزموا لها ثيابها وهرّبوها من الباب الخلفي كي لا يتركوا لأمها أن تعترض. كانت أمها تصر على زواج ابنتها البكر أولا، كل واحدة منهن بدورها! ذهبت كاملة خطيفة ورضيت أمها عنها بعد أقل من شهر.

قُتل برصاصتين في صدره. يقال انهم حتى لم يعطوه فرصة لشهر مسدسه. ناداه شخص باسمه، التفت فأطلقوا عليه النار، من أكثر من مسدس واحد. يقولون ان من ناداه باسمه كي يلتفت ليس من الذين اطلقوا عليه النار. ترك لها البيت الذي تسكن فيه فقط، عرضت عليها العائلة مالا، تبرعات من اغنياء او مهاجرين، فشكرتهم. وحدها ممن قتل ازواجهن في برج الهوا رفضت التعويض، لا تريد مالا مقابله. لن تخلع الاسود بعد اليوم. لن تشتري لنفسها ثيابا، عادت الى حيث كانت تريد دائما ان تبقى، هنا حيث سينسونها جالسة على شرفتها، تشرب القهوة مع منتهى، تزرع الازهار وتسقيها وتحدثها. جسمها لها لا دخل لأحد فيه ولن تطلب منه شيئا...

لكن هدنة حياتها لن تطول.

شهر واحد لا أكثر.

ثم جاءها الانذار وعادت الى العراك. جاءها الانذار من جسمها نفسه الذي اعتقدت انه ارتاح وأراحها. بدأت تحس يوما بعد يوم أن شيئا ما يستيقظ فيها، أن جسمها بدا كأنه يفلت

منها. تأخرت عليها العادة الشهرية. كان وجع الرأس يأتيها مباغتا، كل يوم عند هبوط المساء، مباغتا وحادا. وضعت كل شيء في حساب الحزن، او هكذا قالوا لها. كانت علامات الحبل تتكاثر وهي لا تريد ان تصدّقها. لا تريدها.

أول من كشفها كانت ياسمين، أختها المتزوجة في بيروت، تندبها كلما جاءت لتزورها، زوجها لا يريدها ان تأتي، يرسلها وحدها في سيارة اجرة، ولا يريدها أن تصطحب أيّ من الاولاد معها. يقول لها:

. يا ياسمين، البعد عنكم أنس!

عنكم يعني عن البلدة حيث ولدت زوجته، وعن أهلها.

وهي تقول ان قلبها يفتح ما ان تخرج السيارة من نفق شكا وتطل على الشمال، تنزل زجاج الشّباك لتتنشق الهواء. لكن الكربة تعاودها عندما ترى اختها كاملة:

. الحظ للعاهرات يا أختي، أمرنا لله.

ثم تنهرها كي تمشّط شعرها وتعتني بحالها وتأكل. تخبرها كيف ان نساء من عمر أمها لم يستقلن بعد من الاناقة.

فضحها الوحام، كاملة. اشتهت فواكه في غير أوانها، أمام أختها:

. على بالي البلح يا ياسمين!

. ما الذي ذكّرك بالبلح في هذه الايام؟

نظرت اليها ياسمين متفحصة وسألتها بعد تفكير قصير:

. هل انت حبلى يا كاملة؟

ابتسمت كاملة ساخرة.

ليست حبلى. لكن ماذا يحدث لها؟

. كيف أكون حبلى؟

. لما لا تكونين حبلى، يا أختي؟

انفجرت كاملة:

. ممن أكون حبلى؟

فصرخت ياسمين بدورها:

. من زوجك... لم يمض أكثر من شهر على موته، أليس كذلك؟

سهت كاملة قليلا.

. لا، لا، غير ممكن.

. قولي، متى نمت معه؟ أخبريني...

شيء حارق أمسك كاملة في حلقها:

. ليلة السبت. قتلوه يوم الأحد.

. أبقى معك يا أختي؟ أصل الى بيتي أدبّر الامور هناك واعود غدا.

رفضت كاملة.

. ارجعي الى بيتك، لست بحاجة الى مساعدة.

بعد يومين تقيأت. دون سبب. كانت لا تزال صباحا على الريق، وكانت وحدها في البيت. كان ذلك في اواخر شهر تموز. بدأ السلاح يصل الى البلدة محمّلا على ظهور البغال، سلاح مهرّب. يقود البغال رجال غرباء يقال انهم ضباط في الجيش يرتدون اللباس المدني تمويها، يعبرون النهر. بنوا على وجه السرعة لهذا الغرض جسرا خشبيا في منطقة غير مكشوفة. يُنزلون حمولتهم قرب الطاحون، يجرّب رجال العائلة البنادق قبل تسلّمها باطلاق الرصاص على جذوع اشجار الحور. يصفّرون من دهشتهم كلما راحوا يعاينون أثر الرصاص في الشجر. يقال ان السلاح يأتي من سوريا الى الطرف الآخر ايضا. يأتيهم من داخل المدينة، من السوق القديم حيث يتمترس الثوار. يحملونه ويصعدون به عبر مجرى النهر كذلك. تمر قبل الظهر طائرات حربية على علو منخفض. تراقب الفريقين، كما يقولون.

تأخر عليها الميعاد اسبوعين، لا يمكنها أن تتجاهل الأمر.

قصدت أمها الى بيتها، كانت أول مرة تخرج فيها الى الطريق العام بعد مقتل زوجها. لا بل انها المرة الثانية لانها أخذت له وردا مرة واحدة فقط الى حيث حفروا لهم على عجل ودفنوهم في بستان اللوز، صفا طويلا واحدا من تلال التراب الصغيرة. حملت له باقة ورد أحمر، وضعتها الى جانب صورته. على كل تلة تراب صورة. كانت حفرته الثالثة من الجهة اليمنى، شكّت فوقها غصن زنبق أبيض.

غيرها من أرامل برج الهوا خرجن وشاركن في الانتخابات. حملن صور المرشحين وشاركن في المواكب السيّارة. تم اختيارهن عمداً مندوبات داخل صناديق الاقتراع، تشاجرن وتحدّين وزغردن ودبكن فرحا وحماسة عند اعلان النتائج...

مشت كالغريبة، متلفّحة بالاسود تحاول الافلات من العيون الحشرية. هواء الشرّ يلفح الطرقات والأخبار تنتشر:

. قتل سعيد الرامي..

. أين؟

. كان يقرأ الجريدة في الصيدلية، دخلوا عليه وقتلوه.

. من قتله؟

. سلّم لي على أخي اذا التقيت به هناك!

قال له أحدهم قبل ان يعاجله بطلق ناري في رأسه.

هرب الناس وبقي وحده ساعتين ينزف وينازع.

أخبرت كاملة أمها بما يحصل معها. صفعتها على وجهها لأنها لم تسمع كلامها من البداية ، يوم دفن القتلى. لكن أمها امرأة لا تعرف الاستسلام، تحاول انقاذ الممكن:

. الآن، لا يمين ولا شمال، في طريق العودة الى البيت عرّجي على منتهى واشربي عندها فنجان قهوة. اخبريها كيف انك تشتهين البلح وأن الميعاد تأخر عليك. وقولي لها ان لا تخبر احدا، وهي تتكفل ايصال كل التفاصيل الى الجيران. انها صديقتك وتعرفينها افضل مني.

غيّرت كاملة الموضوع:

. قتلوا سعيد الرامي...

لم تتأسف أمها كثيرا.

. ماذا سيحصل يا أمي؟

. القتيل باثنين يا أمي...

عرّجت على بيت منتهى. كانت الطرقات مقفرة تماما والدبابة المتمركزة منذ أكثر من شهر في الساحة تدور على نفسها ببطء، والجندي الخارج من برجها يدخل الى جوفها ويقفل على نفسه. تحركت في الطريق المؤدية الى طرابلس وقد مشى امامها جيب عسكري صغير يوجهها في طريق الخروج. سمعوا الراديو يقول في الامس ان الجيش لن يتدخل في النزاع بين الاهالي. قائد الجيش واقف على الحياد. منذ شهر والاخبار تتوالى. اخبار الثأر والخوف من الآتي، وكاملة لا تشعر بشيء.

جلست قليلا عند منتهى لكنها لم تجرؤ على اخبارها. تخاف ان يسخر منها الناس اذا تبيّن لهم انها كانت تتوهم الحبل. أخبرتها منتهى أنهم أقاموا متراسا على سطح مدرسة الراهبات. اكياس رمل مكدسة يسقونها ماء في الصباح كل يوم فيصعب على الرصاص اختراقها. واخبرتها أن الخوري انطانيوس قال في العظة بعد الانجيل "صلوا يا اولادي مرة ابانا ومرة سلام حتى ينصرنا الله على اعدائنا".

لم تتقبل الحقيقة حتى ظهر بطنها. ومع ذلك:

. ربما يكون معبأ بالماء.

. ماء؟

. لا أصدّق يا أمي اني حبلى، لا أصدق... كيف حصل ذلك، ماذا فعلت بي؟

سيكون لها ولد. يفور دمها فرحا لكن سرعان ما يمسكها شيء في معدتها. بدأت تخاف، كل خبر يشيع يخيفها، اطلاق الرصاص يصيبها بالرجفة. لم تعد وحدها.

. مغضوبة يا كاملة! لم تصغي اليّ. ردّي الالسن عنك الآن اذا كنت قادرة...

. ماذا أفعل يا أمي؟

. لا تفعلي شيئا، يجب ان تأكلي جيدا وترتاحي... لا تعيريهم أي انتباه.

مشى الخبر وبدأ معه الكلام، في ظهرها طبعا.

بدأت الاسئلة.

اسئلة بدون شفقة، تهبّ عليها، تعضّها.

من أين أتت به؟

خمسة عشر عاما بدون اولاد، مات زوجها من هنا، حبلت من هنا، كيف ذلك؟

فضلت ان تختبئ في البيت، في الداخل، متحاشية حتى الظهور على الشرفة. وحدها أمها تأتي لزيارتها، أمها ومنتهى. وأختها ياسمين اذا تمكنت من اقناع زوجها بالمخاطرة. أمها تحمل اليها كل ما تحتاجه.

. لا تخرجي من الباب انا أتكفل بكل ما تحتاجينه.

ومنتهى تأتي بالأخبار، بما يقال في الخارج، في الجيرة القريبة. منتهى تحمل ايضا أخبار القتال، تأتي خائفة مرتعدة، حتى جاءت يوماً تقول يا كاملة لن تصدّقي، سيبدأون بردّ النساء.

. ردّ النساء؟

. نعم، نعم. انا خائفة على أمي.

تقول منتهى. أمها من بيت الرامي.

. بدأوا يُسمعونها كلاما في الحارة هنا.

. من؟

. لا أعرف من، المهمّ يقولون انها توصل اخبارا الى اهلها فوق...

. أي أخبار؟

. لا أعرف، يا كاملة، يقولون "توصل أخباراً"...

. هل تزور أمك حارة أهلها؟

. خطيئتها انها ذهبت اليهم مرة واحدة بعد حادثة برج الهوا فانهالوا عليها. كلما التقوا بها في الطريق او مروا امام بيتنا يشتمون بيت الرامي، يسبّون موتاهم. تبكي أمي وتقول: انا منهم، زوجي منهم واولادي منهم، لماذا يُسمعونني هذا الكلام؟

تضرب منتهى بيدها على صدرها وتسأل كاملة:

. الى أين تذهب أمي اذا طردوها من بيتها؟

كاملة لا تجيب. تتنهد منتهى عميقا وترفع ذراعها فوق رأسها يأسا.

حان موعد الولادة وايليا يتأخر. دخل الجيش مجددا الى البلدة. تشكلت لجنة من الطرفين ودارت في الشوارع لتتأكد من رفع المتاريس. توقف اطلاق النار. توقفت الكمائن. انتخب قائد الجيش نفسه الذي كان واقفا على الحياد، رئيسا للجمهورية. هكذا أراد الاميركيون وعبد الناصر. بدأ الكلام عن قانون "لا غالب ولا مغلوب". انتهت الثورة وعادت الحياة. لن يكون لديهم ما يلهيهم عن كاملة بعد الآن، لا قتلى ولا جرحى. سيفترسونها.

تأخر عشرة ايام. ولد كبيرا. رأسه كبير ووزنه كبير.

حلم حياتها، صبيّ. علمتها أمها كيف تحمله، كيف تسند رأسه الى يدها. انحبست معها شهرا كاملا، درّبتها على كل ما تعرفه. كانت أمها منهمكة بصحة الولد فلم تجد الوقت للتعبير عن فرحتها به. اصيبت بالتهاب رئوي حاد ولم يكن ايليا قد نجح بعد في لفظ اسمها، "تيتا"، عندما نقلوها الى المستشفى وطلبوا لها كاهنا.

جهازه حاضر. الحفاضات والثياب وحتى الاحذية. لا تحتاج النزول الى السوق. تغسل له ثيابه ولا تنشرها على الشرفة بل على حبل نصبته داخل البيت.

لن تجاهر به.

ومع ذلك فالكلام يلفحها. صاروا جميعهم خبراء في الحبل والشهر القمري. يُجرون لها الحسابات ولعابهم يسيل. حاصروها بحساباتهم، تأكدت لهم شكوكهم الاولى.

يصل كل الكلام الى مسامعها وهي تختبئ. سمّته ايليا تيمنا بآخر قديس "شحدته" منه. غلبها القديسون. كانت اعتقدت أنها تحررت من دَينهم عليها. احتارت بين يوسف على اسم والده وبين ايليا. خافت كاملة من مار الياس، قد يكون ثأره قاسياً، لن تتحمّله.

لو تحمله وتطير. بجعة بيضاء تفرد جناحيها الكبيرين، ترفعه بمنقارها من حفاضه وهو نائم. خدّاه ورديان، طريّ جميل، يداه، رجلاه الصغيرتان متدليتان في الهواء، تحمله وتطير به الى آخر الدنيا، الى بلاد لا تعرف فيها أحداً. يدلها صوت لا ترى صاحبه. صوت رجل يشبه صوت والدها. تُنزله البجعة من منقارها الطويل وتضعه في عش طبيعي بين صخرتين في جبل عال بعيدا عن العيون والكواسر لتذهب كل يوم الى الحرب وتعود اليه بالطعام. تحارب بكل ما لديها، بمنقارها وجناحيها ورجليها. تثخن بالجراح ولا تموت. اعداؤها في كل مكان، في الهواء، وراء الصخور، بين الرمال وفوق موج البحر. استيقظت على بكائه جائعا. أعطته صدرها، وغرقا من جديد في النوم. لم ترجع اليها البجعة البيضاء بعد تلك الليلة.

كبر وذهب الى المدرسة، نحيلا، ضعيف البنية وضعيف العينين. رافقته الى الصف، الى الغرفة نفسها التي أخرجها منها والدها ذات يوم. ارادت التعرف على الولد الجالس الى جانبه، ارادت ان تعرف من هو والده ومن هي أمه.

. لا تضربه، سامع؟

لكن الاطراء بدأ يلاحق ايليا من ايامه الاولى في المدرسة. ذكي، تقول الراهبة المسؤولة عن الصغار. كان الأول في صفه، في كل المواد. منعته عن صف الرياضة، طلبت له اذنا خاصا من الادارة يعفيه من الرياضة. تنظر اليه وتقول:

. ألا ترون كم هو نحيل؟

يشبه كاملة، تقول منتهى. تنظر اليه كاملة طويلا، لا تعرف كيف يشبهها.

سرعان ما طاردته العيون بدوره. والالسن ايضا. ما ان بدأ يفهم حتى بدأوا يُسمعونه الكلام. كان الكلام جاهزا على الالسنة ينتظر فقط من يسمعه.

جاهز على السنة النساء. العوانس منهن بشكل خاص. يصطادون ايليا الصغير في الطرقات، يستدلون عليه. تسأله المرأة وهي تسند خصرها وترخي حنكها:

. انت ابن من يا عمّو؟

لا يفهم سؤالها. تحرجه فلا يعرف كيف يجيب.

تبتسم المرأة. تسأله عن اسمه، يجيب. تكرر عليه السؤال الاول:

. أنت ابن من يا ايليا؟

ينظر اليها بعينين واسعتين ولا يجيب. تنكفئ عنه المرأة. صمت الصغير اعتراف.

لا يخبر أمه لكنها تعرف، تعرف وتخبئ في قلبها.

حتى يجن جنونها احيانا، تنفجر من كلمة، من نظرة، من لا شيء، تصب جام غضبها على الكبار والصغار. بدأت تشتم الناس عاليا، في الطريق، وهي تمشي. تشتمهم دون سبب، تحكي وحدها بصوت عال، تقارع منكّدي حياتها.

كان ايليا يحب المبارزة، مبارزة الكلام والقتال، مرة كان يتبادل الشنائع مع احد رفاقه في الحارة، كلمة من هنا وشتيمة من هناك، سباب على الاهل والاقارب الى ان تفوّق ايليا على خصمه بكيل الصفات، فما كان من هذا الاخير الا ان رماه بها:

. ابن كاملة!

رماها في سياق المبادلات:

. "مقرود"!

يقولها ايليا بكل ثقة، ودليله الفاضح قصر قامة منافسه.

. مسلول!

تأكيداً على النحول وشحوب الوجه، وهذه كانت تطلق صوب ايليا ولا حاجة ايضا للبرهان.

. بيّاع الخسّ!

يرسلها ايليا تحقيرا لمهنة والد خصمه وكان بائع خضر. ايليا يجدد في هذا المضمار.
فاجأ خصمه لأنه فتح عليه باب الاب ولايليا في ذلك تفوق. اسقط في يد خصم ايليا، تلعثم ولم يجد ما يردّ به، نظر حوله طلبا للنجدة فانحنى عليه شاب في العشرين من عمره وهمس له كلاما سريعا في اذنه، فصرخ الصغير فرحا كأنه وجد ضالته:

. ابن كاملة!

ساد صمت قصير اعقبته ضحكات مجلجلة ما ان ادرك الحاضرون مغزى التهمة. ضحك من فهم ومن لم يفهم. كأن خصم ايليا حقق نصرا عليه بالنقاط فاستحق الثناء من الجمهور. تردد ايليا، أرتبك لدقيقة ثم راح فجأة يرمي غريمه بالحجارة، اشارة الى ان الكلام بلغ الذروة وما عاد ينفع الرد الا بالأذى المباشر. وعندما فرّ الخصم من امامه، هرول ايليا الى البيت غاضبا باكيا. هو ايضا لم يفهم بالضبط ما حدث لكنه شعر بالاهانة عندما ضحك منه الجميع.

من المطبخ، من الشرفة، تحاول كاملة متابعة ايليا. تخاف عليه منهم، تتمنى أن لا يخرج الى الطرقات لأنه لا يعرف ما ينتظره. هي تعرف وتتوقع الاسوأ. وعندما رأته باكيا، لكانت ضربة السكين أهون عليها. طيّبت خاطره وقررت من يومها ارساله الى مدرسة راهبات الصليب. ومن سألها قالت:

. ليس لديّ غيره والمعشر هنا صعب. يتعلم منهم اشكالا والوانا، اذا تركته على هواه لن يتعلم.

تقصد "علم" المدرسة. تزوره هناك في مدرسته الجديدة، مرتين في الاسبوع. تطبخ له، تُطعمه، تنظر اليه طويلا. لكنها لا تريده ان يرجع الى البيت. كانت تخشى العطل عندما ترسله المدرسة اليها ومعه آلة الاكورديون، تخترع له كل الاسباب كي لا يغادر البيت. لكنهم يطالبون به، يتجمعون تحت الشرفة ويريدون منه الانضمام اليهم.

ليقولوا انها بلا عاطفة وانها لا تشتاق لابنها، لكن ليبعدوا نظراتهم عنها. نظراتهم والسنتهم.

تتذكر صهرها، زوج ياسمين:

. البعد عنكم أنس!

ابعدته وبقيت صامدة، وحيدة. لكنهم لا ينسون، ولو بعد مئة عام. لا يقولون امامها كلمة واحدة، لا يجرؤون، لكنها تشعر من اسئلتهم الصغيرة. ما هي اخبار ايليا، يقال انه شاطر؟. من مطّة السؤال وتدويرة الشفتين. هل وجد لنفسه بنت حلال ابنك يا كاملة في تلك البلاد؟. تشعر انهم لا يزالون متربصين بها. واليوم لا تريد ان تجري عملية "الماء السوداء" كي لا ترى ما في

عيونهم، ما بقي في عيونهم، يكفيها ما في اصواتهم. ربما شحّ نظرها كي لا تراهم. لا تريد ان تراهم ولا تريد لايليا ان يعود الى البيت. كلما ابتعد عنها كانت الدنيا أهون عليها وعليه. وحدها، رأسها ورأسهم، لا يقدرون عليها لكنها لن تتمكن من رد الضربات وهو واقف الى جانبها.

XVII

وحده سميح رجل بين النساء، وفي كل فرن رجل واحد لا غير، يرأس الحفل ويقف لهن في باب النار. من ساعة وصولهن مع طلوع ضوء النهار بالعجين على رؤوسهن، الى لحظة خروجهن قبيل الظهر محملات ارغفتهن المستديرة تعلوها فقاعات صغيرة يثير منظرها الحار الشهية الى الزيت والملح لا غير.

تفوّق على والده.

صار الخبز الابيض الموسّع يُنسب اليه بالاسم.

. هذا من شغل سميح.

يقولون استطيابا.

كان الرغيف يخرج من بين يديه رقيقا يمكن فسخه طبقتين تشبهان برشان الكنيسة الطري. سميح عينه في النار، يقلب الرغيف ثم يسحبه في اللحظة المناسبة. الصنعة كلها في التقدير. يقرر سميح سحب الرغيف ما ان يشتم بداية احتراق طفيف لا بدّ منه والا بقي الخبز معجّناً. رائحة يحسّها قبل ثوان، قبل أن تصل الى الخبز، في اللمحة بين الاحتراق الذي يضطر لدفع ثمنه هو اذا حصل، وظهور نقاط صغيرة سوداء على صفحة الرغيف المضاء بلهب الفرن.

رغيف سميح هو المقمّر الكامل، يخرج من بيت النار منتفخا انتفاخة دائرية، فكنا اذا ما رافقنا امهاتنا يوم عطلة لا نبغي شيئا اكثر من فتح كوة صغيرة في الرغيف المتضخم الذي يرميه سميح الى جهتنا لنتمتع بمنظر البخار خارجاً منه كالمدخنة المستعرة ليبدأ بعدها بالتهدّل.

عينه في النار، سميح، ورزقه في النار. كان والده يعرف كيف لا يعير ثرثرة النساء انتباها، ويقول انه لو أجاب امرأة لمرة واحدة عمّا تقوله لأحرق شيئا في بيت النار، لا محال، عقابا على خفته في اعارة كلامهن اهتماما. حفظ سميح القاعدة، فاما عينك هنا واما هناك.

والنساء لا يتوقفن عن الكلام، ولا وقت لديهن للهدنة، وقد ضُرب بهنّ المثل، فاذا صمتت واحدة ذات صباح ادركت الباقيات ان وراءها ما يشغل البال، المرض أو الحاجة. تنهال عليها الاسئلة حتى تحكي فيتأكد زوال الهمّ ما ان تبدأ مساهمتها. كلام عام احيانا، لا يضّر بأحد، تمرين تمهيدي. احكام تبدأ بها الصبيحة كضرورة العلم في ايامنا هذه، حتى للبنات، او تقديس الجيرة وأن الصبي لأهله والبنت لأهل زوجها او العكس ربما، قبل الانتقال الى شخص في عينه لا يُعرف كيف يصلن الى تناوله، فيبدأ الجدّ. اولا تتأكد العيون سريعا ان النساء الجالسات حول الطاولة لا يمتتن اليه بقربى، فتتحرر الالسن وإلا وقع الاختيار على شخص آخر لا قريب له بين النساء. يحصل احيانا سوء في التقدير، فتبدأ امرأة بأخبار أحدهم لجهلها أن بينه وبين احدى نساء الفرن قرابة بعيدة، لكن هناك دائما من تُنقذ الموقف بتغيير الموضوع فتعمد الى اثارة قضية أكبر تبعد الانتباه بواسطتها عن الحرج الوافد اليهن.

أمه ايضا أوصته ألاّ يستمع الى النساء، وألاّ يدعهن يأكلن حقه. توفيت والدته بعد شهر واحد على وفاة والده. لم تحسن العيش بدونه. هكذا قال فيها نساء الفرن انفسهن وكن يردن امتداح وفائها بالرغم من انهن يعرفن انها لم تكن تحبهن.

سميح ابنهما الوحيد، تركا له الفرن والبيت وهو كناية عن غرفتين. هذا كل ما كانا يملكانه. البيت ملاصق للفرن، على الارجح ان والد سميح او جده اقتطع قسما من البيت ليحوله فرنا. حرارة بيت النار تخترق الجدار الفاصل بين الفرن وغرفة نوم والدي سميح. يطليه مرتين في السنة لكنه يعود فيقشر من قوة الحرارة. ولد سميح في هذه الغرفة وتوفي والداه فيها، في غرفة النوم المتكئة على بيت النار. لم يرزقا غيره. ولدت لهما ابنة توفيت بداء الحصبة وهي لا تزال

رضيعة. أطلقت أمها صرخة واحدة حزنا عليها ثم سكتت، وهكذا فعلت عندما توفي زوجها. صرخة عالية واحدة فقط.

بعد وفاتهما، ترك سميح غرفة والديه على حالها. خزانة ثياب متواضعة وسريران من الفورمايكا وصورة رجل غامض الملامح معلقة على الجدار أكلت نصفها الحرارة المتسربة من الجهة المقابلة. كان والده يقول ان هذا الرجل جدّه، سافر الى الولايات المتحدة في مطلع القرن العشرين، وترك جدته شابة ووالده رضيعا. ولم يعد. نزل الى طرابلس ليشتري جلدا يصنع به الأحذية ولم يعد. لا بد أن حصل معه شيئا ما، حادث او شجار ما منعه من العودة الى بلدته فأرغم على ركوب البحر من مرفأ المدينة.

لم يرفع سميح في الغرفة غطاء عن سرير حتى جاء من قال له ان يشرّع نافذتها وبابها للنور والهواء بين الحين والآخر والا أكلتها العطنة. يكتفي بالغرفة الاخرى والمطبخ، وبالفسحة الصغيرة عند المدخل. عندما يفرغ من العمل في الفرن يخرج كرسيا الى هذه الفسحة بعد ان يغيّر ثيابه ويجلس. يقال انه كان ينظر من هناك الى بيت الفتاة التي يحبها وهي لا تعرف مدى شغفه بها. يقول انه يحبها لكن كل ما يفعله هو الجلوس هنا، على كرسي القش، ممسكا بيده اليسرى ثلاث كلل أكبر من تلك التي يلعب بها الاولاد، يبقى جالسا لساعتين او ثلاثة، وفقا لطول النهار او قصره. يقلّب هذه الكلل بين اصابعه من دون ان يتعب وهو يلقي النظرات على شرفتها علّها تظهر لتنشر غسيلا او يلمح طيفها من خلف زجاج النافذة. حتى قيل انه بقي في حي آل السمعاني من أجلها...

يقدّس كلام أبيه وأمه. النساء اخبث من الرجال، قالت له أمه. يجلسن في الفرن بثياب البيت الرثة في صفيّن متقابلين الى طاولة الحجر الواطئة الملساء. في وضعية الهجوم، أرجلهن ممدودة وايديهن تعمل دون توقف. أيديهن والسنتهن. تغرف اليد من العجين قبضة تداعبها، تدعكرها بين يدها وصفحة الطاولة الحجر حتى تحولها قرصا ثم ترشّها طحينا خفيفا وتبدأ بتوسيعها. باليد اليمنى اولا طالما هي اقرب الى الطابة المستديرة ثم باليدين الاثنين كلما اتسعت دائرتها، ثم الشوبك يكمل ويوسّع ما بدأته اليدان، فتضرب المرأة فيه يمينا وشمالا، وفي جميع الاتجاهات. تدوّر الرغيف، وتروح ترقّه ثم تهلّه، وتلقي عليها نظرة أخيرة قبل أن تسلّمه الى سميح. النساء يلحقن به اينما اتجه. نزل الى المدينة سميح، دخل فرنا. لمجرد الحشرية. كان الخبز هناك صنعة الرجال وحدهم. لم يرَ أثرا لامرأة. أحس بالغيرة.

قبل ان يقف امام باب النار كان سميح يتعاطى مع النساء ايضا. حاول والده تهريبه من الفرن، خصوصا من الحرارة. اوقفه الى جانبه أياما لكن ما لبث ان أشفق قلبه فاقترح عليه ان يجرب مرافقة خاله. فصار يحمل له العدّة وينتقلان من بيت الى بيت. منجّد الفرش، خاله، يعمل

لدى الزبائن في بيوتهم، بعكس الفرّان. ترمي له المرأة بالفرشة امام مدخل البيت او في باحة يمكنه ان يرتاح للعمل فيها. يعملان في البيت عندما يكون الرجال في الخارج، في اعمالهم. يفتح سميح الفرشة او اللحاف ويبدأ خاله بضرب القطن الميت، ينفشه من جديد ليعيد سميح تعبئته وتقطيب الفرش او اللحاف. صنعة بسيطة مريحة لا تتطلب اكثر من قضيب الحديد وابرة وخيط... ومسايرة النساء هنا ايضا.

لكنه عاد الى الفرن، حمل "مرغفة" والده من جديد بعد وفاته. اقفل الفرن ثلاثة ايام فقط ليبكيه بشهقات عالية متقطعة بعد ان حمل تابوته، وحده من الجهة الامامية، واربعة رجال من الخلف. سلّم خاله عدّة التنجيد وودّعه قائلا إنه ابن والده الوحيد ولا يريد أن يقفل الفرن. نظر اليه خاله نظرة الاشفاق نفسها وقال له فقط:

. انتبه لعينيك، يا خالي.

حياته الفرن، ويبدو مكتفيا به. سبعة أيام في الاسبوع، والأحد زحمة لا مثيل لها. الكبّة، البرغل واللحم. مقالي الكبة بالمئات، نهار طويل لكنه مربح لا ينتهي الا حوالى الساعة الثانية بعد الظهر ليبدأ سميح عندها التمتع بوقته على هواه. يغيّر ثيابه، يغتسل، مرة في الاسبوع، يسرّح شعره ويخرج الى الشارع العام. يقصد "سبيل" الماء، على بعد مئتي متر من البيت ومن الفرن. يمشي الى هناك رافعا رأسه. سميح جديد، يتطلع الى العابرين كأنه يستدرج نظراتهم اليه. انه اليوم متنزه كغيره، خارج من بيته دون سبب سوى التشبه بالمتنزهين. يحصل احيانا ان يراه الجيران او العابرون قاصدا النقطة نفسها من الشارع، لكن في بحر الاسبوع، ساعيا الى الدكان بالقرب من عين الماء، لكي يشتري بيضا او لبنا. آنذاك يذهب بثياب الفرن العادية، يمشي مستعجلا، ينظر امامه، يسعى فقط للوصول والعودة بما اشتراه. رحلة قصيرة وسريعة ليست سوى تكملة لعمله في الفرن.

لكن كيف له الشعور بيوم الاحد إن لم يرتد قميصه النظيف ويمشي متباطئا حتى يصل الى قرب عين الماء فيقف وحده. لم يكن لديه وقت ليحظى بالاصدقاء. منتصبا وسط الرصيف، لا يتكئ على جدار ولا على شجرة، يحاول احتلال مساحة فارغة لا يشاركه فيها أحد. اذا مرت به النساء ابتسمن. هذا سميح في ثياب يوم الأحد. يبتسمن لمجرد رؤيته خارج الفرن كأنه غير مؤهل لأي سلوك غير صنع الخبز على باب النار. يتابع باهتمام زائد كل ما يمر في الشارع، كأن كل عبور حدث. السيارات الاميركية او سيارات المرسيدس الالمانية التي بدأت تظهر بكثرة، يلاحقها بنظره حتى تختفي عند المنعطف. الفتيات اللواتي يتنزهن على طول الطريق العام ممسكات بأيدي بعضهن البعض يتهامسن ويتضاحكن ما أن ينظر اليهن الشباب او "يسمعونهن" كلاما، موكب عرس او سباق الدراجات الهوائية. كان يبتسم عند ظهور المتسابق الاول المنحني باجتهاد فوق مقود الدراجة. يقترب سميح قليلا من سبيل الماء حيث يخفف الدرّاجون بثيابهم

الملونة من سرعتهم كي يلتقطوا من ايدي منتظريهم هناك قنينة ماء او سندويشاً يمكّنهم من الصمود في رحلتهم الطويلة. كان يعرف انهم سيتسلقون الجبال العالية بدراجاتهم الصغيرة هذه. ينتظر مرور آخر الدراجين في سباق نادي الهومنتمن فيصفق له بقوة. يصفّق وحده حيث لا ينتظره أحد، فيضحك الواقفون وهو يختم بصوت عال متوجها الى المتجمعين على الرصيف يتابعون المشهد ايضا:

. انتهى السباق، ليذهب كل منكم الى بيته!

يوم انقسم العرب عرَبَيْن، كان بيته في الجهة الأخرى فلم يغادره. نصحوه بالالتحاق بربعه كما يقولون، تيمنا بالعشائر الصحراوية لكنه رفض. قال هذا بيتي وبيت ابي وبيت جدي وسأبقى فيه وانا لم أؤذِ احدا والجميع يحبونني وكلهم من زبائني. بقي في البيت، على بعد خمسمائة متر فقط من حدود حيّ عائلته، على رمية حجر. عندما بدأ اطلاق النار، في بداية الاحداث، صار بعض ابناء عائلته ينادونه من خلف متاريسهم بالصوت المسموع ليطمئنوا على سلامته. كان يمكنه سماعهم بكل وضوح لكنه كان يتحاشى الاجابة. اذا سمع صوتا يناديه وهو خارج البيت، سارع الى الدخول واقفال الباب خلفه جيدا. بقي سميح في الجانب الخطأ من خط التماس.

لم يكن يسمّى خط التماس بعد. انها تسمية فصيحة لاحقة اطلقتها الصحف البيروتية على خط الاشتباكات الذي قسم العاصمة بعد عقدين من الزمن نزولا من التلال المطلة على المدينة مرورا بطريق الشام ووصولا الى المرفأ. لم يكن له اسم عندنا، او ربما لم نتوصل الى صياغة لفكرة هذا الخط الوهمي الفاصل بين حي آل السمعاني الى الطرف الجنوبي وحي آل الرامي الى الشمال من البلدة، ولو أنه كان مرسوما كالزيح النافر. يعرفه أهل البلدة جميعهم ويعرفون تماما وبالتفصيل الدقيق أين يمر وأين يلتف وأين يضيع في فسحة فاصلة لا هوية لها. خط التماس كما شاءه التوزع السكاني، يعطي السيطرة على المخرج الغربي للبلدة في اتجاه المدينة الى آل السمعاني، فيما يتحكم آل الرامي بالمخرج الشرقي الموصل الى البلدات العالية. الساحل لهم والجرد لنا. لكن الخط يتعقّد ما ان يدخل الاحياء المكتظة والحارات الرطبة القديمة العهد، فيلتف صعودا حول كتلة من المنازل صمد أهلها فيها بكثرة عدد الرجال بينهم وبقوة سلاحهم ليتوسع حي آل السمعاني صعودا او يترك مساحات مهجورة تتسع بين الحارتين اذا كانت مكشوفة من متاريس الطرف الآخر وصار السكن فيها مستحيلا. المهم ان الخط هذا مرسوم في رؤوس أهل البلدة من صغيرهم الى كبيرهم. يعرفون جميعهم انهم اذا تقدموا عشر خطوات اضافية في هذا الاتجاه او ذاك، ينتقلون من حي الى آخر. لم يكن الشارع العام هو

الفاصل، فالأمر أكثر صعوبة، لذا كان دائما من المضني ايضاح الأمر للغرباء. ارتسم الخط تدريجيا، مع تزايد التوتر، بقي اجتيازه ممكنا بعد حادثة برج الهوا لغير المتورطين مباشرة، لكن الحركة بدأت تتضاءل عندما ارتفعت المتاريس. بدا وكأن هوة عميقة صارت تفصل بين الحارتين. انتهت الاحداث، انتخب قائد الجيش رئيسا للجمهورية بموافقة مورفي، المبعوث الاميركي الخاص الى لبنان والرئيس المصري جمال عبد الناصر، تألفت حكومة وحدة وطنية، ارسلت الجيش من جديد الى البلدة، رفعت المتاريس بعد ثمانية اشهر لم يتزحزح خلالها "خط التماس" قيد أنملة.

اسمه سميح الرامي. وبيت والديه والفرن الملاصق له في حي آل السمعاني، على بعد خمسمئة متر عن المدرسة التكميلية الرسمية الاولى للبنات، كان يجتازها "خط التماس" في وسطها. لم يتمكن أي من الفريقين من التمركز ونصب المتاريس فيها.

في البداية لم يظهر عليه اي شعور بالقلق، كأنه متكئ على قوة خفية تحميه وتستثنيه من الخطر العام. آل السمعاني انفسهم، نساؤهن اللواتي لا يخفى عليهن شيء كن ينسين انه من آل الرامي. اذا اشتدت وطأة الاحداث كن يشتمن عائلته وهن يرققن العجين من دون ان يتوقعن منه جوابا. كانت تزعجه فقط تلك الاصوات التي تناديه من خلف المتاريس، من جانب رجال عائلته المسلحين. الاصوات التي يتعرف الى بعضها والتي تطلب منه احيانا مغادرة حي آل السمعاني والمجيء اليهم.

. سيقتلونك يا سميح، هؤلاء لا ذمة لهم ولا دين!

طلب من الخوري بولس ان يبلغ رجال عائلته في الطرف المقابل أنه بخير، وان لا يقلقوا عليه، لكنه أصر عليه بشكل خاص ان يطلب منهم التوقف عن مناداته كي لا "يفتحوا العيون" عليه. توقفوا عن السؤال عاليا عنه، لكن بقي في متاريس آل الرامي القريبة من يتقدم متسللا بضعة أمتار على أمل أن يلمح سميح خارجا من فرنه او داخلا اليه ليطمئنّ الى انه لا زال حيا يرزق.

لم يتغير الشيء الكثير في حياة سميح اليومية. سوى نزهة يوم الاحد، تلك الغندرة القصيرة المدى الى الطريق العامة التي لم يعد يمر عليها الدراجون بقبعاتهم الغريبة وقمصانهم المزركشة، والتي هجرتها الفتيات والسيارات الاميركية والالمانية. في الفرن زاد تركيزه على بيت النار. فما عاد يسعى بانحناءته الدائمة هذه الى التهرب من الرد على اقوال النساء وتناولهن الآخرين فقط، بل صار يحاول ان يحشر رأسه أقرب ما يكون الى فتحة الفرن عله لا يسمع

اطلاقا ما تقوله النساء. وخصوصا عندما يشيع خبر مقتل شخص من آل السمعاني في المتراس او الأسوأ اذا وقع احد شبابهم العزّل ضحية كمين نصب له خارج البلدة. لأن النساء لم يكن يوفرن احدا بألسنتهن. انقلبت ثرثراتهن دعاء. لم يكن يوجهن اليه الكلام عموما ولو ان امرأة بين الحين والحين تتوجه اليه بالقول وهي تنظر في عينيه:

. ابناء عمك سرقوا البارحة بيت الياس الرامي ثم دمّروه بالديناميت، يخرب الله بيوتهم!

يرفع سميح عينيه الى السماء مسلّما ومعلنا تبرؤه من كل ما يحدث. سميح وحيد ووالده وحيد وجدّه وحيد، لا يُعرف لهم اقارب مباشرون، ابناء عم "خيّ البيّ" من آل الرامي لتتكوّن لهم عزوة منيعة، ولم يعرفوا انفسهم الا من آل الرامي. لا ينتمون الى جبّ وسيط. حتى قيل عنهم أنهم من أصل آل الرامي.

كان سميح يتحاشى السماع وخصوصا يتحاشى الكلام. واذا تفوّه بكلمة فبالخبز او العجين أو عدّ أرغفة "الكري" وهي حصة الفرن، ارغفة يأخذها من العجنة فيعمد الى بيعها، لان سميح كان يعدّ بصوت عال كأنه غير قادر على اثبات الرقم الا اذا نادى به، او ربما فعل ذلك بهذه الصورة الاحتفالية ليؤكد أمام شهود بأنه يأخذ حقه دون أي رغيف زيادة.

ربما كان مقتنعا ان سلامته في لسانه. اذا لم يتكلم بقي سالما. فكرة "اللسان الدافئ"، أهمية الكلام والأذيّة في الكلام علّمه اياها والده، وربما تكون نصيحة والده الأخرى اليه بعدم الاصغاء الى النساء مرتبطة بهذه الحيادية في الكلام أكثر منها في الحرص على تفادي حرق الارغفة او مقالي الكبة يوم الأحد في بيت النار.

اندلعت الحرب فصار يدرس تحركاته. من الفرن الى البيت الى الدكان، لا غنى عن الدكان، المثلث الاقرب، فقط لا غير. والدكان البعيد بعض الشيء والمكشوف على الناس يخرج اليه في بداية العتمة، فيقلل من احتمالات الخطر. صاحبة الدكان أرملة يقايضها الخبز احيانا بالبيض او لبن الماعز الذي يحب شربه باردا. يعدّ الارغفة بالصوت العالي وتعدّ البيض بأعلى صوتها ايضا. يعرّج احيانا على الكنيسة.

كان سميح يشتاق الى الكنيسة، لكنه لم يكن منتظما في واجباته الدينية، فهو محروم من قداس الاحد بسبب الفرن. يشتاق الى الكنيسة، يدخل بصورة خاطفة، يُغمس أصابعه في جرن الماء المصلّى عليه، يركع في محاذاة الحائط، الى جانب صورة العذراء السمراء الهندية الملامح التي أصر المتبرع ببناء الكنيسة، وكان مهاجرا الى المكسيك، ان يكون لها مكان خاص، يتمتم سميح صلاة سريعة ويقفل عائدا. لا يلتقي رجلا في نهاره تقريبا، الا بعض عابري السبيل. اذا كان لا بد من الخوف صار يخاف النساء، فقرر ان الخطر يأتيه من النساء.

... لكن الموت يأتيه من الرجال.

يوم قتل شاب "متعلم" منهم، جاؤوا.

جاؤوا ثلاثة يرافقون عمّ الشاب القتيل.

بقوا خارجا وتقدم عمّ القتيل الى الباب.

سدّ الباب مانعا الضوء عن الداخل، كان عريض المنكبين.

كان ابن اخيه في صف الفلسفة في مدرسة الفرير، يستعد للتقدم الى الامتحانات الرسمية التي تأجلت بسبب الاحداث. كان يمضي وقته في الدرس.

قتلوه والكتاب في يده، تقول أمه وهي تبكيه.

ربما تقصد مجازا أن ابنها تلميذ لا يتقن لغة السلاح، أو ربما كان فعلا يراجع دروسه على الشرفة حيث أعتقد أن رصاص الطرف الآخر لا يمكن أن يطاله. كأن آل الرامي تسللوا الى حيث يمكنهم ان يكشفوا على ساحة خلفية أو بيوت جديدة اعتقد أهلها حتى الآن انهم في منأى عن رصاصهم لذا بقيت تحركاتهم طبيعية. يغافلونهم فيصطادون منهم واحدا. بعد ذلك يتحاشى سكان الحيّ المكان المكشوف او يبنون جدارا مرتجلا يقيهم الرصاص من المتاريس المقابلة.

عمه رجل عريض المنكبين، غليظ القسمات. لم يرسل اولاده الى المدرسة، شقيقه فعل. فكافأوه.

هرع الى بيت أخيه فور تلقيه الخبر، انحنى فوق كتفه:

. ألم أقل لك يا أخي أن لا تعلّم اولادك؟

لم يضف كلمة واحدة.

كأن ارتياد ابن اخيه المدرسة كان سببا في مقتله.

لن تغيب الشمس على مقتله على كل حال. أقسم برحمة أمه. هذا ما قاله في نفسه عمّه الغليظ القسمات.

اصطحب واحداً من ابنائه. واحد يكفي. وشابان من الاقارب المتحمسين.

كانوا يعرفون بوجود سميح. جميع آل السمعاني يعرفون بوجود سميح، لكنهم يتجاهلونه، يحتفظون به الى يوم الحاجة.

لم يبدأوا به. انه صيد سهل ربما. حملوا بنادقهم، ركبوا سيارة واختفوا وراء المنعطف. سرعان ما عادوا ادراجهم.

لم يوقّفوا على الارجح. ربما انتظروا وانتظروا ولم يمر أحد.

توجهوا الى الفرن.

وقف الرجل في المدخل. نادرا ما يحضر رجل آخر غير سميح الى الفرن.

لم يلتفت اليه سميح. اعتقد ربما ان الرجل ينادي زوجته او امرأة من اقاربه لأمر طارئ.

الرجل لم يحك ولم يدخل. وقف في الباب، حجب نور الخارج.

لم يكن خبر مقتل الشاب على شرفة منزله وهو يراجع دروسه قد شاع، لذا لم تهتم النساء كثيرا لوقوف الرجل في الباب.

أكملن الرقّ والتوسيع ورش الطحين. لكنهن اوقفن تبادل الاحاديث احتياطا.

كانت يد الرجل اليمنى وراء ظهره، أنزلها فظهر المسدس. كان ملقما، جاهزا للاطلاق، يلمع في ضوء الشمس الباهرة.

رفع يده مصوّبا، تمتم كلمات غير مفهومة وأطلق ثلاث رصاصات.

أصابت جميعها سميح الذي لم ينتبه الى ما كان يحدث عند باب الفرن. وهو ربما لم يكن يرغب في معرفة ما يحدث.

كان يتحين اللحظة المناسبة لاخراج الرغيف من بيت النار، ينتظر رائحة الاحتراق في بدايتها ورؤية النقاط السوداء الصغيرة.

قال الرجل كلاما عاليا لم تسمعه النساء. انفجار الطلقات الثلاث داخل غرفة الفرن الصغيرة أصمّ آذانهن.

رد الرجل مسدسه الى زنّاره وانسحب هو واقاربه. عاد نور النهار يغمر داخل الفرن.

لم يقع سميح أرضا.

سقط جالسا على الكرسي الذي كان يحتفظ به الى جانبه.

جلس وفي عينيه عتب بسيط.

كان ينظر الى النساء، واحدة واحدة.

XVIII

لا توءاخذني إن كنت استقبلك في هذا الزيّ، فأنا أعيش وحيدا منذ سنوات عدة ولا أخرج من باب البيت الا نادرا. المرأة التي تنظّف لي البيت لم تحضر هذا الاسبوع، لا ادري اين اختفت ولا ماذا سأفعل بدونها... إقترب إقترب، لا تستحِ، سأخبرك ما تريد أن تعرفه. لا أعرف من دلّك عليّ فأنا أذكرك منذ كنت صغيرا تركض في الحارة وتصرخ كاملة وراءك:

. يا ايليا!...

وانت لا تلتفت. لا زال لحن ندائها لكَ في أذني:

. ياا... ايلياااا...

أَجلس هنا، هنا مكاني تماما على هذه الكنبة الحمراء، أحب ملمس المخمل ولو انه يزيد الشعور بالحرّ في فصل الصيف.

من أين أتيت بهذه الصورة؟ أعرف دافيديان، كان له استوديو في الساحة وأعرف ايضا مصوّراً لا يعرفه الكثيرون اسمه خورخي العنداري كان يحب تصوير النساء وقد التقط لي أجمل بورتريه احتفظ به. لكنه مات في ظروف غامضة. نعم هذا هو والدك، هذا يوسف الكفوري، كانت طلّته حلوة واذكر انه كلما التقيت به كان يسألني:

. كيفك يا ابن العاصي؟

وحده كان يسمّيني ابن العاصي.

أنظر. من هذه النافذة، إقترب مني، اقترب، ماذا ترى هناك، العريشة وسطح القرميد الصدئ، أليس كذلك؟ هذا بيتكم، ربما لست معتادا على رؤيته من هنا. وهذه أزهار أمك كاملة وعربَيْشاتها. يعتقد الناس ان بيتنا بعيد عن بيت يوسف الكفوري، انهم مخطئون. انظر. لا يفصلنا عنكم من هنا اكثر من رمية حجر. انتم أقرب الجيران الينا. لكن اذا اضطررنا الى زيارتكم صار علينا اليوم ان نسلك الطريق العام والالتفاف من جانب الكنيسة صعودا. طريق طويلة، وانا صراحة لا احب المرور هناك. فطوال النهار وحتى منتصف الليل في سهرات الصيف الدافئة يبقى الاولاد فالتين في الشوارع، والاولاد وقحون لا يحترمون أحداً، والنساء أمهاتهم، أشدّ وقاحة منهم، يبقين جالسات على كراس واطئة امام البيوت والدكاكين فاتحات أرجلهن واحناكهن، ينتظرن مرور أي كان لقول السؤ فيه. يسخرن مني لاني أمشي، كما يقلن، على رؤوس اصابعي لكني لا اعيرهن اهتماما. هذه مشيتي ولن أغيّرها كرمى لسود عيونهن.

كنا في الماضي نجتاز سيرا على الاقدام هذا البستان الذي يفصل بيننا لنصل الى فوق، طريق ترابية عند طرف البستان لا تؤذي احدا وتوفر علينا الكثير. والحقيقة كان البعض منا في مروره صعودا او نزولا يمد يده الى ليمونة افندي او الى حبة أكي دنيا لاننا نعرف في نهاية الموسم ان كل شيء سيموت على أمه في هذا البستان المهجور. فقام احد ابناء الحرام بابلاغ اصحاب الارض بسلوكنا وهم اناس مهاجرون قديمون الى المكسيك. كتب لهم رسالة صوّر لهم فيها أن ارضهم هنا مستباحة، فارسلوا، وهم هناك من كبار الاغنياء ويسمّونهم ملوك القطن، ارسلوا الى احد اقاربهم البعيدين يطلبون منه ان يسيّج البستان ويمنعنا من سلوكه لاختصار الطريق.

أمك تعرف القصة، إسألها. مع ذلك، اذا ارتفع صوت على الشرفة عندكم كان يصلنا الى هنا بكل وضوح. كنت اسمعك من هنا تعزف على الاكورديون. اذكر انك كنت تحب الالحان الفرنسية. السعال على الشرفة عندكم نسمعه. وعندما يكون الليل هادئا يصلنا الحديث الدائر هناك ولو كان سولفة عادية بين كاملة ومنتهى، رفيقتها من يوم انتقلت الى الحارة. الصوت يودّي في الليل. كانت شرفتكم مقصودة جدا من الجيران، وسررت في الايام الماضية عندما رأيتهم يعودون الى بيتكم لتهنئة امك بقدومك. كاملة لم تكن طوال عمرها منزوية هكذا، لكن الامور تبدلت مع الوقت وصارت في المدة الاخيرة وحيدة في اغلب الاحيان. تقلّم الازهار وتسقيها وتتحدث معها. أمك تغضب من الازهار اذا ذَوَت او بدأت بالذبول. تنهرها، واحيانا تغنّي. نسمع صوتها من هنا وهي تردد المواويل. صرنا ننتظر صوتها الحزين كل ليلة تقريبا.

كنت اعجب من صوتها الجميل والقوي بالرغم من تقدمها في السن الى ان عرفنا ذات يوم، ليس من زمن بعيد، انها سجلت صوتها على شريط. هل تعرف ذلك؟ سجلت صوتها لتعيد سماعه، ونحن في الحقيقة كنا نصغي طوال هذه الليالي الى صوت المسجلة. كاملة اقتنت مسجلة قبلنا لكننا اشترينا الراديو قبلكم وقبل كل الجيران في الحي تقريبا. لم تكن قد ولدتَ بعد عندما بدأتُ أجلس هنا. كانت أمي تضع لي فنجان القهوة كل صباح على هذه الطاولة الصغيرة لانها تعرف اني سانهض لاجلس هنا حيث كنت أمضي القسم الاكبر من وقتي وانا استمع الى الراديو وأدخن السجائر.

كنت مغرما بالراديو، أحب خصوصا اغاني ليلى مراد ومحمد عبد الوهاب. وعندما شاعت المسرحيات الاذاعية صرت اتابعها يوميا، لكني لم أكن اجرؤ على رفع الصوت. بقيت سنوات بعد حادثة برج الهوا لا اجرؤ على رفع صوت الراديو. كنت أضع الراديو هناك، في الصالون، واعتقد اننا اشتريناه باكرا بسبب أوديت ابنة خالتي التي انضمت الى جوقة الاذاعة في بيروت كما اخبرونا، وانهم اختاروها لكي تغنّي وحدها فوفّرت أمي المال واشترته. وعندما حان موعد بث اغنية اوديت تجمّع الجيران عندنا وعلت الزغاريد من أمها وأمي وكانت هي جالسة معنا.

كان ذلك قبل الاحداث، من بعدها لبسوا جميعهم الاسود، توقفوا حتى عن دقّ الكبة في الجرن، وانا صرت احرص على خفض الصوت ما يكفي فقط لاسمع الاغاني اذا ما دخلت الى المطبخ. وكنا اذا ما سمعنا قرعا على الباب، نسارع الى اسكات الراديو قبل فتح الباب. وبقينا على هذه الحال لسنوات حتى بعد ان توقفت الاحداث وعاد الناس الى الاختلاط فيما بينهم. كنا نُسكت الراديو، انا اقوم بالمهمة وأمي تخبّئ الكلب في الخزانة في غرفة النوم كي لا يصل صوته الى الزوار حتى لو نبح من هناك. نعم، كنا نطفئ صوت الراديو ونردّ عليه بيت القماش كأننا لم نلمسه من زمن طويل، ونخفي الكلب الافرنجي الابيض. يجالسني، طوال الوقت وانا هنا. يُغمض عينيه، يطلق نبحة خفيفة اذا تحرك شيء بسرعة حوله، سمّيته فريدي لكني لم أكن أجرؤ على اخراجه الى الطرقات، كنت أخشى أن يلحق بي الاولاد ويصفَرون لي. متوحشّون، لا أهل لهم.

لم نكن نسمح لانفسنا بأغاني الطرب، خصوصا نحن، بيت العاصي. كنا نخشى ان يعتقد البعض اننا مسرورون بما حدث، او قد يتخذها البعض حجة للتهجم علينا. يريدوننا ان ننحاز الى جانبهم لكننا لا نريد الاذى لا منهم ولا من غيرهم. كما كنا نخاف ان يصل صوت الراديو الى مسمع أمك التي لا تبارح شرفة بيتها قبالتنا. كنت أجلس هنا، استمع الى اسمهان وليلى مراد وأحلم بالمسرح. كنت في الثامنة عشرة وقد بدأتُ اعتني بمظهري وادرس نظراتي. اتذكر اني كنت انتبه الى طريقة جلوسي وأطيل النظر في المرآة. لكن بالرغم من انتباهي كان

الجميع يقولون لي اني عندما امشي تميل كتفي اليمنى نزولا ويتهمونني اني أمشي على رؤوس اصابعي. صحيح اني اعتقد نفسي قصير القامة لكن هذه ليست طريقة كي أكسب بعض الطول. كنت في ذلك الوقت صعدت مرة واحدة الى خشبة المسرح. أصررتُ أن يعطوني ولو دورا صغيرا في المدرسة فوافق الاستاذ وألبسني ثوبا اسود وامسكني شوكة نقْبٍ حديد طويلة ودرّبني على عبور المسرح من اليمين الى الشمال لأقول جملة واحدة:

. انا سيفوروس رب الجحيم وإله جهنم!

قلتها مرتين وتوقفت في مكاني رافضا الخروج من الجهة المقابلة. استسغتُ الوقوف امام الجمهور، الى ان بدأ الاستاذ ينتف شعره وراء الستارة ويصرخ بي ان أكمل طريقي. سمعته أمي من المقاعد الاولى المخصصة لاهالي الممثلين فاعترضت عليه ووقفت تطالبه بالصوت العالي بان يتركني لوقت اطول على المسرح. أما والدي فلم يعجبه دور الشيطان لابنه، ولا دور يوضاس يوم اختاروني له في خميس الغسل حيث غضب وقال لي اني جميل الطلعة فلماذا لا يعطونني دور يسوع او القديس بطرس مثلا.

المهم ان أهلي خافوا عليّ عندما لاحظوا كيف استحكمت بي الجمدة كما كانوا يقولون. كنت بلغت السادسة عشرة، لا أخرج من البيت الا اذا قررت الذهاب الى السينما، كنت من القلائل من الذين يحضرون افلاما في صالتي السينما في البلدة عندما صار لكل حي صالته. وباقي الوقت أجلس هنا، بقيت لسنوات جالساً هنا، في الكنبة المخمل الحمراء هذه نفسها. احدثتُ حفرة فيها مكان جلوسي، انظر، جالساً أدخّن اللاكي سترايك، علبتين في اليوم، واتخيل نفسي في مواجهة الجمهور مضطرا للمحافظة على وقار وجدية في ملامح وجهي.

لا بد انهم قالوا لك اني غريب الاطوار. اعرف ما يقوله الناس عني. كان الكثير منهم يسخرون من مشيتي ولا يتوقعون لي نجاحا في المستقبل. اعتقد انهم كانوا يهمسون عني اني مهزوز، وكانت احكامهم سريعة لا تقبل الاستئناف. المهم اني كنت على المسرح دون توقف. معهم حق اني كنت منشغلا بنفسي.

اعتقدتُ اني همفري بوغارت لان احدهم قال لي مرة اني اشبهه فصرت أفصّل قمصاني قصداً عند خياط في طرابلس يضيف اليها اول حرفين من اسم صاحبها، وكنت اطلب منه ان يطرّز لي على الصدر حرفي الهاء والباء، لكنه كان يعجب لانه يعرف اسمي الحقيقي، حتى اضطررت ان اقول له اني أُخيطها لشخص صديق له المقاس نفسه واسمه يبدأ بهذين الحرفين، فلم يكن امامه من سبيل سوى الاقتناع. امشي مثلما كنت اعتقد ان همفري بوغارت يمشي. اقف وقفاته كما درستها في فيلم "كازابلانكا". اضع قبعته عندما اكون وحيداً في البيت وأمرّن صوتي على ايقاع صوت يوسف وهبي. ولم اكن قد شاهدتُ بعد يوسف وهبي في السينما. كنت اعرفه فقط من صوته في المسرحيات الاذاعية، كما اني لم أكن افهم ما يقوله همفري بوغارت

بالانكليزية، فمزجت بين صوت يوسف وهبي الوقور ووقفة همفري بوغارت الرجولية. وكانت أمي تأتي احيانا لتجلس بجانبي وتسألني بمحبة وهدوء ماذا انوي أن افعل بمستقبلي، وان والدي قلق جدا عليّ حتى انه يأرق في الليل من همّي وهي تخاف عليه من نوبة قلبية بسببي. ما كنتُ اجرؤ ان اقول لها ما اريد، لاني قد اتسبب لو افصحت عن رغبتي الحقيقية بمشكلة صحية لها ولوالدي.

كانت امي تستطلع معي ذات يوم سيرة المستقبل والشغل والهمّ هذه، عندما سمعنا صراخا تبعه طلق ناري واحد، ثم عويل بدأ يتصاعد من ارجاء الحي كافة، وتلى ذلك زمامير سيارات وهدير دبابة عسكرية تطلق صفارتها. وبعد ذلك ارتفع صوت جرس الكنيسة. صرنا خبراء في فكّ رموز الاصوات التي تصلنا وقد زادت خبرتنا فيما بعد خلال الاحداث. لم نكن نجرؤ على الخروج للاستفهام. نفضل عدم التدخل ونكتفي بالاتكال على ما نسمعه لندرك ما يحصل. بيتنا هنا كان منعزلا، محاطا بالبساتين، فجيراننا الذين تراهم هنا الى اليمين بنوا بيتهم منذ سنوات قليلة فقط. لم يكن قبالتنا من نناديه ليخبرنا الا أمك كاملة، وكنا نفضل عدم التحرش بها بالسؤال لاننا نعرف كم يمكنها ان تكون جارحة في ردّها احيانا، ونحن كنا نريد السترة. أمك امرأة قوية. وفي ذلك اليوم جاءنا الصراخ ايضا من بيتكم. صراخ أليم. اذكر جيدا ان أمي قالت بنبرة جازمة:

. قُتل يوسف الكفوري، تسكّر بيتهم!

لم تكن انت قد وُلدتَ بعد وكنا جميعا نعتقد ان كاملة لن ترزق بولد. وعمك لم يتزوج، وعمك الثالث كان مريضا كما تعرف...

. كيف عرفت ان يوسف الكفوري قُتل؟

. لن تصرخ كاملة هذا الصوت الا على زوجها!...

لكن عندما ازداد الصراخ وتنوعت الاصوات، وخصوصا قرع الجرس، تأكدنا ان ما يحدث كبير جدا.

. سترك يا رب، هناك الكثير من القتلى!

قالت أمي. لا أعرف ايضا ما الذي اوحى لها بأن هناك العديد من القتلى.

أردتُ الخروج لكنها أمسكتني من يدي وقالت لي:

. اننا غير معنيين بما يحدث.

فسألتُها:

. ماذا يحدث؟

فاجابتني:

. الحمد لله نحن لا دخل لنا في هذه المشاكل.

كنت اسمع اخبار المشاكل لكني لم أكن اهتم، فنحن كما تقول أمي من عائلة صغيرة. هناك بيتان من آل العاصي فقط في البلدة. نحن، أي أبي وأمي واخوتي وانا، وبيت خليل العاصي، النجّار. والغريب في الامر اننا لا نعرف اننا على صلة قربى معهم لكن بسبب حملنا الاسم نفسه صرنا نتودد اليهم ويتوددون الينا ولو بالكلام وبمناداة بعضنا بـ"يا ابن عمي" مزاحا وتقليدا للعائلات الكبيرة. لكننا كنا في الوقت نفسه نخشى التقرّب منهم. فبيت خليل العاصي متحزبون مع آل الرامي وهذا حقهم. فهم يسكنون وسط حارتهم لكننا لا نريد ان نرتبط بهم ونُعتبر من اقاربهم وبالتالي نربح عداوة الآخرين. يخبرنا والدي كيف ان آل السمعاني عرضوا على جدي اضافة اسم السمعاني الى اسمنا او استبدال العاصي بالسمعاني لكنه رفض. أمضينا حياتنا نمشي على حبل رفيع، تعرف أمّي قواعد السير عليه. وكانت اولى القواعد تحاشي تجوالنا في ايام الخطر والتوتر لأن اطلاق النار علينا لا يرتب على مطلقه أي نتائج ويصنف عموما في باب "الخطأ".

. لا اريدكم ان تموتوا عن طريق الغلط...

كانت تقول. وقد كبرنا على نفسية خاصة: لا نقول رأينا في ما يحدث حولنا ولا ننقل لاحد خبرا او معلومة او اي شيء نعرفه، فمن تعليمات أمي ان "من أبلغك أهانك". لذا كنا نسمع ولا نحكي. نسمع الاصوات ونتكهن بما يحدث. وكان أبي وأمي يحددان الاصوات ويتوقعان نتائجها، اصوات البشر واصوات الرصاص.

اولا، الرصاص "الغميق" ليس مطمئنا لسبب مفهوم. فالرصاص "الغميق" ليس فقط بعيدا في المسافة بل كونه لم يحدث رجعا للصدى. يفترض انه اطلق على الهدف مباشرة وقد يكون الهدف على الارجح بشرا، فيصبح توقع انباء سيئة بعد الرصاص "الغميق" واردا جدا. يليه الرصاص "العرّاسي" (او في الجوّ او في الفلاء) كما يقولون، نسبة لفرحة الزفاف، وقد تنوعت مناسبات رصاص الفرح، من النجاح في الشهادة الرسمية الى انجاب صبي بعد طول انتظار، الى حد اقدام احدهم على اطلاق رصاص بندقيته ليسجلها على شريط يرسله الى شقيقه المهاجر في اوستراليا، والمحروم هناك، كما افترض شقيقه المقيم، من سماع صوت الرصاص. او ما قيل ولم يتأكد تماما ان جيران ابو سعيد واقاربه راحوا ذات يوم يطلقون الرصاص في الهواء رافضين البوح بسبب فرحتهم، ولم يخرج السر من بينهم الا بعد ايام وبفضل النساء اللواتي سرّبن الى خارج الحارة ان ابو سعيد اصيب بانتصاب دائم لذكره وكاد يموت من الهم وراجع العديد من الاطباء، ويوم "نام" معه كما قالوا، راح الاهل والجيران يطلقون النار فرحا. وهناك رصاص "التكليم" أي عندما يُطلَق رشق يقابله جواب، وهذا ليس اسوأ الاصوات كونه الدليل على ان

الفريقين على سلاحهما واستنفارهما والاحتمال الارجح ان الامور تبقى محصورة في نطاق اثبات الوجود ولن تقع اصابات. ولعل اسوأ انواع اطلاق الرصاص هو الذي لا يُسمع عن بعد لانه يكون قد سُدِّد "دحشا" أي على مسافة قريبة جدا من الهدف بحيث يستحيل إخطاؤه. وغالبا ما تُسمع عبارة " لم يعجبني هذا الرصاص"، وهو تقييم يعكس في الغالب الحالة النفسية السيئة للقائل اكثر منه الاستناد الى معطيات ملموسة. وكان هذا الاستنكار . الذي تحول شتما صريحا . يطال خصوصا هذا الطلق الناري المفرد، وهو على الارجح طلق بندقية كان يكسر صمت المتاريس فيولع المواجهة. وقد انتهت الاحداث ولم يعرف أحد من هو صاحب البندقية ولم يتأكد من اي جهة كان يطلق النار، اذ تبيّن ان كل طرف كان يعتقده في المتاريس المقابلة.

وكانت هناك مشكلة الصدى. فلو كان لدينا زائر جديد فسيختلط عليه الامر، لانه وبفعل الصدى كنا نعرف ان الصوت الآتي من الشرق يمكن ان يكون مصدره الجهة الغربية. أكثر ما اختلط علينا الامر كان في فك رموز الانفجارات واطلاق النار، عندما سقطت قبالتنا أول قنبلة هاون 60 تُطلق في اتجاه الحيّ الذي نحن فيه. رأت امي الدخان المتصاعد من ضفة النهر فجحظت عيناها وقرر والدي في قرارة نفسه ترحيلنا من هنا.

عرفنا دون ان نخرج من البيت ان حادثا كبيرا قد وقع. كانت تلك ليلة صعبة، لم ينم فيها أحد في الحي. كنا من وقت الى آخر نسمع بكاء، وهناك من كان يصر على قرع جرس الحزن في الليل. هل سمعت مرة جرس الحزن يقرع في الليل؟ كانت تصلنا ايضاً صرخة ألم منفردة. كانوا يسهرون على القتلى وكنا نحن ممنوعين من مغادرة المنزل. حتى الجنازة في اليوم التالي لم نجرؤ على حضورها، وقيل لنا ان المطران دعا الجميع الى نبذ الاحقاد والثأر والى التسامح فطلعت عليه الاصوات المستنكرة واضطر الى اختصار عظته. لم انم انا ايضا طوال الليل. كان الهواء ثقيلا وكنا نعرف انهم متجمعون هناك، حول الكنيسة، يبكون ولا يصلنا بكاؤهم.

مساء اليوم التالي، أدرتُ جهاز الراديو من جديد. لم اتمكن من حرمان نفسي منه أكثر من يوم واحد لكني قرّبته من الكنبة الحمراء هذه، وكنت تقريبا الصق اذني به لاسمع تفاديا لوصول الصوت الى اي كائن آخر. كان الليل عميقا، لا قمر ولا ضوء. اذكر اني كنت استمع الى أغنية "الهوى والشباب" لمحمد عبد الوهاب عندما انقطعت الكهرباء. فصرخت أمي انه لم يكن ينقصنا سوى ذلك في هذا اليوم الظالم. كان الصمت كاملا في الحي وفي البلدة كلها بعد نهارين من الشقاء وليل لم يغمض لاحد خلاله جفن. جاء موعد ارتخاء الاجساد. كانت البلدة كلها كفريق من العدائين الذين انهوا سباقا مضنيا واصابهم التعب الكبير فارتموا ارضا لاستعادة انفاسهم. نحن كنا الاقل اصابة. فلا اقارب لنا بين القتلى ولو اننا كنا نعرف العديد من بينهم، فريد بدوي السمعاني، الخياط، وكان شابا جميلا يمازحه أبي دائما وهو لا يجيب الا بابتسامة

غامضة. ونعرف يوسف الكفوري، والدك المسكين، كان يحب الحياة والسهر... ويحب النساء ايضا، وكاملة كانت تعرف ولا تشتكي.

كنتُ جالساً اذن فانقطعَتْ الكهرباء وتوقف الراديو عن الغناء. أمري لله، صرت جالسا أدخن في الظلام وانتظر. كان الصمت نادرا، لا يقطعه سوى نقيق الضفادع بالقرب من النهر، والعتمة كاملة تلمع فيها "بصابيص" الليل فقط. اذكر اني استمتعتُ كثيرا بالسكوت تلك الليلة بعد ضجيج النهار وتعب القلب والبكاء. بقيت هكذا لساعتين وأكثر وكنت اتمنى ان تدوم هذه السكينة لوقت اطول. لكن فجأة عادت الكهرباء. فحصل خلال ثوان ما لا يمكنني نسيانه، وفي الحقيقة لم أخبره لأحد سوى لأمي. واليوم وقد توفيت أمي، لم يعد أحد غيري على علم بما رأيت واردت أن اخبرك بذلك. لا اعرف من ارسلك اليّ. انا لم اتحرك من هنا، من كنبة المخمل طوال مدّة انقطاع الكهرباء. كنت فقط اشعل عود كبريت مرة كل نصف ساعة لأشعل سيجارتي. لكن عندما عادت الكهرباء فجأة رأيت أمرا غريبا وسأخبرك اياه لأنه مرّ عليه اربعون عاما:

أضيئت الكهرباء في بيتنا وفي غرفة الجلوس هنا، ومع الكهرباء انطلق صوت الراديو عاليا. انطلق صوته عاليا جدا مع اني عندما انقطعت الكهرباء كنت خفضتُ الصوت الى حد لا يمكن لأحد سماعه غيري. فوجئت بعودة الكهرباء وانطلاق صوت أم كلثوم في الليل، فكانت اول ردة فعل لديّ أن نظرتُ في اتجاه بيتكم تحسبا كي لا تكون أمك او احد غيرها هناك يمكن ان يسمع الاغنية، وقد قمت بذلك حتى قبل ان أمدّ يدي الى المفتاح لأخفض الصوت. المهم ان ذلك كله حدث خلال ثوانٍ. انطبعت في ذهني الصورة لكنني لم أعرها اهتماما في اللحظة التي رأيتها فيها لأني كنت منشغلا كثيرا بموضوع الراديو والصوت العالي والبهدلة المترتبة عن ذلك وما يمكن ان يقوله والدي من اهمالي هذا وفضيحة استماعي للراديو بالرغم من سقوط كل هؤلاء القتلى من جيراننا واصحابنا. عندما تمكنتُ من اطفاء الراديو كليا وتأكدت ان لا احد سينقضّ عليّ مستنكرا لانهم كانوا جميعهم نياما في سبات عميق بعد يومين من الأرق، عدت الى جلستي هنا على الكنبة الحمراء، فانتبهت في تلك اللحظة الى ما كنت قد لمحته يحدث في بيتكم وهو كان لا يزال يدور امام ناظري. رأيت فؤاد وبطرس الرامي على الشرفة، كما في الايام الماضية. شعرت اني مخطئ في الزمن واني أرى مشهدا من ايام عدة خلته لا يزال مطبوعاً في مخيلتي. تعرف من هما فؤاد وبطرس الرامي، أليس كذلك؟ صحيح انهما أعزّ اصدقاء والدك لكن كيف يكونان هنا وهما من آل الرامي؟

كنا نعرفه هو وشقيقه بطرس كانا "يشربان كأسا" احيانا على الشرفة مع والدك، وكاملة تحضر لهم المازة فتصلنا الى هنا رائحة اللحم المشوي والقهقهات. وفي بعض السهرات كان فؤاد الرامي يصرّ على كاملة ان تغنّي، فيشجعها على ذلك والدك فترسل في الليل عتابا وميجانا تعقبها بضحكة حياء وتنال عليها استحسانا مطولا...

قيل لنا في ما بعد انهما جاءا ليقدما التعازي الى كاملة، وهناك من اوصلهما اليها تحت جنح الظلام. لم يصلنا كلام من هناك، من الشرفة. كانوا يتهامسون... عندما عادت الكهرباء، اضيئت اللمبة على شرفة كاملة وكان الرجلان جالسين مع والدتك وصديقتها منتهى. بقيتُ من جهتي جالسا على الكنبة حتى الصباح، حتى استيقظت أمي وهزتني من كتفي كي ادخل وانام في سريري. كنت طوال جلوسي وبين الغفوة والغفوة ارفع رأسي في اتجاه بيتكم، والحقيقة اني لم اعد متأكدا في أي ساعة بالتحديد نظرتُ فلم أجد احدا على الشرفة.

XIX

ضاقت بهم الدنيا والقتال يطول.

ضاقت الدنيا بيوسف سعيد الرامي.

اضطر الى التوقف عن فلاحة الزيتون وتنقية الاشجار بيديه الخشنتين ورشّ الاشجار بالمضخة، يحملها على كتفه. "محوطته" في "الحريق" التحتاني مكشوفة على الطرف الآخر، بلغه تحذير من أحد اصدقائه القدامى. رفيق الصبا، والصبا عهد قديم لان يوسف شارف السبعين من عمره، ارسل اليه الخبر سرا مع الخوري بولس. رصدوه من المتراس القائم على سطح الدير في آخر مرة قصد فيها زيتوناته ولن يفلت من رصاصهم في المرة المقبلة.

. سيقتلونك يا يوسف، قال له الخوري بولس. توقف عن الصعود الى الحريق. انتم جماعة "مصابون" ويكفيكم.

انهم ينتظرون وصول بندقية ألمانية بمنظار بين يوم ويوم.

لم يبق في حياة يوسف سوى "محوّطة" الزيتون.

متشاجر مع جيرانه وأهل بيته، لا يحبونه ولا يحبهم. رجمهم بالحجارة ذات يوم لفرط ما سخروا منه. يمر الى جانبهم فلا يرمي على أحد منهم سلاما. متشاجر مع زوجته سليمة ومع ابنائه الخمسة، بقي له منهم اربعة وواحد مصاب. لا يسألونه رأيه وهو لا يبدي رأيا. يأكلون ولا يدعونه الى الغداء. يموتون ولا يسألونه. أمهم تقودهم.

خطط لبناء غرفة له في بستان الزيتون ينام فيها هربا من سليمة. من زمان لم يعد لديه صديق. رفيقه القديم في الحارة التحتا، الذي ارسل اليه التحذير من البندقية الالمانية بمنظار، كانت تجمعه به ذاكرة الصداقة أكثر من الصداقة نفسها.

يهرب من البيت ومن الحيّ الى "الحريق". يبقى هناك حتى هبوط الليل، يكافح العوسج، يبني حافة من الحجارة لا حاجة له بها، يبنيها بيديه وحده، المهم أن لا يعود باكرا الى البيت.

ها هو يقيم في البيت. عمره كبير على القتال، وهو لا يريد القتال. يعدّ الايام ليتمكن من العودة الى بستان الزيتون.

ضاقت الدنيا بسليمة الحاماتي ايضا، زوجته.

تنظر شذرا الى من تخاذلوا، تتسقط أخبارهم، تحصيها، تشهّر بهم اينما حلّت، بالصوت العالي. لا تخشى احدا. فلان أخذته زوجته الى بلدة أهلها ليختبئ هناك تحت تنورتها، يا حيف الرجال! فلان باع صندوقي خرطوش بدل ان يستخدمهما في المعركة ووضع المال في جيبه. فلان يدّعي المرض كلما طُلب منه المشاركة في المعركة.

تطارد الجميع بلسانها، بدءا بأقاربها "العضد" واقارب زوجها، خصوصا اقاربها العضد. تُسمعهم كلاما قارصاً، وجها لوجه اذا التقت بهم، عندما تعرف ان منهم من يستعد للفرار ناجيا بأولاده الى امكنة أكثر أمانا.

اولادهم في المدارس، لا يريدون لهم أن يخسروا سنة واحدة من حياتهم، واولادنا في المتاريس يدافعون عن شرفهم، تقول.

أولادها ملأوا الأكياس رملاً. صفّوها على السطوح وسقوها بالماء كي لا يخترقها الرصاص، واطلقوا منها كل ما في حوزتهم من نيران وشتائم.

أيام الحياة الرغيدة لغيرهم وأيام الحرب لهم.

سمّوهم "أبناء سليمة".

كانوا خمسة، هاشم وسعيد الملقب "أبو علي" وفرنسيس وشاكر ("أبو ليلى") وديغول.

قُتل واحد من بينهم، سعيد، "أبو علي"، في بداية المعارك. ربما كان اول قتيل في حرب المتاريس. انفجرت بين يديه قنبلة كان يتفحّصها قبل رميها نحو الجهة المقابلة، وأصيب لها ابن ثان، الصغير، ديغول، برصاصة في ظهره أقعدته. كان كل يوم حوالى الظهر يترك متراسه ليحمل الغداء من البيت الى شقيقيه. لا بد أنهم كشفوه بعد أن تربصوا به. أطلقوا عليه رصاصة واحدة، من بندقية "معدل طويل". من متراس محسن السمعاني، قبالتهم. محسن السمعاني هو شقيق حسني. سيأتي يومها. تنظر سليمة الى ابنها ديغول وهو يحاول الوصول الى الحمّام لقضاء حاجته فيتعثر. تنادي احد اشقائه لمساعدته، وعدوها بتأمين كرسي نقال له، لكن الكرسي غالي الثمن. في انتظار ذلك، يعيش ديغول مشلوحا أمامها.

تضرب يدها على صدرها وتدعو على من اصابه بالرصاص، تدعو عليه بالفالج وطول العمر.

ضاقت بهم الدنيا والقتال يطول، فأرادوا المزيد...

...الى أن وقف رجل ذات يوم من أواخر شهر أيلول في باب دكان الكندرجية وسأل:

. ويني حسني؟

كان الرجل ممن يرافقون ابناء سليمة في القتال. طرح السؤال على الجميع، علينا نحن الاربعة الموزعين على الكراسي. اثنان يعملان، عبود، صاحب الدكان وانا، واثنان من المعتادين على المجلس، يمضيان هنا بعض الوقت في الصبيحة، مثلنا، لا يصلحان للقتال والمتاريس. اراد والدي ان يعلّمني الصنعة باكرا، وكان صغر سني يسمح لوالدي بالقول اني غير مؤهل للقتال.

وكان عبود يهتم بي، سلّمني التلصيق ودقّ المسامير في البداية، لكنه كان يريدني ايضا بجانبه كي انقل اليه ما يقوله الآخرون. كنت كأني أذنه التي يسمع بها. كنا نتبادل اطراف الحديث واخبار الليلة المنصرمة عندما ظهر علينا الرجل. لأن المعارك كانت تحتدم في الليل وتهدأ في الصباح. ينام المقاتلون في النهار.

لا يعرفون الرجل الذي طرح علينا السؤال، ولا انا اعرفه، ولم يجدوا من المناسب سؤاله ابن من هو. كالعادة، تبرعتُ بتكرار السؤال بصوت عال في أذن عبود:

. ويني حسني؟

حسني زوجته. كانت مرت بيننا قبل دقائق حاملةً كيسا من الخضر وهي تدخل الى البيت خلف الدكان، لكني فضّلت ترك زوجها يجيب على هواه.

. في الداخل.

كان يجيبني دون ان يرفع رأسه عن الفرعة التي يعالجها، معتقدا اني انا الذي اسأل عن حسني عندما انتبه الى الرجل الواقف في الباب حاملا بندقيته، فتوقف عن خياطة الجلد والتفصيل.

الجميع يعرفون حسني. يسمّونه عبود حسني، باسم زوجته. يسمّونه هكذا في غيابه، واحيانا بحضوره لاعتقادهم انه لا يسمع. تقرر حسني في كل الشؤون، شؤون البيت والاولاد وتصنيف الزبائن بين من يمكن امهاله في الدفع ومن لا ثقة فيه. لا ينقصها الا اعطاء النصائح في صنعة الكندرجية.

. ماذا تفعل حسني؟

سأل الرجل المسلح. تبادل الضيفان في دكان الكندرجية النظرات. رفعتُ صوتي في أذن عبود الذي نظر مستغربا الى مصدر السؤال، أي الرجل المسلح. سيكون عبود الرجل الاول الذي يسأله غريب "ماذا تفعل زوجتك؟".

كانت الاحوال صعبة. شبان صغار وبعض الاغراب ايضا يحملون السلاح. أحس أن عليه الاجابة، فتوجه اليّ:

. لا أدري، ربما تُرضع الصبي.

أجاب بشيء من الحدّة، مستسلما لغرابة السؤال. كان صوت عبود عاليا بحيث لم أكن مضطرا لتكراره لحامل البندقية. في الواقع، بدا الرجل متنكّب البندقية كأنه ذاهب الى صيد طيور الفرّي في تلة العامرية عند غروب الشمس. بدا كأنه عرّج في طريقه الى دكان الكندرجية كما يعرّج الكثيرون يومياً علينا، للتوصية على حذاء او لمجرد الانضمام الى المجلس المفتوح. بدا كأنه يسأل لمجرد السؤال. اجابه عبود الاصم فلم يأت حراكا ولم يطرح السؤال التالي.

توقف عبود عن العمل، كان ينتظر السؤال التالي. قد يكون اعتقد ان الرجل أضاف شيئا هو لم يتمكن من سماعه، فنظر اليّ مستفهما لكني بادلته نظرة ليس فيها جواب. لم يبد على الرجل انه قال شيئا ينتظر ردّاً عليه. كان ينتظر شيئا آخر. أدار ظهره الى الدكان وراح يتطلع نحو الطريق العام المقفر. او ربما لم يكن يعرف ما هي الخطوة التالية التي عليه اتخاذها.

كان يحمل في يده لائحة اسماء. اسماء لنساء فقط. ينظر اليها كأنه يحتقر المهمة التي أسندت اليه. حسني كان اسمها في رأس اللائحة. ابتسم صاحب البندقية وبانت اسنانه عندما قرأه وعرضه علينا: حسني زوجة عبود حسني.

لا اعتقد انها في تلك اللحظة كانت ترضع الصبي بل كانت تخطط للغداء. سبع نفوس اضافة اليّ. يُطعمونني معهم احيانا، وخصوصا في ايام القتال هذه حيث لا يفترض بي التنقل كثيرا بالذهاب الى البيت ظهرا والعودة الى دكان الكندرجية. مخاطرة لا لزوم لها. طعامها طيّب، حسني، واعتقد انها ستختار في النهاية الحلول الاسهل: المجدّرة وكبة الحمص والبطاطا المقلاّة بالبصل. انه يوم الجمعة. قبل الاحداث كانت تشتري سمكا، لكن بائعي السمك ما عادوا يحملون من الميناء سلالهم الطازجة.

كيفما سُئل عبود عن حسني يقول انها تُرضع الصبي. كأن الصبي لا يتوقف عن الرضاعة أو هكذا يريده، على أمل أن يكبر بسرعة. لم يبلغ بعد الشهر الرابع من عمره لكن عبود ينوي منعها من فطامه حتى يبدأ بالمشي، يمشي ويرضع من ثدي أمه، يهرول ليلعب مع رفاقه ويعود الى ثدي أمه. أخبرته أمه أنه كان يفعل هكذا عندما كان طفلاً.

أسماه رؤوف.

صبيه الاول... والاخير على الارجح. بعد اربع بنات. يوم هرعوا اليه يبشروه به قرع باب جاره، طلب منه اعارته بندقيته، اطلق منها سبع طلقات وردّها له.

لا يسمع الصغير اذا بكى لكنه يوزع عليهن الاوامر دون توقف. على الابنتين الكُبريين وعلى الأم.

. انتِ أحمليه!

. انتِ أخرجيه الى الشمس قليلا.

. غيّري له حفاضه...

مضجر متطفل، لا ينظر الى ابنه الوحيد مرة الا ويجد انه يجب فعل شيء تجاهه.

يتمرجل على أهل بيته لكنه جالس الآن على كرسي الكندرجية لا يأتي حراكا. لا يفعل شيئا تجاه المسلح الواقف في بابه يسأل عن زوجته وينتظر.

يتذرع بصممه. فهو كان أصمّ أو شبه أصمّ، او ربما كان أشهر أصمّ في البلدة. قيل لي انه لم يقتنع الا متأخرا باستخدام السمّاعة الطبيّة، بعد ان تركتُ العمل عنده وفتحتُ لحسابي.

قبل وفاته بسنوات معدودة، اقتنع باستخدام السمّاعة وكانت تضايقه كثيرا لفرط ما تصدره من أزيز وصفير مفاجئ فلا يتحملها أكثر من دقائق مفضلا عليها هدوء الصمم وعزلته التي اعتادها.

مع ذلك كانوا يتهمونه انه يسمع ما يريد.

هذا صيته على الأقلّ.

واعتقد انهم على حق.

وكانوا يمتحنونه.

يشتمونه بصوت منخفض فيرد الشتيمة بأقوى منها.

بات يعرف انهم يشتمونه حتى ولو لم يسمعهم يتكلمون. بمجرد ان يرى الابتسامة ترتسم على وجهي يعرف ان الواقف يحدثني متهكّماً عليه فيردّ بما يراه مناسبا للدفاع عن نفسه.

فجأة استدار الرجل حامل البندقية نحو باب الدكان من جديد وقال:

. عاوزينها!

وهو يشير بيده الى مكان غير محدد في اتجاه الشرق.

ليس هو من يحتاجها بل هم، هناك.

سمعه عبود هذه المرة مع أنه لم يرفع صوته أكثر من السابق. لم اضطر من جهتي الى الصراخ في اذنه.

لم يكن المسلح منفعلاً. بدا بالاحرى مرتبكاً بفعلته هذه.

قالوا له على الارجح ان هؤلاء النساء يوصلن الاخبار الى أقاربهن في الحارة التحتى، يدلّونهم علينا، انهن جواسيس بيننا، يجب ان "نخلص" منهن.

عندما أطال وقوفه ساهيا، ينظر الى الافق المقفل ببيت خرب وارض بور، ومديراً ظهره للدكان، استأنفنا حديثنا.

دكان عبود هو مجلس الكلام الاخير. من سمع خبرا يأتي ليتأكد منه هنا. من له رأي أيضا يأتي لاسماعه. تكتمل الكراسي فيستمر البعض وقوفا.

الحالة ستطول، يقولون.

الجريدة المرماة على احد الكراسي تقول في عنوانها الرئيسي ان البحث عن حلول بدأ يقترب.

الاميركان مشاركون في الحل.

منذ ذلك التاريخ والاميركان وراء الكثير مما يجري.

شمعون لن ينجح في تجديد ولايته.

يتحدثون عن قائد الجيش خلفا له.

عبود يستأنف عمله، ينكبّ مجددا على الحذاء الذي بين يديه.

أشار اليّ كي أعود الى زرع المسامير الرفيعة في دائرة النعل.

نتحدث في السياسة.

في اخبار الليلة الفائتة، ان كانت قاسية أم هادئة.

وفجأة، في كل مرة، لا أحد يعرف كيف يبدأ حديث الاسلحة.

الجميع خبراء في الاسلحة، حتى نحن العاجزون عن القتال في دكان عبود الكندرجي.

مديح بندقية "الأم زرّ"، ضرب ضرب. لكن لا بديل منها للمسافات البعيدة والاصابات المحكمة. تخترق جذع شجرة الحور.

مديح "المعدّل". جديدة عليهم، بدأوا يكتشفون حسناتها.

مديح المسدس عيار 12. معبودهم.

مديح الاسلحة على انواعها.

فجأة، يقترب الرجل من الباب، يدخل قليلا، فيتوقف حديث الاسلحة.

يبدأ هو دون مقدمات. يسرد بصوت عال هذه المرة، كمن يريد ان يُسمِع أصم، المآخذ على حسني. يتوجه الى عبود مدركا تماما الى اي درجة عليه ان يرفع صوته. ما يكفي كي يستغني عنّي. بقدر ما بدأ مقترا بالكلام عند وصوله، انطلق لسانه الآن دون توقف. كانت بندقيته على كتفه تعطيه تفوقا علينا نحن الذين نكتفي بعدّ القتلى والجرحى ونتدرأ بالجدران كي نصل الى بيوتنا.

. حسني تنزل لعند أهلها سرا أو توصل لهم أخباراً لا نعرف كيف. على كل حال شقيقها محسن يؤذينا كثيرا. قُتلت من متراسه خضرا زوجة ابو هارون، وأصيب منه ديغول الرامي في ظهره...

. يا رجل كبّر عقلك...

يتدخل احد الجالسين.

. المرأة ولّدت حديثا وهي فرحة بالصبي، من أين لها ان تنزل الى الحارة التحتا وتترك ابنها الرضيع؟

عبود لا يجيب. عيناه تتسعان، بدأ يفهم لماذا سأل الرجل عن حسني قبل قليل.

. أخبرت أخاها وأخوها أخبر الجميع أين موقع مدفع الهاون 60، وقد لاحظنا انهم بدأوا يطلقون الرصاص بغزارة على الموقع. اضطررنا لتغييره وتغيير الاحداثيات ولم نعد نصيب الاهداف جيدا.

. من يخبركم هذه الاكاذيب؟ يجب قطع لسانه...

ظهرت حسني فجأة. كانت تستمع الى الحديث كله من الغرفة خلف الدكان. البيت كناية عن غرفتين. لم يكن الرضيع بين يديها، سلّمته الى ابنتها البكر. يعود زائر الدكان الى التدخل:

. تعقلوا، مسألة فيها خراب بيوت. يجب ألاّ نظلم بعضنا بعضا، حسني صارت منا وفينا. ما هو اسم اولادها؟ عيب.

التجأ عبود من جديد الى صممه التام، ما عاد يسمع شيئا مع ان الاصوات كانت عالية.

. امرأة منا، يقول الرجل المسلح. امرأة منّا متزوجة في الحارة التحتا، أخبرتنا، نحن ايضا لدينا من ينقل الينا الاخبار. الدم ما بيصير ميّ.

عبود يستنجد بي مع اني اشعر انه يسمع كل شيء. اعرف ذلك من الانفعال الذي يعلو قسماته عند سماعه كلام الرجل المتصاعد في حق حسني. تختلط الاصوات.

. افضل حلّ أن تنزلي الى أهلك وتبقي عندهم.

أخيرا أفصح الرجل عن الغرض من مهمته.

حتى صوتي القريب من أذنه ما عاد يصل الى عبود. لم يعد عبود قادرا على السماع. . لا نقبل ان تبقي هنا، واصل الرجل كلامه وسط الاعتراضات، انا جئت غصبا عني لأكلمكم بهدؤ.

. واذا رفضَتْ ترك بيتها؟

تجرأ عبود أخيراً. وقف عن كرسيه جاحظ العينين، ومريول الكندرجية على صدره مليء باوساخ المهنة.

. يأتي غيري ويأخذها بالقوة. انا لا أجرّ سلاحا على النساء.

يسمع عبود ولا يريد ان يفهم، يختبئ في صممه.

. الى أين ستأخذونها؟ أي بهدلة هذه؟

ينوون جمع نساء آل السمعاني المتزوجات في حارتنا، في بيت عزيز الرامي. يبدو انهن حوالى العشرين امرأة وأكثر. يمكن ان يسلموهن الى الخوري بولس لينزلهن الى الحارة التحتا. تخيلنا المشهد نحن الجالسين في دكان الكندرجية: الخوري بولس يقود النساء، يعبر بهن خطّ التماس فيتوزعن على بيوت أهاليهن. ويعود بنساء آل الرامي من الحارة التحتا.

. اذا كان الامر كذلك، اذا كنتم لا تريدونني هنا، انا نازلة...

سمعت كل انواع الكلام، حسني. لا يأخذون عليها انها من آل السمعاني بل أن أخاها ممن يُحسب لهم حساب. واقف قبالتهم، النار بالنار والحيلة بالحيلة.

. نعم، أذهب الى أهلي.

لم احاول إسماعه لاني كنت متأكدا أنه يسمع. لكن حسني ولمزيد من التأكيد، انحنت على أذنه وصرخت لتسمعه:

. انا نازلة الى بيت أهلي يا عبود...

لم يعد لديها أهل. أهلها يعني شقيقها محسن.

وأضافت بصوت أخف، نكاية بنا وبالرجل المسلح الواقف في الباب:

. في كل حال، كلما توجهت الى الحارة التحتا فتح قلبي...

طريقتها في الثأر.

فجأة وصل ثلاثة رجال مسلحين، دعما لرفيقهم. هؤلاء نعرفهم. اولاد سليمة، هاشم وشقيقيه فرنسيس وأبو ليلى. لكنهم كانوا منطلقين في مهمة جديّة، مقطبي الوجوه لا يعيروننا انتباها. من الواضح اننا لن نتمكن من صدهم.

. وين حسني؟ يلا الخوري بولس يريد النزول قبل الظهر...

رأوها في الداخل.

قال احدهم في سعيه لتبرير ما يحصل:

. لو كانت أمي سليمة منهم لارسلتها اليهم...

وأكمل متوجها الى عبود:

. الحرب حرب يا عبود... إما نحن إما هم.

لم تقل شيئا، حسني. فقط استدارت ودخلت الى الغرفة وراء الدكان.

انتفض عبود واقفا. كانت تلك المرة الثانية يقف فيها بمريوله الملطّخ. هرع الى الغرفة خلف الدكان. لم يناقش هاشم ابن سليمة، استسلم للقرار. بقي عليه ان ينقذ ما يمكن انقاذه.

. لا. لن تأخذي الصبي معك...

. من يُرضعه؟ انت ترضعه؟

. لن تأخذيه معك... ليس لديّ غيره.

كان حازما جازما.

بدأت البنات الصغيرات بالبكاء. تبعناه انا والجالسين في الدكان الى الداخل. كانت الابنة البكر ممسكة برؤوف، لا تعرف لمن تعطيه، فبدأت هي ايضا بالبكاء وتبعها الطفل الرضيع.

كان عبود اقرب الى الولد الذي يصعب اقناعه بالتخلي عما هو ممسك به. لا ادري لماذا امسكت حسني فجأة بمنديل لها وربطت به شعرها وخرجت من الغرفة في اتجاه الدكان. قررت الذهاب وحدها. تبعناها جميعا، لم نكن مصدقين انها ستترك بهذه البساطة.

كان ابناء سليمة واقفين ينتظرونها الى جانب سيارة اجرة من نوع مرسيدس. فتحت الباب لتصعد الى السيارة ثم التفت نحونا وقالت لابنتها:

. انزلي المجدرة باللوبياء عن النار لانها تكاد تحترق وقشّري الفجل لوالدك لانه يحب الفجل مع المجدرة بلوبياء. كبّة الحمّص خالصة في القفص. غيّري لخيّك الصغير حفاضه. كانت رائحته طالعة ولا تنسي ان تطعمي بشير، ولا تدعيه يذهب الى البيت. قد يتعرض للخطر في الطريق. أمه أوصتني به...

بشير، يعني أنا...

لم يكتفوا.

لم يكتف هاشم ابن سليمة باطلاق الرصاص بغزارة من الرشاش 29X24. كان استولى عليه بالقوة وكانت رشقاته التي يرسلها تذهب في الفراغ. يطلقها دون مناسبة، لاثبات الوجود، كما يقول، احيانا. لا يلقى الاستحسان الا من الصغار المتجمعين لالتقاط الخراطيش الفارغة وهي لا تزال ساخنة.

لم يكتف، فأعاد اختراع المنجنيق. لمزيد من الاذى.

بحث أولا مع شقيقه فرنسيس عن إطارات مطاطية مهملة. دواليب السيارات التي لم تعد صالحة. استخرجا منها الاطار الداخلي، قصّاه قطعا طويلة، ربطاه بعناية بكابش من الخشب الصلب، ثبّتاه فوق احد السطوح وناديا على الجميع ان يبتعدوا. عبثا حاولوا ايقافهما.

رمى هاشم به قنبلة يدوية انفجرت في الجوّ، في طريقها الى الحارة التحتا. أحدثت في الطرف المقابل ضجيجا وشائعات أكثر من أي شيء آخر.

عندما وصلهم الهاون 60 ومعه ضابط قيل انه غريب لتدريبهم على الرماية به، كان أول المتطوعين. تعلّم بسرعة. يوم جاء دور التنفيذ، اقترح هاشم ان يصار الى انتظارهم وهم خارجون من القداس يوم الاحد الساعة العاشرة والنصف. القداس الذي يحتشد فيه الناس. تبرع بمراقبتهم وهم يتوافدون الى الكنيسة. رموهم عند خروجهم. كان هاشم يقف وراء المدفع لكن القذيفة وقعت بعيدا على ضفة النهر، فأحرقت قصبا يابسا وأصابت صائد سمك في رجله.

ضاقت الدنيا بهاشم فراح يطلق قذائف الهاون عشوائياً وفي أي وقت، ليلا ونهارا. أردى نساء وصغارا على ما عادت به الاخبار من الحارة التحتا.

لكنهم لم يكتفوا.

نظم ابناء سليمة هجمتين ليليتين. حشدوا صفوفهم، تسللوا نحو المتاريس المقابلة تحت وابل من الرصاص الخطاط والمتفجر، حاولوا اخراج اعدائهم من مواقعهم الحصينة فلم ينجحوا.

خططوا لاحتلالهم وتهجيرهم وتوزعوا سلفا المغانم لكنهم فشلوا. عادوا في المرتين وبينهم قتيل وجرحى. لن يربحوا الحرب ولن يخسروها، فجنّ جنونهم. هدموا ما كان لاخصامهم من منازل في احيائهم بالديناميت واوقعوا من بينهم جرحى جراء تطاير الشظايا لقلة خبرتهم في تدمير البيوت، ثم جاء من بينهم من نهب اثاثها في الليل كي لا يشهد احد على نذالته، كانت تلك منازل اخصامهم الذين كانوا يسكنون بينهم، وغادروا على أمل العودة بعد ايام ريثما تهدأ الخواطر. كفروا بالقديسين، وكادوا يطلقون الاذان من قبة الكنيسة نكاية باخصامهم المتحالفين مع اميركا ومع رئيس الجمهورية.

كانوا بحاجة الى المزيد لكن "الثورة" انتهت. انتهت ولاية رئيس الجمهورية وانعقد مجلس النواب فانتخب رئيسا جديدا.

XX

الفكرة فكرة الأم. أم كاملة.

منتهى لم تكن لتجرؤ على ذلك من تلقاء نفسها. هي في كل حال لا ناقة لها ولا جمل. أم كاملة همست في أذنها، وفي البداية لم تأخذ كلامها على محمل الجدّ. طلبت منها الذهاب الى فؤاد وبطرس الرامي، مباشرة بعد الجناز.

الجناز.

رائحة العرق كانت قوية، رائحة الناس ورائحة الموتى.

ادخلوهم الى الكنيسة في التوابيت بالرغم من اعتراض الأهل. بعد جدال. في البداية تدخّل الكهنة فلم يعرهم أحد اهتماماً الى أن حضر زعيم العائلة.

زعيم العائلة.

مرّ عليهم واحدا واحدا قبل ادخالهم الى الكنيسة. كان ينحني عليهم، يقبّلهم في جباههم الصفراء، يطوّق الأرملة او الاولاد بذراعيه ولا يبكي. بكى في بيته الذي تعاونوا على بنائه له في ايام القحط. كل من يُحسن عملا قدّمه مجانا، المعمار، الدهّان، النجار. بكى وحده في غرفته، طويلا، وهو جالس تحت صورة لعمه الذي اورثه الزعامة. قال شقيقه الذي وقف حارسا باب الغرفة، يتشاجر صارخاً في كل من يحاول الدخول عليه:

. دعوه يرتاح، رئيس الجمهورية يريد الاجتماع به!.

قال انه سمعه يشهق كالطفل الصغير. بقي وحده أكثر من ساعة كاملة. تنَهْنَه من البكاء ونهض واقفا. غيّر ثيابه، حلق ذقنه، جلس الى طاولته وراح يكتب البيان الصحافي الذي سيذيعه بعد الجنازة ويحمّل فيه اخصامه كامل المسؤولية. إنه كمين نُصب للأحرار، إنه الغدر بأناس عزّل... طوى الورقة ووضعها في جيبه قبل أن ينهض ويفتح باب الغرفة دون انذار فيضرب به كتف شقيقه الواقف حارسا أمامه، ويخرج. لحق به عشرون شابا، كانت اسلحتهم ظاهرة. لن يغلق على نفسه باب غرفته بعد الآن ولن يبكي بعد هذا اليوم. بكى سلفاً ومرة واحدة كل الذين سقطوا وسيسقطون من اخوته وابناء عمه وأهله.

عندما مرّ على القتلى في ساحة الكنيسة، أسكت الندابات صارخا:

. كفى!

فقالت له امرأة كان ابنها مسجى أمامها على السرير:

. المهم ان تبقى انت حيّا!.

لم يُسكتها.

أسكتتها نظرات غاضبة رمقتها بها ابنتها.

لم يُعرف تماماً من نبرتها اذا كانت المرأة تسخر منه او تظهر حرصها عليه.

المرأة قالتها بلهجة ملتبسة.

معركة اخرى مع النساء داخل الكنيسة لاقفال التوابيت. يغلقون التوابيت فترفع النساء الغطاء بعد قليل. طالت المفاوضات ومحاولات الاقناع فكانت النتيجة: عند انتهاء الجناز نفتح لكم التوابيت مرة أخيرة ثم نغلقها بالمسامير. هكذا اقترح زعيم العائلة الذي وقف في مقدمة المصلّين وبدأ هو شخصيا صلاة الجنّاز.

كانت اشارة الى الكهنة ان يبدأوا، فراحوا يهرولون في صلواتهم. يأكلون السريانية أكلا، كأن النار في اعقابهم. عيونهم وعقولهم مع الناس، هناك في صحن الكنيسة. الناس يعرفون صلاة الجنّاز عن ظهر قلب، يرددونها بالسريانية ومنهم من يعرفها أكثر من الكهنة. وما إن وصلت جوقة الكهنة الواقفة الى يمين المذبح الى آخر جملة من صلاة الجنّاز، وقبل أن تنهيها، انفجر الصراخ. انفجر فجأة ومن مئات الحناجر دفعة واحدة.

الصغار في السن تفاجأوا. تلفتوا مرعوبين معتقدين أن شيئا ما حدث. حامل المبخرة الجديد جحظت عيناه، لم يعد يقوى على حملها. الكبار كانوا يعرفون. حتى ان الواقفين منهم في الصفوف الامامية القريبة من المذبح لم يلتفتوا الى الوراء. لن ينظروا الى النساء يتشبثن بالتوابيت ويخرجن ارواحهن صراخا. انها ليست للفرجة تلك الاندفاعة الاخيرة.

في النهاية نجح الكهنة خصوصا واعضاء الاخوية، في التفريق بين الاحياء والاموات. وقف زعيم العائلة محاطا برجاله عند باب الكنيسة، كلما مرّ تابوت كان ينحني ويقبّله. أطال انحناءته فوق أخيه وابن أخيه. حمّلوهم على سطوح السيارات. كان شابان يخرجان من نوافذ السيارة ويثبتان التابوت على سطحها ويطلبان من الناس فتح الطريق. المهم ان يتمكن الشابان من الامساك جيدا بالتابوت في طريق النزول. لم تتوافر سيارات كافية لنقلهم دفعة واحدة الى التربة فعادت السيارات مرة ثانية لنقل الباقين.

أخذوهم الى بستان اللوز، كانت الحفر جاهزة. صف واحد مستقيم كأن من حفرها خبير في نصب الاشجار. أشجار الزيتون واشجار الليمون الواقفة كصف العسكر. هناك من استيقظ باكرا لينبش الارض كي تستقبلهم. حفرة لكل واحد يهال عليها ترابها وكفى. ما زالوا هناك حتى اليوم. في أرض يملكها دير الرهبان، اختاروها تربة لهم لان مقبرة البلدة في حي آل الرامي لا يمكن الوصول اليها للبكاء عليهم. ولو تمكنوا من الوصول، لن يتركوا قتلاهم هناك.

أعادوا كاملة الى البيت سيرا على الأقدام. تمشي قليلا ثم تتوقف. تمسك بها منتهى. تقف أمام باب أحد البيوت، تنادي على اصحابه، تخبرهم ان يوسف ذهب ولن يعود، لا يخرج أحد من الباب ليواسيها. تكمل الطريق، تتوقف من جديد. "راح يوسف" تقول وهي تتوجه الى امرأة واقفة على شرفة منزلها تشاهد العائدين من الجنازة. تغطي المرأة الواقفة على الشرفة وجهها بمنديل أبيض، تبكي او تريد اعطاء الانطباع انها تبكي. حتى وصلت كاملة الى بيتها، ادخلوها كي تستلقي وترتاح.

هبّت كالمجنونة:

. لا ليس في غرفة النوم، لن أدخل الى هنا بعد اليوم، أخرجوني من هنا، أخرجوني...

اخرجوها الى الشرفة، مدّدوها على المقعد. وضعت رأسها بالقرب من زهرة الأضاليا وجلست امها الى جانبها.

رفّ السنونو يغير على الشرفة، ثلاثة عصافير سوداء فاردة اجنحتها الصغيرة تخطط الفضاء القريب، تسبح فوق الرؤوس.

السنونو في موسمه.

كان هذا يوم الاثنين في الثامن عشر من حزيران 1957، قرابة الساعة السابعة مساء.

في ليلة قريبة من هذا التاريخ، ربما قبل أيام أو بعد ايام، جلست سيدة أخرى على شرفة أخرى مزيّنة ايضا بالزهور والنباتات، تطل هذه المرة على البحر الأبيض المتوسط من مرتفع قريب. السيدة كان اسمها لوريس، او على الأقل هذا هو الاسم الذي وقّعت به كتاباتها الشعرية في ما عنونته ونشرته لاحقا تحت اسم "ربّان الريح". ترتدي في صورة غلاف ديوانها فستانا ابيض وتضع على رأسها قبعة من القش وهي تبتسم بخفر. كتبت تقول في احدى قصائدها: "يصعب عليّ فراقك، يصعب عليّ العيش، بلاد اشجار التوت والعنب، بلاد الينابيع السرية، صور عن الله وواد سعيد. بعد موتي سأذهب بحثا عنك، في كيس الفقير قليل من التراب ومن الماء، خبز الوعود. وسيقال: تلك المرأة في البعيد لا ظلّ لها في أي مكان. أجدادي سكنوا القفار والكثبان، راحوا وجاؤوا مع الرمل والريح، اصطادوا الغزلان التي تشبه النساء وانتظروا عند ابواب بيوتهم قيام الساعة...". يقال انها تزوجت في ما بعد من قنصل ايطاليا في دمشق لتمضي بقية أيامها بين روما والبندقية.

ارتخت كاملة قليلا، كأنها أغمضت عينيها رغما عنها.

تنحّت أمها بمنتهى جانبا، بعيدا عن بعض الجيران الذين حضروا. كررت عليها الطلب:

. اذهبي الى فؤاد وبطرس الرامي...

. اليوم؟

. بعد ساعة، عندما تعتّم الدنيا. روحي الى بيتك، ارتاحي قليلا، بدّلي ثيابك وارجعي.

يا الله!

قالت الأم: هما أرسلا اليّ خبرا.

لم تذكر مع من ولا كيف.

يريدان القدوم الى البيت لتقديم التعزية الى كاملة. يوسف الكفوري بمثابة أخ لهما ولا يريدان ان يتأخرا في واجبهما تجاه زوجته.

عادت منتهى الى البيت. لم تقتنع. على أمل ان تنسى أم كاملة الموضوع او تنشغل بابنتها.

كانت أمها تجالس الأخرس قريبها عند مدخل البيت. كالعادة. يتبادلان الحديث. يسرع هو في رسم الاشارات بيديه وهي تتمهل كأنها تبحث عما تقوله بيديها. كمن يتحدث لغة ليست لغته فيتردد قبل اختيار الالفاظ. كانا يتعبان بسرعة، جملة او جملتين ويرتاحان من بعدها. أمها بكت مع الجيران الآخرين ايضا، عيناها حمراوان. الاخرس لا يبكي أحدا. يحزن في قلبه على

الارجح لكنه لا يبكي. لم يذهب في ذلك اليوم الى صيد الحنكليز، مع ذلك كانت تفوح منه رائحة النهر. كان حافي القدمين. كالعادة. الأخرس هو الاصلب عودا امام المصائب.

سألت أمها عن هيفاء ابو دراع. منتهى بقيت مع كاملة، لتذهب الأم الى بيت هيفاء.

قالت أمها:

. ما شفت حدا مات عا حدا.

تقصد حزناً على أحد.

قاسية أمها.

تضيف:

. العترة على البيروح.

أي أن الخاسر في جميع الاحوال هو الميت وحده.

الأخرس يهز برأسه موافقا. لا يسمع ما تقوله المرأة وهي لم تحرك يديها عندما تكلمت. لا يسمع شيئا على الاطلاق، لكنه ربما وافق لأنه يحدس بما ستقوله قريبته في هذه المناسبات العصيبة. كان يصعب تخيّل كيف تقال هذه الحكم القديمة بلغة البكم او بلغة الاخرس صائد الحنكليز. يحق لمحدثته ان تجهد في اختيار حركات يديها.

الاخرس كان يبتسم وهو يهز برأسه موافقا. دليلاً على أنه كان يفهم.

لم تسمع منتهى ما قالته أمها، أجوبتها هي هي كلما عادت من جنازة.

الموت سلوى للنساء.

سمعتها مرة من والدها.

ارتمت منتهى على المقعد هالكة. تعرف ان اليوم لم ينته بعد. لم تغيّر فستانها. نكاية بأم كاملة التي طالبتها بأن ترتدي فستانا جديدا.

في هذه الحشرة طلبت منها أن ترتدي فستانا جديدا.

قالت منتهى في ما بعد انها رأت مناما في الدقائق القليلة التي اغمضت فيها عينيها متكئة برأسها على جانب المقعد الخشبي. كانت قادرة على النوم واقفة.

جنود،

رأت جنودا،

فرقة بأكملها،

صفا طويلا من الجنود اللابسين الأحمر القاني،

يمشون في غابة اشجارها عالية، أشجار حور مثل تلك المزروعة على جانبي طريق النهر رؤوسها ضاربة في السماء،

الارض مبللة من مطر الليلة الماضية واوراق الحور الصفراء تكسو الارض،

في رقبة كل جندي من الجنود كيس من القماش. مِزوداً يسمونه، فيه خبز،
جميعهم جنود، لا ضباط بينهم ولا رقباء.

انهم القتلى.

الذين سقطوا والذين سيسقطون.

الخبز هو الصلوات التي تتلى على نية كل واحد منهم، يحملها مؤونة في عنقه الى يوم الدينونة.

يخرجها من كيسه ويقدمها للرب الجالس على عرشه.

انه الرب نفسه المرسوم فوق المذبح في كنيسة مار يوحنا المعمدان.

ايقظتها أم كاملة.

لم تدق الباب، كان مفتوحا، دخلت عليها الى غرفة الجلوس.

شدّتها من كتفها.

. قومي، ليس لنا غيرك.

لم تفهم منتهى قصدها. كادت تقول لأم كاملة ان لديها ابنتين يمكنها اللجوء اليهما، واحدة متزوجة هنا في احدى القرى القريبة، تأتي سيرا على الاقدام اذا أحبت والأخرى بعيدة. زوجها لا يحبنا ولا يحب بلدتنا، لكنها جاءت من بيروت لحضور جنازة صهرها. زوجها لم يرافقها واستعجل عودتها. ارسلت أم كاملة ابنتيها سريعا الى عائلتيهما، خوفا عليهما. لماذا لا ترسل واحدة منهما، لماذا لا تذهب هي بنفسها؟

. لماذا لا يعزّونها غدا او بعد غد؟ الأيام طويلة...

اكتفت منتهى بهذا السؤال وهي شبه نائمة.

. يجب أن يأتيا الليلة!

رجلان من آل الرامي يزوران الحارة وفي تلك الليلة؟

. كاملة ميتة خالصة، ماذا ستقول لهما؟ انتظري حتى الصباح لنرى كيف سيفرجها الله علينا!

. الليلة يا منتهى، الليلة، لا يمكننا التأجيل.

في بال الجمل فكرة وفي بال الجمّال فكرة.

أمرها لله.

جرجرت نفسها ونهضت.

لم تجد أمها ولا الأخرس قريبها. لا أحد يسأل عن أحد في تلك الليلة.

مشت خائفة بعض الشيء. لا تحدث أمور كثيرة في حياتها. لولا التعب والنعاس لكانت تحمست أكثر.

كان عليها السير أمامهما، فتح الطريق لهما.

كانت الشوارع مقفرة وقلبها يدق حتى وصلت الى حارتهم.

وجدتهما جالسين امام مدخل البيت، صامتين يدخنان السجائر دون توقف. يطفئان السجائر من نصفها ويدوسانها بأحذيتهما. كانا ينتظرانها.

تعرفهما جيدا.

صممت كاملة ان تزوجها من بطرس الرامي. السمين والأكبر سنا، الجالس الى اليمين، اذا توقف عن نفخ دخان السجائر ينفخ الهواء وهو يتنهد.

كانا جالسين على كرسيين من الخيزران.

. ماذا يقول الناس في حارتكم؟

لم تعرف بماذا تجيب.

سألتهما بدورها عن قتلاهم وكيف جرت الجنازة.

لا هي أجابت عن السؤال ولا هما أجابا.

كرر احدهما السؤال عليها.

الناس يقولون ما يشاؤون، لن تخبرهما شيئا على كل حال.

بعد تفكير وحذر:

. ماذا تريدهم ان يقولوا؟ بُحّت اصواتهم من البكاء.

. ماذا يقولون عنا انا وأخي فؤاد؟

هذا كان قصدهما من السؤال. يعرفان ما يقال عنهما، الاقوال تصل بسرعة. اقوال السوء خصوصا.

. لم أسمع احدا يأتي على سيرتكم... كنت منشغلة مع كاملة طوال الوقت.

. فقيرة يا كاملة...

كانا عارفين انها ستسير أمامهما.

طريق قصيرة وصعبة.

مشت أمامهما وقلبها يدق، طوال الطريق تسمعه يدق. طوال الطريق ايضا بقيا صامتين، لكنها لمحت في يد كل منهما مسدسا. حديد يلمع في يديهما.

كانوا الثلاثة حول طاولة واحدة، على جري عادتهم. الشقيقان ومعهما يوسف الكفوري عندما أنضم اليهم في "المقهى البرازيلي" في طرابلس تاجر السلاح. أخبرهم عن "وثقة" من

المسدسات وُفّق في شرائها. قدموا له فنجان قهوة وتبادلوا معه اطراف الحديث ثم أوصوه على ثلاثة مسدسات. سلمها اليهم في اليوم التالي. حملها معه في كيس الى المقهى نفسه، انتحوا في احدى الزوايا وتفحّصوها. اختار يوسف الكفوري هرستال عيار 14. دفع بطرس الرامي ثمن المسدسات ورفض ان يسدد له يوسف الكفوري ثمن مسدسه. تقدمة، قال له. لم يكن بينهم حساب. قال يوسف الكفوري ان الأمور لن تطول على هذه الحال وانه لا يحب السلاح.

لم يعترضهم أحد في الطريق، لم يلتقوا أحداً.

عند كل مفترق، عند كل فتحة في الشوارع الضيقة كان الشقيقان يتمهّلان. يرفعان المسدسات تحسبا، يُنصتان ويكملان المسير.

آخر ليلة هدوء،

ليلة الاثنين 18 حزيران 1957،

كان أحد مهاجري البلدة يتوّج حياة طويلة من الكفاح بأن وقّع قبل ظهر هذا اليوم بالذات، وربما مع فارق التوقيت في هذه الساعة المسائية تماما، وفي احتفال حضره صديقه وزير السياحة رافاييل بيكابيا اضافة الى وزير الاقتصاد وحشد من وسائل الاعلام الفنزويلية، على تأسيس مصرف في كاراكاس أطلق عليه اسم نهر "ألاونيروك" بعد أن تمنى تسميته "بنكو دي ليبانو" الى أن قيل له ان هذه التسمية غير جذّابة لأهل البلاد. يحمل هو وافراد عائلته، زوجته وأبنتاه، 45 في المئة من اسهمه. بعد سنوات طويلة من التعب. بدأ بائعا متجولاً للقمصان ثم فتح لنفسه متجرا للالبسة أسس من بعده معملاً ليجمع مالا كافيا لفتح مصرف. أوصى أولاده ان يدفنوه في بلدته. لكنهم لن يتمكنوا من نقله الى لبنان فيوم توفي في احد مستشفيات كاراكاس كانت الاشتباكات على أشدها في بلدته.

في تلك الليلة ينام أهل القتلى واقاربهم كي يتمكنوا من استعادة قواهم،

ينامون لا يأكلون.

الرجال يديرون ظهورهم للنساء.

الرجال يستعيدون قواهم والنساء يستردن القدرة على البكاء وعلى تحريض الرجال.

وفي اليوم التالي، او في ابعد تقدير في الليل التالي، يبدأون.

كانت كاملة ملقاة على الشرفة. وحدها هي وأمها. أمها صرفت الجيران بتهذيب، شكرتهم ودعت لهم بطول العمر وبردّ الأذى عن ابنائهم، وافهمتهم أن كاملة يجب أن تنام والا ستموت. واضافت انه لم يعد لدينا دموع لنبكيها.

دخلت منتهى أولا وأشارت الى انهما يتبعانها.

قالت الأم بلهجة فيها دعوة الى اللوعة:

. قومي يا كاملة، جاء اصحاب يوسف!

انتصبت كاملة جالسة. منذ وصول خبر زوجها، كانت تلك أول حركة تقوم بها من تلقاء نفسها.

لم تتفوه بكلمة واحدة.

لم يسلّما عليها باليد.

جلس الشقيقان صامتين ينظران الى كاملة وهي تنظر اليهما. يتفرسون في بعضهم.

نزلا الى الحارة التحتا لينظرا اليها. كانا يرغبان في حضور الجنازة. لم يجرؤوا.

دمعت عينا بطرس اولا ومن بعده دمعت عينا فؤاد.

مسح بطرس دموعه بمنديل اخرجه من جيب سترته.

تمخّط طويلا.

طويلا وجيدا. بحث في زوايا أنفه كأنه يريد الانتهاء من البكاء.

تلفتت أم كاملة خائفة من أن يصل صوت التمخّط الى آذان الجيران.

كانت كاملة تكتفي بالنظر في عيونهما، تسألهما جواباً وليس لديهما جواب.

بدت أوجه الشبه بين الشقيقين جليّة. في انحناءة الظهر وهما جالسان، في غلاظة الانف، في لطخات حمراء صغيرة على الخدين، في الشعر الذي بدأ يكشف مقدمة الرأس وفي الشعر الخارج من الاذنين. فؤاد هو الصغير لكن مع الوقت تضعف الفروقات. يبدوان كالتوأمين.

صمت المحافل يستمر. طال كأن احدا لن يتكلم لأن زيارة التعزية ليست للكلام.

منتهى هي التي تكلمت في النهاية. وقفت واستأذنت بالانصراف الى بيتها مدّعية ان أمها ستقلق عليها. ضحكت كاملة ثم حاولت البكاء فلم تتمكن.

احست منتهى فجأة أن لا مكان لها هنا. لا احد ينظر اليها.

. انتظري قليلا يا منتهى، أكملي معروفك معنا.

تريدها أم كاملة أن تكشف لهما طريق العودة.

على الأقل ان تجتاز برفقتهما الحارة التحتا. توصلهما الى جوار المدرسة وتعود.

كان الصمت تاما. أصوات الليل فقط. ابناء آوى في البعيد تطلق مناجاتها المتقطعة، طلق ناري في بلدة قريبة وصرير زيز المساء في العريشة.

فجأة بدأت كاملة ترتجف. ترتجف دون توقف. اسنانها تصطكّ.

. دقّتها البردية!

أفتت أمها. ثم أضافت:

. يجب أن ندخلها الى البيت.

كاملة لا تريد الدخول. تحرك رأسها وتخرج حشرجة.

يعود الصمت وتبادل النظرات. الكلمة الضرورية تقال فقط. كاملة ترتجف وهواء الليل البارد يطلع من النهر.

رطوبة النهر تجعل الجلوس على الشرفة صعبا حتى في ليالي آب.

. أدخليها.

يقول بطرس الرامي.

تعترض كاملة من جديد فتعتم الدنيا فجأة. ضوء الشرفة وكل اضواء البلدة.

. هذا ما كان ينقصنا، أن تنقطع الكهرباء...

قالت أمها في العتمة.

سكوت وليل ورطوبة.

عاودت أمها الكرة. همست لها حججا طويلة في اذنها.

وافقت كاملة على الدخول الى البيت. ربما اقنعتها انها في الظلام لن ترى شيئا في غرفة النوم.

بقيت منتهى جالسة وحدها، منهكة.

بعد قليل عاد بطرس الرامي الى الشرفة. وقف ينظر في الظلام. بعد دقائق ايضا خرجت أم كاملة. كان الثلاثة واقفين ينظرون في الظلام: أضواء صغيرة متفرقة تلمع في الجهة المقابلة حيث يبدو أن الكهرباء لم تنقطع، حيوات اخرى في هذه القرى الموزعة على سفح الجبل.

بقيت كاملة مع فؤاد الرامي لأكثر من ساعة.

وحدهما في الداخل.

أم كاملة لن تخبر أحدا عن هذه الزيارة.

بطرس وفؤاد الرامي لن يخبرا أحدا.

سيكون صعبا على منتهى وحدها الاحتفاظ بالسرّ.

ستبذل جهدها.

انتظرهما بطرس ومنتهى وأم كاملة في العتمة على الشرفة. فجأة عادت الكهرباء فخرج فؤاد الرامي.

كان هذا بين العاشرة والحادية عشرة ليلا من يوم الاثنين 18 حزيران 1957.

رافقتهما منتهى في طريق العودة. مشت أمامهما. أخرجا مسدسيهما على طول الطريق ولما وصلا الى المدرسة اعاد كل منهما مسدسه الى خصره. طلبا منها العودة الى بيتها.

. سيموت اناس كثيرون، يا منتهى.

قال فؤاد الرامي.

. يوسف الكفوري كان أعزّ من أخٍ لنا!

قال بطرس.

ثم أكملا طريقهما صعودا وهما ينظران حولهما في العتمة.

XXI

كنا نقف في صف طويل متعرج أمام ثكنة الجيش في قبة النصر.

بناء فرنسي بطبقتين من الحجر الرملي، على سطحه واق من الصواعق وفي رأسه علم لبناني. كان ثلاثة جنود صارمي الوجوه، اثنان مفتولي الشوارب وواحد يضع نظارات رقيقة، يمنعوننا من تجاوز الترتيب الذي وصلنا فيه.

كان يمكننا رؤية الواقفين في الطليعة يدخلون واحدا واحدا من باب احد البيوت الصغيرة المقابلة لبناء الثكنة الرئيسي، وكان ثمة حارس متأهب أمامه، لا يحرّك ساكناً كأنه مرسوم رسماً.

لم نكن نرى الداخلين يعودون ادراجهم بعد اتمام المعاملة التي قدموا من اجلها. كأن هذا المبنى الصغير المكون من غرفتين على الاكثر كان يبتلع تدريجيا هذا الحبل الطويل من اهالي برقا. كانوا يخرجون من باب آخر على الارجح، باب في الجهة المقابلة لا يمكنني رؤيته من حيث انا اتقدم ببطء شديد.

كان يقف ورائي رجل من عائلتنا قُتل شقيقه في حادثة برج الهوا. الرجل الواقف ورائي اسمه هلال ويلقبونه "الغندور" لاسباب لم أفكّر مرة في الاستفسار عنها، وشقيقه الذي سقط في الحادثة يدعى ناصيف. كان يتكلم في أذني دون توقف تقريبا، منذ وصولنا، وبات همي الأول الافلات منه فعرضت عليه ان يتجاوزني لأقف خلفه وأمنعه من التحكم بي لكنه رفض.

المتأخرون الملتحقون بالصف واحدا واحدا وصلوا الى الطريق العام، الى ما وراء نصب الجندي المجهول عند مدخل الثكنة الرئيسي، وهو تمثال من صخر لمقاتل عسكري يرفع علما والى جانبه لوحة كتبت عليها اسماء الذين سقطوا شهداء الواجب. من حفر الاسماء على اللوحة

لم يعتمد في سردها التسلسل الابجدي ولا التسلسل الزمني لاستشهاد العسكريين. حاول قدر الامكان، عن سابق تصور وتصميم، وضع اسم مسيحي يليه اسم مسلم: المعاون أول بطرس منصور سابا، الرقيب محمود اسماعيل القعفراني، الجندي الاول موسى جبرايل توما، الجندي مصطفى الأسعد، وهكذا دواليك. عدد المسلمين كان يفوق عدد المسيحيين فاضطر في اسفل القائمة الى ادراج ثلاثة اسماء لجنود مسلمين تباعاً.

جئت وحدي وشقيقي جاء وحده. لم نرغب في التجمّع ولفت الانظار. كان يتقدم عليّ بضعة امتار في الصف. هكذا نحن دائما وفي كل الشؤون، يسبقني أخي بالافعال وأسبقه انا بالتفكير. لمحت زوجة عمّي في الصف الامامي ايضا، متقدمة على شقيقي. متقدمة علينا نحن الاثنين، من حقها في رأيي التقدم علينا. أبكرت في النزول الى الثكنة. حاولتُ الافلات من نظراتها. كانت تبحث عنا دون شك وهي تنظر في جميع الاتجاهات، عني وعن أخي. لم ترني. ستدخل الى المبنى الصغير، وتخرج من الباب الخلفي ولن تراني. هكذا أفضّل ان تجري الامور. هي في حالها ونحن في حالنا.

امرأة سمينة ترتدي الاسود كانت تقف في الصف أمامي مباشرة. لا أعرفها. لم أرها من قبل في حارتنا، ومن المؤكد انها ليست من اقاربنا. جميع النساء الواقفات في الصف كن يرتدين الاسود. اسود كامل. وكان يمكن التعرف على درجة قرابتهن مع القتلى من الجوارب السود السميكة في هذا الطقس الحار، ومن المنديل المربوط على الرأس ايضاً. الأرجل العارية من الجوارب تعني قرابة من الدرجة الثانية او هذا يعني ربما مرور وقت كاف على الموت يسمح بالتخفيف من علامات الحداد. امرأة عمي ترتدي الاسود الصارم، وتربط رأسها بمنديل اسود ايضا يخفي شعرها. تفعل ذلك كي تُحسَب في صفوف ارامل القتلى. كان يفترض بها التخفيف من الحداد فعمّي متقدم في السن وتوفي منذ سنة وأكثر.

رفعتُ رأسي فرأيت في الامام امرأة لا يفصلها عن حارس المبنى الصغير سوى اربعة او خمسة اشخاص، ترتدي فستانا اخضر اللون. كانت الوحيدة لا تلبس الاسود، وكانت تتلفت حولها باستغراب كأنها اكتشفت لتوها انها المرأة الوحيدة التي لا تلبس الاسود في هذا الصف الطويل. أمالت رأسها وهي تنظر الى آخر الصف الواصل الى الطريق العام. كانت وحدها تلبس الملوّن. اعتقد انها لا تقيم في البلدة. قيل لها ان تحضر فحضرت. ربما جاءت من بيروت. هممتُ بسؤال الغندور عنها لكني تراجعت خشية ان يمطرني بكلام لا يتوقف.

كان عدد النساء مساوياً لعدد الذكور او ربما يفوقهم. جاء الاقارب جميعهم الا الذين سافروا منهم الى اوستراليا هرباً من الاحداث. المهاجر يُرسل تفويضاً الى أحد اقربائه. كاملة، زوجة يوسف الكفوري لم تنزل الى الثكنة. لم ننتبه في حينه لكن اخبرونا في ما بعد انها كانت المرأة الوحيدة التي رفضت النزول الى ثكنة ميشال هليّل. تقول انها لا تريد مالاً مقابل زوجها.

تقصد اننا نحن نبيع قتلانا بالمال. لم يكن في صالحها ان تتكلم هكذا، فالناس يروون عنها اخبارا كثيرة، كاملة. الجميع يعرفون انها انجبت صبيا بعد وفاة زوجها. بعد وفاته بأكثر من تسعة أشهر. الناس لا عمل لهم. يراقبون، يحسبون، يعدون على اصابعهم وينتظرون بعضهم على المنعطفات.

كانت المرأة السمينة أمامي تحاول التحدث الى أحد ما، الى أي كان. كانت قلقة. تنظر امامها وخلفها فلا تجد وجها تألفه. لم يكن في امكاني التجاوب وتبادل اطراف الحديث معها لان الغندور كان يحدثني من الخلف همسا دون انقطاع تقريبا بما لا يسمح لي بمتابعة محادثتين في الوقت نفسه. كان الغندور يتوقف لحظة فقط ليحبس مخاطا ربما كان سيسيل من انفه، فيشرقه صعودا. وضعتُ يدي في جيبي بحثا عن منديل أقدمه اليه ليتمخط. لم أجد منديلا ففكرت في ان امزّق له طرفا من كيس الورق الذي أحمله كي يوقف به هذا التهديد الدائم.

فجأة بدأت المرأة السمينة تشتكي وحدها، بصوت عال. تحكي ولا تنظر الى احد. لم تجد بطاقة هويتها. نزلت الى الثكنة وليس معها ما يعرّف عنها. موظف الامن العام الذي قصد الجميع في بيوتهم قال لنا انزلوا يوم السبت قبل الظهر الى ثكنة ميشال هليّل في القبة ومعكم بطاقات هويتكم. لم ننتظر "قبل الظهر" فبدأنا بالتوافد الى الثكنة مع ساعات الفجر الاولى. سبقنا "اللجنة" القادمة من بيروت. لم يقل موظف الامن العام أكثر من ذلك. لم يطلب غير تذاكر الهوية. المرأة السمينة اضاعتها. استفاقت باكرا اليوم ونكشت البيت للمرة الثالثة بحثا عنها. لم تستخدمها منذ الانتخابات الاخيرة. لم أفهم بعد هذه القدرة عند بعض الناس على التكلم وحدهم بصوت عال دون ان يتوجهوا الى احد. عندما ادركت للمرة الاولى انها اضاعت تذكرتها قصدت مأمور النفوس، حاولت الحصول على بطاقة جديدة فقال لها ان الامر يتطلّب وقتاً. تُطمئن نفسها، تغيّر لهجتها عندما تتحدث مع نفسها، تقول بأنها ستجد بالتأكيد من يعرّف عنها:

. أختي هنا وبناتها لكني لا أراهن، ربما لم يصلن بعد. اذا اعادوني الى البيت خائبة فسأقيم الدنيا ولن أقعدها.

فجأة لمحت أحد أقاربها في الخلف فنادته عليه كأنها لم تره من دهر، فقط للأطمئنان ان هناك من يعرفها وهو على استعداد أن يعرّف عنها.

انا لم أرغب في المجيء الى ثكنة ميشال هليّل في القبة. لكن أخي أقنعني بحجة بسيطة جدا:

. إذا لم تأخذ المال المخصص لك، فسيأخذونه هم.

يقصد بـ"هم" اللجنة او اناساً مسؤولين لا نعرفهم. يأخذونه ويضعونه في جيوبهم.

اضاف:

. على كل حال، كِبَر نفسك لن يعرف به أحد غيري وغيرك...

في الحقيقة، لم أكن أفكر في كِبَر النفس. كنت افكر في زوجة عمي. لا تعرف بيتنا على ما أظن، لم تزرنا في يوم من الايام. حرب داحس والغبراء بيننا. نحن نعتقد ان عمي كان يحبنا وهي توغر صدره ضدنا. أذكر كيف كان ينتظرها كي تدير ظهرها ليعطينا المال ويطلب منا ان نخبئه عنها. كانت رائحة التبغ العربي تفوح منه وهو يقبّلني في جبيني. كنا صغارا وكان يحبنا. كنا أولاد أخيه، يعني أولاده. هكذا كان يقول وانا اكاد اختنق من رائحة التبغ المعششة في سترته.

. يريدون أن يرثوك وأنت حيّ...

هذا كان عنوان حربها علينا. كنا نردّ، لا نستحي، وكان ردّنا قاسيا، تداولنا به طويلا في البيت:

. لماذا لم تلد له أولاداً يرثونه؟ لن ندعك تأخذين أملاكنا الى أهلك!

لو كان في عيني عمّي نظر لما "لمّها".

لكن تأثيرها عليه كان أقوى من تأثيرنا. كان يحب الاكل وهي تهدده بأنها لن تطبخ له اذا سايرنا. يحب السمكة الحرة والفوارغ وورق العنب وهي تحسن تحضيرها. على كل حال هي كانت ستقتله بأكلها هذا. مرة، مرة واحدة فقط، دعتنا الى الغداء، أكلها طيّب بنت الكلب. في النهاية منعته من زيارتنا وكبرت العداوة حتى صار يقول:

. اذا متّ لا أريدهم أن يمشوا في جنازتي.

هكذا جاء اناس وأخبرونا نقلا عن لسانه. لا يريدنا نحن، انا وأخي وأمي، أن نمشي في جنازته. لم اصدّق أنه يقولها.

والان نقف بالصف أمام ثكنة الجيش فقط لأننا أبناء أخيه. أمي حمّلتني غصبا عني رغيف خبز فيه شنكليشة وزيتون لفّته بكيس من الورق. كدت أقدّم الكيس الى الغندور كي يريحني ويريح نفسه. تخاف أمي عليّ ان أجوع اذا طال الانتظار. أنت لا تطيق الجوع، قالت لي. تعرفني أمي، لا أطيق الجوع، لكني كنت محرجا بالكيس والشنكليش الذي بدأت تفوح رائحته، ومُحرجا بزوجة عمي. ستموت غيظا اذا رأتنا واقفين في الصف.

احاول قدر الامكان الاختباء وراء المرأة السمينة التي تسدّ المشهد امامي لكن رأسي يبقى ظاهرا مهما تحايلت لانها قصيرة القامة. بدأت الشمس تضرب رؤوسنا والتقدم بطيء. كنا متحرقين لمعرفة ماذا يحدث في المبنى الصغير. الخارجون لا يلتقون بالداخلين. لكن الاخبار مشت في النهاية، من الخلف الى الامام هذه المرة. هناك من دار الدورة كاملة وعاد الى آخر الصف وفي يده ما يُطلع الآخرين عليه. كان الكثيرون يمسكون الشيك المصرفي بيدهم لاول

مرة. لم نفهم للوهلة الاولى كيف وزعوا المال، والحصص لم تكن متساوية. الى ان استنتجنا أن التوزيع الذي اعتمد كان مطابقا لتوزيع ميراث الرجل بعد وفاته.

الحقيقة اني كنت خجلا من نفسي احاول الهرب من نظرات اناس اعرفهم واعرف ماذا سيقولون لانفسهم اذا رأوني هنا انا وأخي. لكن اخي لم يكن يهتم لذلك على الارجح، وقد لمحته يتساير ضاحكا مع الواقفين الى جانبه في الصف. أقاموا حصر الأرث للجميع دون استثناء. جاؤوا جميعهم. نصف البلدة هنا. الغندور يرمقهم بعين ويخبرني.

. أترى هذه المرأة هناك مقابل العسكري صاحب النظارات؟ أخي ناصيف هو الذي قتل زوجها. لولا أخي ناصيف كنا تبهدلنا في برج الهوا. أخذوه غدرا، أقاربه لم يحموا له ظهره...

جمعونا مع بعضنا في صف واحد أمام الثكنة، كانت تلك المرة الاولى نلتقي فيها بعد الحوادث. يوم شدّت الدولة همّتها قبل سنتين وأوقفت الرجال من الطرفين، المذنبين والابرياء، وضعت آل السمعاني في سجن القبة وآل الرامي في سجن ثكنة الامير بشير في بيروت. فصلونا. لكن هذه المرة أوقفونا في صف واحد.

مرّ ابو جميل الى جانبي، وضع يده على كتفي. شعرتُ من نظرته اليّ انه لا يزال يحبني، كما كان يحبني عندما كان في حارتنا. قبل ان يهرب ويحتل اناس من عائلتنا بيته. قال لي:

. قل لأمك ان أم جميل تسلّم عليها.

كررت ذلك عليها عند عودتي الى البيت فتنهدت.

يعرفهم الغندور جميعا فيكمل:

. وهذا الشاب هناك... اخي ناصيف...

لا شيء عنه هو، بطله أخوه ناصيف.

وضعتُ يدي على أذني لأبعد فمه عني.

زوجة عمي ترث النصف ونحن نرث النصف. لو كان له اولاد منها لما كنا ورثنا شيئا. وقع في كمين لم يكن هو المقصود به. كان يقود سيارته، سمع الرصاص قريبا منه فخاف وارتبك فانحرف بسيارته عن الطريق ليتدحرج الى اسفل الوادي حيث تحطمت سيارته، ومع ذلك لم يمت بل يقال انه خرج من السيارة المحطمة ليسير على قدميه. لم يجدوا في السيارة أي أثر لاطلاق النار. على كل حال، من كانوا "يربطون" الطريق كانوا من جهتنا وهرعوا لانتشال عمي من السيارة بعد ان اكتشفوا خطأهم. المهم ان صحة عمي انتكست من يومها وتوفي بعد ستة أشهر. حضرنا جنازته في الكنيسة لكننا لم نذهب الى البيت لان زوجته ارسلت من يقول لنا انها ستشعل فضيحة اذا دخلنا الى بيتها. كانت ترمينا بكل ما لديها. تقول حيث حلت اننا سعينا جهدنا لعدم

ادراجه في لائحة ضحايا الاحداث، واننا ذهبنا الى قائد المنطقة العسكرية لنخبره ان عمنا مات في حادث سير ولا يحق لزوجته في التعويض.

كنت اسعى الى ما يقيني الشمس التي كانت تثقب رأسي عندما سمعنا ضجة تتصاعد من الصف الخلفي وهتاف:

. اللجنة، اللجنة...

فرحنا بقدوم اللجنة، بحدوث ما يسلّينا عن ضجر انتظارنا الطويل. توقف موكب صغير من ثلاث سيارات امامها درّاج من قوى الامن الداخلي. أول المترجلين كان رجلاً قصير القامة، يضع نظارات سوداء عريضة وتعلو وجهه لطخة سوداء. كان يحيط به مرافقان. هرع ضابط لاستقباله وهو يسمّيه هنري بك. عرفناه، عرفه الغندور. يبدو انه هو الذي جمع الاموال من اصدقاء له اغنياء في بيروت. وعرفنا ان الولايات المتحدة تقدم الى لبنان مساعدات على شكل كميات من القمح الفائض عن شعبها، فاقترح أحد رجال الاعمال على الدولة ان تبيعه القمح الاميركي، بأسعار متهاودة طبعا، وأن تستخدم الدولة هذا المال من اجل التعويض على اهالي قتلانا وتحقيق المصالحة بيننا. وقد تأخر رجل الاعمال في الدفع وتأخرت المصالحة الى هذا اليوم الذي كنا نصطف فيه امام ثكنة هلّيل في قبة النصر.

تعثر هنري بك في مشيته وكاد يهوي ارضا، فصرخت المرأة السمينة الواقفة أمامي: . الله.

اسرع احد مرافقيه ليسنده فابتسم هنري بك وتطلع نحونا كأنه يريد ان يشكر المرأة على لوعتها. لوعة مصطنعة مثلها. قال البعض حولنا انه صاحب سباق الخيل في بيروت وقال رجل واقف أمام المرأة السمينة انه كان وزيرا للخارجية ايام الاستقلال. توقف عن السير منتظرا وصول من جاؤوا معه من بيروت.

ضابط بلباس الاحتفالات خرج من السيارة الثانية. الجنود الثلاثة المكلفون منعنا من تجاوز بعضنا البعض في الصف أدّوا له التحية العسكرية. يؤدي الجنود التحية للضباط دون ان يعرفوهم، بمجرد ان يشاهدوا النجوم على اكتافهم. كان صارما وشعرتُ انه راح ينظر الينا بشيء من الازدراء. كنت اشعر طوال وقوفي في الصف داخل هذه الثكنة ان العسكريين ينظرون الى المدنيين باحتقار. المدنيون يعني نحن. كنا نبادلهم المشاعر، نسمّيهم "خيل الدولة"، معلوفين موقوفين، لا نمد لهم يد المساعدة لاعتقادنا انهم دائما يسعون وراءنا، يسعون للايقاع بنا. لم يدخل منا احد الى الجيش الا برتبة ضابط.

الرجل الثالث كان يحمل تحت ابطه ملفا كبيرا محشوا بالاوراق تكاد تتساقط منه وهو يعيد ترتيبها ولا يفلح. كان يضع نظارات سميكة ويبتسم يمينا ويسارا دون مناسبة كأن الابتسام

تعبير لا يفارقه. قيل انه محامي اللجنة. لم أفهم في حينه لماذا كانت اللجنة مضطرة الى تعيين محام في صفوفها.

هذه هي اللجنة. ربما جاءت لتتأكد من حسن توزيع المال. سرى همس ان الزعماء قادمون بعد قليل. دخل اعضاء اللجنة الثلاثة الى مبنى الثكنة الاساسي. التفت المحامي نحو الصف الطويل وهو يصعد الدرجات المؤدية الى باب المبنى. ربما يكون وجد عدد الذين يستحقون التعويض اكبر مما هو مسجل في اوراقه المهددة بالتبعثر على الارض.

بعد قليل وصل صحافيون. سمعوا على الارجح بوصول اللجنة لكنهم راحوا يلتقطون لنا الصور وهم في طريقهم الى المبنى العسكري حيث دخلت اللجنة. هم ايضا لفَتَهُم الصف الطويل. عندما صوّب احد المصورين آلته في اتجاه البقعة التي كنت أقف فيها، استدرتُ لا شعوريا وحاولت مرة أخرى التلطّي وراء المرأة السمينة. لكن سرعان ما لمع ضوء الفلاش في وجهي. في اليوم التالي رأيت صورة أخرى لي في الجريدة، في الصفحة الاولى. كان بائع الجرائد الأعرج فرحا، يحمل حزمة كبيرة من الاعداد ويدور بها مجاهدا على احياء البلدة. دخل يومها الى الازقة الضيقة التي لم يدخل اليها من قبل وهو ينادي:

. عن أهل برقا اليوم يا عالم!

كما اعتاد الترويج لاخباره.

كنت في الصورة كأني أبتسم، مع اني لم أكن في أحسن مزاج وانا واقف في الصف الطويل، وأمامي المرأة السمينة، يدها على فمها وتطلق زلغوطتها الطويلة. لم أنتبه أن المصور الصحافي صوّب الينا آلته مجددا ليلتقط لنا هذه الصورة لاني كنت منشغلا، كما الجميع، بوصول زعيم آل الرامي.

ترجّل بسرعة من سيارته لشعوره ربما أنه تأخر عن الاجتماع مع اللجنة. كان اثنان من مرافقيه يعدوان أمامه ايضا. صفقت بعض الايدي في الصفوف الامامية بشيء من الحذر، ربما خشية اغاظة الجنود المولجين حراستنا، لكن المرأة السمينة اطلقت فجأة زلغوطة عالية، فعرفت انها منهم، وانا كنت قدّرت ذلك لاني لا اعرفها. لو كانت منا لكنت رأيتُها في الحيّ ولو مرة. أطلقت زلغوطة لا تنتهي، كما في الاعراس، فحاولت امرأة أخرى تقليدها لكنها لم تفلح مثلها في الاطالة اذ سرعان ما انكسر صوتها.

في الصورة التي نشرتها الجريدة يظهر الغندور ايضا منحنيا على كتفي. ارادوا تصوير المرأة التي كانت تزغرد لزعيم عائلتها فظهرنا معها انا والغندور. اعتقد انه كان يشتم آل الرامي في أذني في اللحظة التي التقطت لنا الصورة. واذكر انه عندما زغردت المرأة السمينة قال فيها كلاما نابيا دار فيه على أمواتها وسلالتها وعرّج على أمها وأختها وحتى ابنتها كأنهن صنف من العاهرات يتوارثن المهنة.

لم يظهر في الصورة لا أخي ولا زوجة عمي. وقد كتبت الصحيفة كلاما لم يعجبنا، نحن في الحارة التحتا. قالت انه "منذ الصباح الباكر..." لم أحبها، عبارة "منذ الصباح الباكر"، كأنها تريد ان تقول اننا كنا متلهفين لقبض المال ثم كيف عرفت اننا جئنا منذ الصباح الباكر. فالصحافيون لم يحضروا الا عند وصول اللجنة. ووصفت الجريدة كيف احتشد اهالي الضحايا الذين سقطوا في احداث العامين 1957 و 1958 أمام مكتب المخابرات العسكرية في شمال لبنان. وأكملت: "يستعد هذا الحشد من المواطنين البسطاء للدخول الى مكتب لجنة التعويضات عن الاحداث الدامية...". من قال لكاتب المقال اننا بسطاء؟

كان غالب السمعاني جالسا على كرسي واطئ من القش امام دكان ابن عمه يقرأ المقال بصوت عال. يحب الاستماع الى صوته وهو يقرأ، ويستمع اليه رواد الجلسة المعتادون. يحدث ذلك عندما يمر بهم بائع الجرائد فيفتح صاحب الدكان جاروره ويشتري منه جريدة تبقى طوال النهار تنتقل من يد الى يد. لما وصل غالب الى عبارة "هذا الحشد من المواطنين البسطاء" توقف عن القراءة ووجّه اصبعه الوسطى الى المقال، وتحديدا الى المكان في صفحة الجريدة حيث وردت العبارة، وهو يكرر هازئا:

. بسطاء؟ نحن بسطاء يا ابن المنيحة؟

نحن في الحارة التحتا لا نحب الاهانات، وفي المرة المقبلة سنُسمع بائع الجرائد عندما يمرّ كلاما قاسيا.

بعد زعيم آل الرامي، كرّت السبحة. بدأ وجهاء البلدة بالتوافد الى الثكنة. يتجاوزوننا، ينظرون الينا، يرمون السلام هنا او هناك ويدخلون الى الثكنة. رئيس البلدية حضر ايضا. مرّ زعيم عائلتنا. كانت عينه اليمنى حمراء منتفخة. من آثار "شحّاد" ربما. لوّح لنا بيده. زلغطت له امرأة في مؤخرة الصف، لم تقلدها أي امرأة أخرى. بدت كأنها تفعل ذلك نكاية بالمرأة السمينة الواقفة أمامي. صفقوا له ايضا. نحن سنقبض الشيكات في المبنى الصغير وهم سيعقدون اجتماعا في المبنى الكبير. نحن الى مكتب المخابرات العسكرية وهم الى مكتب قائد منطقة الشمال العسكرية. نشرت الجريدة صورتين، واحدة للمرأة السمينة تزغرد وانا مبتسم وراءها والغندور يهمس الشتائم في أذني، والثانية لهم مجتمعين، الزعماء واللجنة. جالسون في حلقة حول مكتب يجلس خلفه ضابط كبير يضع نظارات سوداء. كانوا يبتسمون، وواحد منهم، زعيم آل الرامي يرفع فنجان القهوة الى شفتيه.

تقدمنا في الصف حتى اقتربنا من المبنى. عندما مررنا امامهم كان باب مكتب قائد المنطقة العسكرية مفتوحا وكان المجتمعون فيه يضحكون عاليا، يتبادلون كلاما محببا او ربما النكات.

أحد الذين حضروا اللقاء من أوله الى آخره أخبرنا في ما بعد بالتفاصيل. كيف دخلوا وسلّموا بالأيدي وتعانقوا. الا أن زعيم آل الرامي قال انه مصاب بزكام حاد ويخشى ان ينقل العدوى الى الآخرين فامتنع عن العناق واكتفى بالشد على الايدي. ثم هناك من احضر زجاجة شمبانيا فتبارى اثنان في فتحها ومن فرط حماستهما انطلقت الفلينة لتصيب مدير فرع المخابرات العسكرية في الشمال في اذنه فيما كان ملتفتاً يتحدث مع المحامي. لما فارت الزجاجة سارعوا الى ملء كؤوسهم منها وشرب الانخاب. أخبرنا أنهم شربوا نخب لبنان اولا. وقفوا جميعهم وكان هنري بك يقترح الانخاب. ثم شربوا نخب رئيس الجمهورية الجديد، قائد الجيش السابق. اقترح زعيمنا ان يشرب الحاضرون نخب برقا فوافق الجميع بحماسة.

عندما اقترب دوري ولم يعد أمامي سوى المرأة السمينة اقترحت على الغندور ان يتقدم عليّ ففعل. لم يسأل الجندي الجالس وراء المكتب المرأة السمينة عن هويتها. هي قالت اسمها فوجده في اللائحة. طلب منها أن توقّع فقالت انها لا تعرف الكتابة فغمسَتْ اصبعها في محبرة وبصمت فاعطاها شيكاً. الغندور بَصَم ايضا. وجد المبلغ ضئيلا فأطلق سحبة شتائم. اخذتُ الشيك من يد الجندي وانا لا ازال خائفاً من نظرات زوجة عمي. كنت محتاجا للمال لأني منذ عرفت ان التعويض يشملنا، استدنت المال سلفا وأنفقته كله.

لم أنجُ منها. التقيتُ بها وانا عائد من المكتب. كانت واقفة تنتظر. تنتظرنا أنا وأخي على الأرجح. لم ألتفت في اتجاهها لكني سمعتها تقول بصوت عال:

. انشالله تشتري بالمصاري أدوية!

XXII

ستنهض كاملة من فراشها مع طلوع الضؤ. كل يوم بصعوبة أكبر من اليوم الذي سبقه.

تشعر بالبرد ما ان ترمي عنها اللحاف، النهر قريب والشمس لا تزال بعيدة.

ستكرر الافعال نفسها في عتمة حياتها.

تموت في اليوم الذي تبدّل فيه حرفا. تعتقد انها ستموت وهي نائمة.

كل يوم تراجع ما سوف يحدث، بالتفصيل:

تخلد ذات ليلة الى النوم وهي في صحة جيدة ولا تستيقظ عند الصباح. ينتبه الجيران قرابة الظهر انها لم تخرج الى الشرفة وأن بابها ونوافذها لا تزال مقفلة. يقتربون بشيء من الحذر، يطرقون عليها الباب وهم يتهامسون. لا تسمع. ينادونها بأصوات ترتفع تدريجيا فلا تسمع. يقتربون من شبّاك غرفة نومها يضربونه باياديهم وينادون عليها عاليا فلا تسمع. يحضر الجميع. ينادون على صديقتها منتهى، يأتون بها من بيتها، بمجرد ان ينادوها تعرف منتهى ان كاملة ماتت. تحسّبت كاملة لهذا الصباح الذي ينادونها فيه ولا تجيب، ويطرقون عليها الابواب ولا تفتح، فعلّمت منتهى كيف تفتح باب المطبخ دون ان يضطروا الى خلعه. تمد يدها من الشبّاك الخلفي وتشدّ على الحبل المربوط بسكّرة الباب فينفتح. يدخلون هامسين الى غرفة النوم ويجدونها. وحدها منتهى تطلق عند رؤيتها صرخة مفجوعة. لا تبكي عليّ لكن لا تدعي الجيران يسرقون اغراض البيت. أقفلي بالمفتاح على الاساور والعقد الذهب، وعلى أغراض يوسف، قالت لها. يوسف زوجها.

لكنها لن تغيّر شيئا اليوم، خصوصا اليوم.

نامت مطمئنة أنها أعدّت لايليا "الذهبة" ولم تنس شيئا. حقيبة مليئة بالمأكولات تشبه تلك التي حمّلته اياها في رحلته الاولى عندما دخلت معه الى قاعة المسافرين ولم يتمكن أحد من صدّها.

ستكافح اليوم للبقاء. ستضيء لمبة المطبخ النائسة مع انها لم تعد تلاحظ الفارق من زمان طويل. إن لم تضئها لا تبدأ. تضع ركوة الماء على عينة الغاز الصغيرة، الى اليمين والى الامام، وهي لا تزال في رداء النوم. تنتظر واقفة الى أن تسمع الماء يغلي فترمي في الركوة ملعقتين صغيرتين ونصف ملعقة من البنّ وترفعها فوق النار كي لا تفور. تسمعها ايضا عندما تنتفخ قبل أن تفور. صارت مع الوقت تسمع اصواتا لم تكن تسمعها في السابق. تصفيق أجنحة السنونو في أيام الربيع وصوت سيفون الحمّام عند بيت العاصي. ترفع الركوة بعيدا عن النار حتى تفقش. تقفل قارورة الغاز. بعد كل استعمال تقفل قارورة الغاز وأحيانا تنهض من سريرها في الليل لتتأكد انها أقفلت قارورة الغاز. تضع الركوة في الصينية ومعها فنجانا شفّة مقلوبان. دائما فنجانان ومقلوبان مع انها لا تنتظر احدا ليشاركها قهوة الصباح. منتهى لا تزال نائمة في هذه الساعة. ترجع الى غرفتها، ترتدي فستانها، تتلمس طريقها بسهولة الى المقعد على الشرفة، لأنها تشعر بالضوء. كانت في ما مضى تحب انتظار النهار من خلف الجبال العالية. لا تزال تجلس في الاتجاه نفسه. تسكب نصف فنجان، تشرب وتسكب من جديد. تشرب التفل عن آخره. تحمل الصينية والركوة والفنجانين الى المطبخ، تغسلها وتعيدها الى امكنتها. تملأ السطل ماء، ترجع الى الشرفة لتسقي الازهار والنباتات قبل أن تسبقها الشمس. تبدأ بالتغيير في تفاصيل يومها عندما تتعب من ذلك كله، يوم لا تعود ترغب في النهوض في اليوم التالي.

سيكون ابراهيم الحلبي أول العابرين، أول المستيقظين الخارجين من بيوتهم مع الفجر. يتباطأ عند اقترابه من الشرفة، ترد له كاملة التحية ولا تتمادى معه في الكلام. لديه دائما ما يقوله. يستيقظ باكرا ليقف في ساحة البلدة، على باب المكتبة يرتشف ببطء فنجان قهوة يسكبه له البائع المتجول. يتفرج على البلدة تستيقظ، على الداخلين لشراء جريدة الصباح او لدفع ثمن بطاقات اللوتو وعلى السرايا الحكومية تفتح أبوابها في الجهة المقابلة من الشارع. عندما يذهب من لهم شغل الى اشغالهم، ينتهي نهار ابراهيم الحلبي فيقفل عائدا الى البيت حوالى التاسعة صباحا على ان لا يخرج الا فجر اليوم التالي. متى رمى السلام على كاملة في خروجه الباكر لا يعود في طريق رجوعه المترنح مضطرا لأي كلام بل يكتفي بالالتفات نحو الشرفة ليتأكد من أن كاملة لا تزال حيث يفترض أن تكون تسقي نباتاتها او تشرب القهوة، فيطمئن بدوره الى ان الحياة تكمل دورتها العادية وانه ربح يوما اضافيا يشبه اليوم الذي سبقه. يوم لا يعرف لذته الا الذين يقفون مثله بصحة جيدة لكن على شفير الوداع.

ستلحق به بعد قليل معلمة المدرسة التي تطقطق بكعبها العالي. رمت مرة السلام على كاملة فلم تجبها أو لم تسمعها، فصارت المعلمة تمر دون أن تلقي التحية. تمر ولا تنظر حتى في اتجاه الشرفة. الجفاء يليق بكاملة.

كذلك ستصل منتهى، كما كل يوم، مع شروق الشمس. تقفل باب بيتها دورتين، هي ايضا، وتحمل المفتاح معها. لم تعد تجرؤ على ترك الباب مشرّعا كما كانت تفعل دائما في السابق، يوم كانت حتى تسنده بكرسي كي لا يغلقه الهواء. لا تعرف باب بيتها، منذ ولدت، الا مفتوحا. اليوم صارت تخاف السرقة. كل يوم يخبرونها عن فعلة جديدة. لصوص خبراء يدخلون على الناس وهم نيام، يتسللون الى غرف النوم، يسرقون المجوهرات من الجارور فوق رأس الرجل الممدد نائما الى جانب زوجته. لم يستيقظ عليهم أحد حتى اليوم. لا بد أنهم يرشون المخدّر في البيت الذي يسرقونه، لذلك يستيقظ من تعرضوا للسرقة عند الصباح وهم متعبون.

تعتقد منتهى ان الاغراب صاروا اكبر عددا من اهل البلدة الأصليين.

. ما عدنا نعرف احدا، من أين يأتون؟

تقول وهي تنظر اليهم في عيونهم.

عندما تقصد شرفة كاملة، تحمل منتهى معها عادة صينية من العدس تنقّيه من القشّ والحصى الرفيع قبل طبخه، او جاطا من الكوسى تقعّره بمهارة. واذا كان الغداء سهل التحضير لا تحمل بيدها غير شغل الصوف. كنزة كحلية اللون، لها.

لم يعد لمنتهى من تشتغل له كنزة ولا شالاً. شقيقها تزوج وسافر لكنه علّم اولاده ان يتذكروا عمتهم، من هناك من اوستراليا. لا تعرفهم لكنهم يرسلون اليها سلامات وبطاقات بريدية في الاعياد، ومالاً يوفرونه من مرتباتهم المتواضعة، يتقاضونها من عملهم المضني في الفبركة. تحبهم. ليس لها من تحب غيرهم، لكنها لم ترهم الا في الصور. بعد وفاة أمها، لم يصمد الأخرس طويلا. قصد النهر صبيحة يوم أحد ليصطاد الحنكليز على عادته ولم يعد. بحثوا عنه في كل مكان، تبخر. ربما سحبه النهر. لم يعد لمنتهى من تشتغل له الصوف فتشتغله لنفسها، تشتغل ولا تلبس. وإذا سُئلت تقول انها تنهي كنزة لأبن جيرانها الصغير قبل دخوله الى المدرسة في الفصل المقبل كأنه من العيب ان تشتغل المرأة صوفا لنفسها.

لكنها اليوم ستأتي فارغة اليدين. ستحرص على ارتداء افضل فساتينها. البنّي المحروق على الارجح. ستجلسان جنبا الى جنب. اذا تكلمت منتهى أجابتها كاملة. وبالمختصر.

سيحمى النهار وستتكاثر الاصوات. كاملة تُسكت من تقدر على اسكاته كي يتمكن ايليا من النوم. كل صوت في الجوار تعرف صاحبه وكل ضجة تلوم مسببها.

حوالى الساعة العاشرة سيخرج الى الشرفة. يرتدي سترة بيضاء رقيقة، يجلس الى جانبها، يحشر نفسه بها حشرا. يقبّلها في جبينها، يبالغ، يلف ذراعه حول كتفها فتبعد يده عنها. يصرّ

فتصرّ في المقابل، لا تريد هذه الحركات العاطفية. لا تتحملها. يفتح دفتر ملاحظاته الذي لا يفارقه، يدوّن عليه شيئا ويضعه الى جانبه على المقعد.

ولدان سيطلاّن برأسيهما من بين نباتات الشرفة، كمن يطلان برأسيهما من بين ستارتين ليتابعا مشهداً. يتسلقان الجدار الفاصل بين الشرفة والطريق العام برشاقة. عيونهم تقدح رغبة في النظر. يقفان على رؤوس اصابعهما كي يتمكنا من متابعة المشهد كاملا. الأخبار لا تزال تمشي من باب الى باب في حارة "العصابة"، كما في الايام الماضية. أخبار الناس بعد أخبار القتل والثأر. تنتقل بين أهل الحارة من فم الى أذن، تتفادى الاغراب الذين تخاف منهم منتهى، تتفاداهم في انتظار ان يتبلّدوا. الخبر الذي سرى منذ الليلة السابقة من باب الى باب وسمعه الصغار وسمعوا معه الكلام القارص من أهلهم هو ان ابن كاملة، ابن يوسف الكفوري الذي قتل في حادثة برج الهوا، سيرجع اليوم الى أميركا. ولن تراه أمه بعد اليوم.

اليوم اضراب في المدارس ولن يذهب الصبية الى صفوفهم. أيام العطلة غير المتوقعة لها نكهة خاصة. عندما سمعوا أهلهم يتكلمون عن سفر ابن كاملة، قالوا في انفسهم: غدا اضراب، نذهب لنتفرّج. يطلّ الصبيّان برأسيهما من بين نباتات الشرفة، ينتظران لحظة الوداع. لم يعرف من أضاف الى الخبر تعليقا مفاده ان كاملة لن ترى ابنها المسافر بعد اليوم. الصغيران أسرعا لحضور لحظة الفراق الأخير. فكرة ان كاملة لن تلتقي بابنها بعد اليوم هي التي جلبتها. يريدان رؤية كيف يكون الوداع الذي ليس بعده لقاء.

هو لن يعود بعد اليوم الى لبنان وهي ستموت قريبا.

سيلتحق بالصبيين رفاق آخرون لهم مضربون هم ايضا، وبعد وقت قصير سيطوق حشد من تلامذة المدرسة التكميلية الرسمية الاولى للصبيان شرفة كاملة من كل الجهات، وسينضم اليهم رفاق آخرون يجلسون الى جانبهم على مقاعد المدرسة. صغار من ابناء الاغراب المستوطنين حديثا في حي "العصابة". ستحاول منتهى تفريقهم. يبتعدون قليلا لكنهم يصرّون على البقاء في الجوار. اذا تراجعوا لأمتار فسيقتربون من جديد لا محالة. يتابعون كل حركة، يتابعون ايليا وهو يتهامس مع أمه. يتردد قليلا، ينظر من حوله، يقدّر الحضور، يبتسم وينهض ليدخل الى البيت.

بعد قليل سيظهر حاملا آلته، متمنطقا بها. ينحني فوقها لينفض عنها الغبار وليكتشف مفاتيحها من جديد. يقترب الصغار، سيكون ظهور الاكورديون بين يدي ايليا اشارة لهم بالاقتراب أكثر فأكثر. سيتجرأ بعضهم على القفز فوق درابزين الشرفة والجلوس أرضا الى جانب أهل البيت ومن جاء من الجيران يشارك كاملة وداع ابنها. يضرب نوتة ومن بعدها نوتتين ليتأكد من ان الآلة لا تزال تصدر صوتا. يبتسم. يتكاثر عدد المشاهدين، ينادون بعضهم بعضا من الازقة الصغيرة. حارة "العصابة" كلها.

سيتوجه نحوهم، سيعزف لهم الالحان التي ما يزال يحفظها بعد كل هذه السنوات، فينظرون اليه صامتين مبهورين. يتابعون حركاته وهو يفتح الآلة الى آخرها، على مدى ذراعيه. يعجبون كيف تنفتح الى هذا المدى. يفتحها ليعود فيضمها لتنغلق كلياً. على الارجح انه لم يحمل الاكورديون طوال اقامته في الغربة لكنه ما ان ينقر مفاتيحه حتى يستعيد مهارته، كما يحصل لراكب الدراجة الهوائية، يتعلّم مرة فلا ينسى. فيروح دون تصنّع ينحني فوق الاكورديون ويغمض عينيه كأنه يعاني ويتألم مع اللحن الحزين الذي يصدر منها، يرقّص رجليه فرحا بايقاعها المتسارع، ويتمايل معها راقصا. سيعزف ما يخطر في باله من ايقاع حتى تطلب منه كاملة اغنية "زوروني كل سنة مرّة" فيلعبها وهو ينظر في عيون الصبية المندهشين برشاقة اصابعه، يتفرجون عليه يعزف ولا يستمعون الى الموسيقى التي يُخرجها من آلته العجيبة. ما ان يبدأ ايليا عزفه حتى يسود الحيّ صمت غريب، فكأن حركة السيارات تتوقف كليا، ولا يعود يُسمع صوت أم تنادي على ابنها، ولا باب يصفق ولا كلب ينبح في الجوار.

عندما سيبدو على ايليا أنه تعب من العزف، ولو بقي يبتسم لجمهوره، ستطلب منتهى من صبية الحارة ان يتفرقوا بحجة أن المرأة تريد أن تودّع ابنها، وأن يذهب كل منهم ليلعب "عند أمه". لم يكن لدى منتهى لغة أخرى. لكنهم لن يتزحزحوا قيد انملة. سيتابعون المشهد حتى آخره. هددتهم بالدخول الى صالون البيت وبادرت الى الطلب من كاملة وايليا وزوارهما ان ينتقلوا لكن اولاد الحي رفعوا اصواتهم استنكارا.

سيتفرجون على ايليا وهو يودع أمه. انها اللحظة التي جاؤوا من أجلها، منذ سمعوا أهلهم يقولون انها لن تراه بعد اليوم.

صنعت له دزينة من اقراص الكبة بالشحم وخصّته بكيلوغرام من قديد اللوبياء وبوعاء من كرات اللبنة السابحة بالزيت، كما اضافت اليها جبنة الماعز والزيتون المكبوس وزيت الزيتون من أرض "الحريق" الفوقاني الحمراء ورتّبتها كلها في حقيبة واحدة. أرسلت سرا من يشتري لها المعمول بالفستق في علبة خشبية محكمة الاغلاق من طرابلس. ونصف قالب من التين "المهبّل" وكيساً صغيراً من البرغل الاسمر. سائق التاكسي نفسه الذي نقله الى برج الهوا سيأخذه الى المطار... لن يتفوه طول الطريق الا بالكلمة اللازمة.

احتفظت كاملة بالسؤال الى الأخير، الى لحظة الفراق. كانت قد وافقت ان يمسكها من يدها عندما سألته فجأة:

. ماذا تريدني أن افعل بالبيت يا ابني؟

فوجئ بالسؤال:

. أي بيت؟

. هذا البيت، بيتك...

حاول ان يقول شيئا لكنه امتنع.

لم "تحرّج" عليه.

ستمشي وراءه الى الباب الخارجي، ستقف هناك والى جانبها منتهى. منتهى التي ستيأس من تفريق الصغار، خصوصا ان ما جاؤوا لرؤيته اقترب اوانه، منتهى التي اعتادت مع الايام، ومع انطفاء نظر كاملة التدريجي ان تهمس في أذنها ما يجدر بكاملة ان تعرفه مما يحدث امامها ولم تعد تراه، كأن منتهى تريد ان تعوّض لرفيقة عمرها ما بدأ التقدم في السن يبخل به عليها.

ايليا لا يشبع من ضمّها وتقبيلها وهي تستسلم ولا تبكي، ترغب في أن يتوقف عن ذلك حتى يتوقف ويحمل الحقائب الى السيارة ليعود مرة جديدة ليضمها الضمّة الاخيرة. تنادي كاملة، سائق السيارة يقترب منها فتوصيه بأن لا يسرع في القيادة وهو يقلّه الى بيروت، وأن ينتظر في المطار حتى يتأكد من سفره، وأن يمرّ عليها في طريق العودة ليطمئنها الى ان الطائرة اقلعت به. يعدها بذلك كله فتسمع ابواب السيارة تنغلق واحدا تلو الآخر. تسمع صوت ايليا في هتافه الأخير، "أمّي". يدير السائق المحرك. تعرف كاملة ان السيارة ستتقدم حوالى الخمسين مترا قبل ان تنعطف يسارا لتسلك الطريق العام. بعد مضي الوقت الكافي لاختفاء السيارة وراء المنعطف، ستسأل منتهى:

. هل نظر الى الخلف؟

ادعت منتهى انها لم تسمع السؤال. كررت عليها كاملة:

. هل نظر ايليا الى هنا قبل المنعطف؟

. نظر، نظر...

ستكذب عليها منتهى.

بعد قليل، بعد انصراف الجيران دون التفوه بأي تعليق قبل وصولهم الى بيوتهم لانهم يعرفون ان سمع كاملة بدأ يزداد مع تراجع نظرها، وبعد ضجر اولاد المدرسة من النظر اليها وقد عادت الى مكانها على مقعد الشرفة بالقرب من زهرة الأضاليا، وبعد تفرق هؤلاء الصغار في يوم العطلة غير المتوقعة هذا الى التسكع في الازقة او التوزع على محلات الالعاب الالكترونية، وبعد ادعاء منتهى انها مضطرة للعودة الى بيتها لتحضير الغداء وسكوت كاملة عنها مع انها تعرف ان منتهى في غالب الايام لا تحضّر شيئا وتأكل النواشف وقوفا الى جانب المجلى، عندها ستأخذ كاملة نفسا عميقا قبل ان تحضّر لنفسها فنجان قهوة تبدأ به العودة الى حياتها كما كانت.

ستتلمس عن المقعد والطاولات الواطئة ما تبقى من فناجين او منافض للسجائر، وستعثر في تلمسها هذا على دفتر سميك بقي مرمياً هنا. لن تعرف في البداية انه الدفتر الذي دوّن عليه

ايليا كل ملاحظات رحلته. لن تعرف هل نسيه وسيندم كثيرا عليه او يطالب بطريقة من الطرق ان ترسله امه اليه، ام أنه تركه وراءه عمدا على مقعد الشرفة. لكنها عندما ستطلب بعد الظهر من منتهى التي ستعود اليها في هذا اليوم الصعب ان تقرأ لها ماذا كتب في الدفتر، فان أول ما ستقع عليه كلام يذكّرها بالانجيل كما قالت:

"وعرف آدم حواء امرأته فحملت وولدت قايين، فقالت قد رزقت رجلا من عند الرب. ثم عادت فولدت أخاه هابيل. فكان هابيل راعي غنم وقايين كان يحرث الأرض. وكان بعد أيام ان قايين قدّم من ثمر الأرض تقدمة للرب، وقدم هابيل أيضا شيئا من ابكار غنمه ومن سمانها. فنظر الرب الى هابيل وتقدمته، والى قايين وتقدمته لم ينظر...".

هي ضجرت من القراءة وكاملة ضجرت من الاصغاء. قلبت منتهى الصفحات: *"حصلتُ على أكثر من سبع روايات متناقضة لكيف بدأت الحادثة، كأن الجميع راحوا فجأة وفي اللحظة نفسها يطلقون النار في جميع الاتجاهات. لكل شخص سألته روايته الخاصة...".* استوقفَتها ايضاً لائحة مرقّمة ستكتشف هي وكاملة انها لائحة بالقتلى الذين سقطوا في حادثة برج الهوا. لم يذكر ايليا اسماءهم بل اكتفى بذكر اشغالهم واوضاعهم العائلية. فراحت تقرأ عن كل منهم وتتوقف لكي يكتشفا هي وكاملة من هو المقصود:

" سائق شاحنة أميركية للنقل من طراز "دودج" مصنوعة في العام 1946، يعمل في النقل الخارجي باتجاه سوريا والاردن ويصل في رحلات طويلة الى العراق، له من العمر 32 عاما، متأهل، له اربعة اولاد آخرهم عمره اسبوع واحد".

. هذا سعيد الابرص!

قالت كاملة.

"تلميذ خياط، عازب، 25 عاما".

. فريد بدوي السمعاني!

عرفته منتهى.

"ميكانيكي متمرن في ورشة محلية لتصليح السيارات، كان قد بدأ يحرز تقدما في عمله حيث صار المعلم يسلّمه اصلاح بعض الاعطال السهلة بمفرده، عازب، 25 عاما".

"استاذ لغة عربية في الصفوف الابتدائية والتكميلية ورئيس تحرير مجلة فصلية مدرسية كانت تدعو الى التحرر وتوفير التعليم للبنات وقيم تقدمية أخرى، يحب المراسلة مع المفكرين المعروفين في ذلك الوقت وحصل منهم على رسائل احتفظ بها بعناية، 26 عاما، عازب"

. هذا ميشال الرامي.

وتكرّ الاوصاف والاعمار والمهن:

" ناطور معتمد من ملاكي بساتين الزيتون يقرر تاريخ بدء القطاف ويردع المعتدين واصحاب قطعان الماعز عن المرور وسط البساتين ويغضّ الطرف عن العفّارين بعد انتهاء الموسم، يحمل مسدسا بطبيعة شغله، 38 عاما، له سبعة اولاد، ولد آخرهم بعد وفاته بثلاثة أشهر فسُمّي على اسمه".

"لحّام، 38 عاما، له سبعة اولاد أكبرهم في الخامسة عشرة من عمره".

"سائق سيارة اجرة على خط برقا طرابلس واحيانا على خط طرابلس بيروت، 27 عاما، متأهل وله أربعة اطفال".

" 18 عاما، ليس طالبا اذ انه وجد صعوبة لا طاقة له على تحملها في ساعات الحساب واللغة الفرنسية فغادر المدرسة، ولا عامل مع أنه حاول عبثا تعلم الحلاقة ومن بعدها النجارة. لا يزال صغيرا و لم يبدأ حياته بعد"

. أليس هذا ابن عمتك زهيّة، يا منتهى؟

"موظف في احد مصارف المدينة، "البنك اللبناني الافريقي" وكان قد التحق بعمله الجديد قبل اسبوعين فقط، عازب، 26 عاما".

"كاتب في تصرف القاضي المنفرد المداوم في سرايا البلدة يومي الثلاثاء والخميس من كل اسبوع، 26 عاما، متأهل وله ولدان".

"مهاجر الى اوستراليا كان قد عاد الى الوطن قبل اسابيع معدودة بعد ان بلغته الاخبار هناك ان اقاربه يواجهون تحديات كبيرة، 33 عاما، متأهل، كان له عند وقوع الحادثة اربعة اولاد قتل اثنان منهم لاحقا في احداث العنف المتوالية".

"لا تعرف له مهنة ثابتة مع انه يتدبر اموره جيدا. يميل الى البيع والشراء ويقال انه قبل يوم على الحادثة وفق بصفقة من المسدسات باسعار مغرية وقد باع قسماً منها الى ابناء عمه وكذلك باع بعضاً منها الى شبان من العائلة الخصم ويريد البعض التصديق انه ربما سقط برصاص من مسدس باعه هو الى اعدائه، متأهل وله خمسة أولاد".

وفجأة، قبل الختام:

"يعمل في مجال العاب القمار، تارة يفتح ناديا، تارة يشارك مع غيره، يلعب وينظم العاب الورق، 42 عاما، متزوج، لم يرزق باولاد".

قرأته منتهى وسكتت. قالت كاملة:

. هذا يوسف... أليس كذلك؟

. ربما...

ندمت منتهى لأنها قرأت ما كتبه ايليا عن والده. انتبهت كاملة الى شيء ما. أمسكت منتهى من يدها.

. اقرأي لي من جديد.

انصاعت منتهى:

. "يعمل في مجال العاب القمار، تارة يفتح ناديا، تارة يشارك مع غيره، يلعب وينظم العاب الورق، 42 عاما، متزوج".

. هذا كل شيء؟

. ايه... هذا كل شيء.

. كذابة يا منتهى...

وأخذت الدفتر من يدها.

انتزعته انتزاعا.

مزّقت الصفحة المفتوح عليها اولا.

بعد أن ذهبت منتهى خبأته.

مع ذلك لم تتحمله.

أخرجته من جديد من مخبأه.

تلمّست صفحاته.

عبثت بها قليلا.

أشعلت نارا وأحرقته.

ارتاحت.

لن تتكبد بعد الآن مشقة اعادة الاشياء الى اماكنها. لن تضطر كل صباح الى فتح البرداية على القياس المعتاد بعد أن يكون ايليا قد وسّع فتحتها ليبين منها منظر الجبل. يحق لايليا ان يوسع فتحة البرداية ليشرح صدره قليلا بمنظر السماء والجبال العالية، لكن كاملة لا تريد ان تنظر وتقع عينها على برج الهوا الجالسة في السفح هناك. لم تعد ترى على بعد متر واحد ومع ذلك لا تزال "تردّ" البرداية لتخفي منظر البلدة التي لم تجرؤ يوما على زيارتها او المرور فيها، لن تضطر كل ليلة الى النهوض من سريرها لاقفال الباب على دورتين، ستفتح مخبايتها من جديد وتخرج منها كل ما لم ترد لايليا ان يراه. ستعيد عرض "أغراض يوسف"، ستعيد صور زوجها الى امكنتها على الجدران او على الطاولة حيث الصور في براويزها. والليلة ستغفو من جديد على صوتها. ستدير المسجلة فوق رأسها وتستمع الى صوتها كما كان قبل سنوات وهي تغنّي:

احمد محمد علي باشا قتلي راد
بنهار جمعاي (جمعة)
والناس بالميعاد
وانا ركّبوني جمل عالاي (عالي)
والقايدو جلاّد...

XXIII

طوال الرحلة بين لبنان وجزيرة قبرص بقي ايليا صامتا متوترا، يرنو الى الابتعاد. بالكاد تمتم عبارة شكر للمضيفة الحسناء التي قدّمت له كوبا من عصير البندورة. وضع رأسه في كتاب حمله خصيصا كي يقنع من ينظر اليه انه معتاد على السفر لا يضايقه اقلاع الطائرة ولا الارتجاج المفاجئ الذي يضرب جوانبها وهي محلقة في سماء الغروب الصافية النقية، لكنه لم ينجح في قراءة جملة مفيدة واحدة. حبل الجمل المتوالية امام ناظره ينقطع باستمرار فتتبعثر الكلمات والمعاني في ذهنه. كل اقلاع للطائرة، كل بداية تحليق في الفراغ، كان ولا يزال يخيفه. كانت مسافة الرحلة قصيرة وكان مرتبكا بحمولته، حقيبة المآكل والأكورديون. خصوصا الاكورديون الذي لم يجد له حلاً. وضع حقيبة المآكل التي زوّدته بها كاملة في الاماكن المخصصة لحقائب اليد فوق رؤوس المسافرين لكنه لم ينجح في حشر الاكورديون فيها فبقي متعثراً به يضعه بين رجليه تارة او في حضنه تارة أخرى. يزعجه الكهل البدين الاسمر ذو الشاربين الجالس الى جانبه والذي حاول التحرش به من البداية سائلا باصرار ودون نتيجة عن أسمه ومسقط رأسه ووجهة سفره. يرجّح ايليا انه من تجار السيارات المستعملة وقد قرر أن لا يجيبه عن اسئلته فانصرف الرجل عند فشله الى النظر من النافذة التي كان سارع الى الجلوس بجانبها من لحظة دخوله الطائرة، للنظر، ابله، ساهيا، الى وجه البحر الصافي والغيوم المضيئة كأنه يقرأ في كتاب حتى هبوط الطائرة بسلاسة لم يكن ايليا يتوقعها.

في مطار لارنكا انتظر ايليا ساعات طويلة في الليل موعد الاقلاع الجديد، ومعه حقائبه مكوّمة الى جانبه. كان لا يزال منقبضاً، كانت وجوه العابرين القلائل في قاعة الانتظار اليفة ثقيلة. ثقيلة وجوههم والوان بشرتهم. ابناء عرب او ابناء عمومتهم من قبارصة، اتراكاً او يونانيين. كان هناك ايضا شبان لبنانيون عائدون الى ديارهم يقتلون الوقت باطلاق المواويل، وكانت هناك مجموعة من السائحات الشقراوات الاوروبيات النحيلات. حِملهنّ خفيف، يلبسن السراويل القصيرة ويبدون معتادات على السفر والمطارات، ذاهبات في الاتجاه المعاكس على الارجح. طال الانتظار ففتح حقيبة المآكل التي حملها بيده احتراما لرغبة أمه. كانت ثقيلة تخلع

له كتفه والرحلة الى نيويورك طويلة. اول ما تفحص أقراص الكبة. فتح واحدا منها، لمس حشوة الدهن فيه فوجده سميكاً ناشفاً. اهمله ليفتح كيس الجبنة ويغرس اصابعه في الكتلة البيضاء الجامدة المالحة. تناول لقمة واحدة وأخيرة، قطعة كبيرة أطبق فمه عليها بعد أن اطمأن أن أحداً لا يراه، وراح يقضمها ببطء ولذة. ذوّبها في فمه قبل أن يبتلعها حتى صعد طعم الماعز الى انفه وكاد يسكره. رائحة الماعز المكسو بالشعر الاسود الكثيف. وعندما نادوا على ركاب رحلته للالتحاق بالطائرة حوالى الساعة الثانية بعد منتصف الليل، تلفت حوله قبل أن يترك كيس الجبنة وأقراص الكبة على المقعد الذي كان جالسا عليه. تركها وتحاشى التطلع الى الوراء. دفع بالحقائب الباقية امامه على الحمّالة ومشى.

في الطائرة المبتعدة به الى اوروبا كانت بعض النظرات التائهة في الزوايا لا تزال تتعرف عليه وتطارده. تبادل الحديث بالفرنسية مع شاب طويل الشعر رث الثياب قال انه عائد من كاتماندو. كانت تنبعث منه رائحة قوية وكان يبحث عن زبائن يبيعهم حشيشة الكيف بكميات صغيرة. لما سأله الرجل عن اسمه اجاب دون تردد "ايلي"، بالفرنسية. اعتذر صاحب الشعر الطويل عن اعطاء ايليا اسمه او عنوانه لان شرطة المطارات والانتربول يبحثون عنه كما قال. وبدوره تكهن ان ايليا ليس فرنسيا بسبب لكنته الخاصة، ربما انك بلجيكي أو كندي، أليس كذلك؟ ابتسم ايليا بمكر ولم يجب. لكنه اطمأن الى أنه دخل من جديد الى حيث لن تطارده بعد الآن اشارات الولادة.

في مطار أورلي كان الانتظار أقصر. ترك حقيبة المآكل او ما تبقّى منها فوق أحد المقاعد على أمل ان يسرقها أحد الركاب، وراح يتسكع أمام المحلات التجارية الثمينة. لكن رجل الأمن الفرنسي المتجول في ردهات المطار ناداه مطالبا اياه بحمل الحقيبة. ما عاد أحد يترك حقيبة لا صاحب لها في ردهات المطارات. اشترى دفتراً شخصيا جديدا من احدى المكتبات، رمى المعمول بالفستق واللبنة السابحة في الزيت داخل علبة القمامة فخفّ حمله. ندم قليلاً على المعمول بالفستق.

على متن الطائرة المتجهة به الى نيويورك خطّ ايليا مشاعر على دفتره الصغير، دشّنها بالقول: "أسافر فوق المحيط الاطلسي داخل ماسة مغلفة باللامتناهي المائل الى البياض والاقرب الى السجن الخانق، الى جانبي فتاة تشبه أحلام مراهقتي المبكرة، نظّارات رقيقة وسرّ وجمال...". لم يكتب انها شقراء، من النوع الذي يحبه. نظر الى الركاب واحدا واحدا في مقاعدهم. تجرأ على التفرس بهم فلم يجد وجها أليفا. لم يتحرش بالفتاة لكنه تصفح ما يكفي من الصحف وابتسم لها بلامبالاة تكفي لاثارة حشريتها في الرحلة الليلية الطويلة. استعارت منه مجلة فعرّف عن نفسه باللكنة الانكليزية، "ايلاي" قال. اسمها سوزان والرحلة تستغرق ساعات طويلة. بدأت هي بالكلام. عادة لا يتكلمن، لكن سوزان هذه كانت كأنها تحكي لنفسها وهي تنظر اليه لتخبره. هكذا ودون

مقدمات، ارتاحت اليه. فيه شيء يرتاح اليه الآخرون وخصوصا النساء، انها تعيش وحدها في نيويورك، قالت، وانها متمسكة بعزلتها الجميلة، لا زوج لها ولا اصحاب. ابتسم في سرّه، انهن يدّعين دائما هذا الاكتفاء، متمسكات بوحدتهن. أكملت ان أجمل لحظة في يومها هي عندما تفتح شبّاك غرفتها على مصراعيه في المساء، بعد تعب النهار، بعد ايابها من مركز للرعاية الاجتماعية حيث تعمل في أحد الأحياء الفقيرة. تفتح النافذة فترى النجوم تختلط بأنوار المباني. تعيش في الطبقات العليا، ترى الطائرات واحدة تلو الاخرى تخترق سماء المدينة وهي ترسل الاشارات الضوئية مع اقترابها من المطار، بقعاً صغيرة لا تحصى. تحب هواء الليل المنعش، تبحث عن لحظات النعمة، لحظات الاعتدال، قبل ان تعود موجة الحياة العاتية في الصباح لتضربها من جديد، تسعى دائما الى تمديد فترة الهدنة في حياتها...

تردد ايليا قليلا. ترك الفتاة النيويوركية تحكي وبدا لوهلة، لساعة من الزمن تقريبا، كأن ليس لديه ما يقوله. اكتفى بالاصغاء والابتسام وتأكيد انطباع الثقة الذي يعرف انه يتركه عند محدثيه. هي بدورها لم تكن تتوقع منه اجابة لكنها بعد ان وصفت نفسها ويومياتها، انتبهت الى ان اصول المحادثات تقتضي منها الاهتمام بمن يستمع اليها، فسألته اذا كان يعرف نيويورك. عندها فكت عقدة لسانه، فارتجل، كما تعوّد، سيرة جديدة قال فيها انه مقيم في نيويورك وانه مصري المولد، نشأ في عائلة يهودية في مدينة الاسكندرية الى جانب عمة نصف مجنونة اسمها الحقيقي ساره لكنهم كانوا يطلقون عليها اسم جميلة تمويهاً، كانت عمته تدّعي ان قائد الفيلق الانكليزي، الكولونيل روجر وايتيكر الذي كان مرابطا هناك خلال الحرب العالمية الثانية وتقول انه استبسل في معركة العلمين، كان مغرماً بها وان المخابرات البريطانية عرضت عليها التعاون مقابل مبلغ كبير من المال لكنها رفضت ولما لم تكن تجد من يصغي الى حكايتها كانت تجمع اطفال العائلة وتسرد عليهم قصص غرامها وخيباتها، وان له أختاً صغرى أغرمت بشاب مسلم وسيم فرّت معه بالرغم من صراخ العائلة وتنكرها لها. كان يكمل قصته باندفاعه المعهود لما انتبه ان سوزان الجالسة الى جانبه تغمض عينيها شيئا فشيئا وتكاد المجلة التي تحملها تسقط من بين يديها، فاحتار في امرها الى ان لاحظ بعد وقت قصير انها غفت فعلا وامالت رأسها لتضعه على كتفه. أكمل ايليا حديثه كأن سوزان لا تزال تستمع اليه لكنه استفاد من غفوتها ليروي لها قصة أخرى:

. كان هناك في بلد صغير وبعيد، على الشاطئ الغربي للبحر الابيض المتوسط، مكان مليء باشجار الشربين العبيّة، الواقفة كالنساء الحزينات في سفوح جبال عالية تلتمع فوقها بقع من الثلج في ضوء شمس الربيع، وأشجار الزيتون تكسو السهول فيها، في مكان تتدفق فيه المياه ويبلل فيه الجبل رجليه في مياه البحر القديم...

يحكي ايليا كأنه يقرأ. برتابة وايقاع عجّلا ربما في اغفاءة سوزان.

. ...كان هناك رجل في الاربعين من عمره تزوج من فتاة أحبها وأحبته وبقي لخمسة عشر عاما لم يرزق بولد. ذات ليلة من ليالي الربيع الحارة دفعته زوجته دفعا الى النوم معها. لكن حدث ان قتل هذا الرجل في اليوم التالي في مجزرة وقعت في كنيسة. وهنا بدأت المشاكل بدل ان تنتهي إذ أصرّ البعض من أهل بلدته على القول تارة انه سقط برصاص اقاربه عن طريق الخطأ والفوضى وتارة من اصدقاء له في العائلة الخصم من باب الغدر المطلق. يوم السبت في السابع من آذار من العام التالي، ولد لأرملة الرجل القتيل صبي متجاوزاً التسعة أشهر بأسبوع واحد على الأقل، على افتراض ان آخر دخول لأبيه بأمه قبل مقتله كان هو الدخول المثمر بعد خمسة عشر عاما من المحاولات غير المجدية. لم يكن الأطباء يملكون في هذا التاريخ الوسائل الكفيلة بتسريع الطلق والولادة. وما كان لأمه أن تصل الى طبيب. فعندما أحست أنها تتأخر، أرسلت صديقة لها لتأتيها بالداية التي كانت تسكن في الجوار. فتحت لها الداية فخذيها ونظرت، لم يكن لديها من دواء تصفه سوى الانتظار. وضعته أمه في اليوم التالي، وسط اطلاق الرصاص وحروب العائلات واعمال الثأر التي لا تنتهي، وقد ولد كبير الجسم والرأس. حفظ عن ظهر قلب منذ سن الرابعة عشرة قصائد بالفرنسية وتعلّم العزف على الاكورديون والكلارينات. يعرف كل شيء، الانكليزية والعربية والفرنسية واللاتينية، ولا يتقن أيا منها. الفلسفة الالمانية ولا يعرف اسماء روادها. موسيقي ولا يعرف قراءة النوتات. خبير في مطابخ الامم كلها ولا يحسن تحضير العجة بالبيض. أمضى طفولة مثيرة لكن لم يقتنع أحد أنه ابن والده فراحوا ينسبونه الى رجال آخرين حتى استقروا على نسبته الى أمه فقط مما تسبب له ولها بفجوة عميقة في روحيهما. لم تعد أمه تطيقه بقربها فدفعته دفعا الى السفر، فذهب الى آخر الدنيا وأخبر من التقاهم هناك اخبارا ملفقة عن ماضيه لم يصدّقها احد. وها هو الآن سابح في طيرانه الأخير الى نيويورك حاملا اسمه المثقل بالتوراة، وماضيه الذي يضجّ بالخرافات المتينة، يحاول قول الحقيقة عن نفسه وأهله للمرة الاولى في حياته الى شقراء أميركية وهي لا تصغي اليه...

ما ان توقف ايليا عن الكلام حتى فتحت سوزان عينيها معاتبة:

. لماذا توقفت عن الكلام؟ كنت سعيدة جدا بأخبارك... صحيح اني لا أهتم كثيرا لقصص الأب والأم والأبن لكن من زمان طويل لم يرو لي أحد حكاية وانا اتأرجح بين النوم واليقظة...

تردد قليلا ثم قال:

. انها ليست حكاية...

. لا يهم. انك ترويها بلهجة والدي عندما كان يخبرنا انا وشقيقتي قصة "بيتر بان" فيهجم علينا النوم ونحن نقاومه... أكمل، أرجوك.

قالتها وثبتت رأسها فوق كتف ايليا تأكيدا لرغبتها في النوم من جديد على صوته.

أكمل ايليا حكايته قبل ان يغفو بدوره في هذه الرحلة الطويلة فوق المحيط الاطلسي. عند اعلان مذياع الطائرة عن ضرورة شدّ الاحزمة لأن الرحلة اقتربت من نهايتها، استيقظت سوزان فألقى ايليا بصنارته، كالعادة:

. اعرف مطعما فرنسيا في جادة...

بدا كأن سوزان لم تسمع ما يقول. كانت مهتمة بتجميع أغراضها الصغيرة استعدادا للنزول من الطائرة.

حاول مرة ثانية:

. هل تحبين المطبخ الفرنسي؟

لم ينتزع منها جوابا. طرأ عطل ما على نظامه.

فضّلت ان تغيّر الموضوع، ان تسأله وهي تشير الى الاكورديون:

. هل تجيد اللعب على هذه الآلة؟

فضّل بدوره السكوت والتطلع نحو ناطحات السحاب في مانهاتن.

في مطار جون ف. كينيدي حيث حطّت الطائرة، أعطته سوزان رقم هاتفها وابتعدت بين جموع المسافرين فوقف يلاحقها بنظراته حتى اختفت في البعيد وهو يأمل أن تلتفت ولو مرة أخيرة لوداعه. أتصل بها بعد اسبوع فاكتشف أن لا وجود لسوزان على هذا الرقم وكان محدثه جافاً او حانقاً. والدها أو زوجها أو صديقها لا يعرف، او ربما اعطته رقم هاتف غير هاتفها، فاضطر الى اختصار الكلام واقفال الخط.

تأكد ايليا أنه عاد الى عالمه. ابتسم في سرّه. في المطار حيث تركته سوزان واقفا وسط رهط من السياح اليابانيين، استرجع حقيبة الثياب. كانت أمه قد وضعت فيها ثيابه واحذيته عندما كان صغيرا، واضافت اليها كتب المدرسة ودفاتر الصفوف الاولى والطائر المعدني البرّاق الفارد جناحيه والواقف على رجل واحدة. سحب منها صورة والده التي وجدها لدى المصور الارمني دافيديان، نظر اليها مطولا. رجل متوسط القامة، نظرة المعجب بنفسه يخفي شيئا من الحزن خلف ابتسامة كان لا بد منها عند الوقوف امام المصور. مزّق الصورة نصفين كي يتخلص من الرجل الثاني الواقف الى جانبه. تحسس ايليا الطقس، وجده باردا، أخرج المعطف الاسود من الحقيبة، رماه على ذراعه، أقفل الحقيبة وتركها وراءه، كذلك ترك وراءه حقيبة الاكل وما تبقّى فيها. خرج حاملا الاكورديون النبيذي وصورة يوسف الكفوري، خفيفا، مسافرا دون حقائب. سيقول إن سأله أحد . من سيسأله في كل حال؟ . ان حقائبه ضاعت في احد المطارات الثلاثة التي انتقل بينها.

لم يتمكن تلك الليلة من الرجوع الى شقته، كان عاجزا عن العودة الى اشيائه كلها دفعة واحدة. نزل في فندق صغير. استكشف غرفته ثم شعر بالحاجة الى فنجان قهوة في الخارج

فجلس في بهو الفندق الخالي الا من الشاب الجالس وراء مكتب الاستعلامات والذي راح يتحادث معه تخفيفا من الضجر فأخبره أنه يعمل هنا موقتا ليغطي كلفة دراسته وأنه في العام الأخير من اختصاص جامعي بالصحافة. دخل ايليا. أرغمته اندفاعة لا يقوى على تفاديها على القول أنه مستعد لتأمين بداية عمل للشاب محدثه في صحيفة "بلتيمور اوبزرفر". هكذا أخرجها من كمّه فجأة، كون مدير تحرير المحليات فيها، الفرد برسكوت . يعرف شخصا يدعى الفرد برسكوت لكنه كان مراسلا ثانوياً في وال ستريت لصالح صحيفة أخرى . من أعزّ اصدقائه لكنه أضاف ان على الشاب عامل الاستعلامات الذي لم يكن قد تعرف بعد على اسمه، أن يبرهن على قدراته واقناع هيئة التحرير بمستوى كتاباته وانه سيعمل غدا على الاتصال بصديقه وأن ايليا سيساعده ببعض النصائح الخاصة بكتابة التحقيقات الصحافية والتي لا يمكن تعلمها في المعاهد بل هو اكتسبها من خبرته في هذا المجال. واكمل ايليا اختراعاته الارتجالية بالقول انه عائد لتوّه من مهمة صحفية في الشرق الاوسط لكنه نسي مدوناته هناك وانه سيسعى لاسترداد دفتره وأنه كتب فيه قصة مجزرة حصلت في كنيسة قبل اربعين عاما... لم يوقف انطلاقته الا رنين هاتف الفندق واضطرار عامل الاستعلامات الى الانصراف مشددا على ايليا أن لا ينساه...

لم ينم الا مع بزوغ الفجر بعد تقلّب لم يتوقف في الفراش. كانت اصوات الشارع واضواء اللافتات الليلية تغرق الغرفة. بعد شعور الاثارة الذي رافق من جديد انتقاله في يوم واحد بين قارات العالم الثلاث، ضربته فجأة كآبة عميقة ممزوجة بتعب الرحلة الطويلة، لكنه أغرق رأسه في الوسادة العالية وجاهد حتى نام دون احلام الى ساعة الظهر تقريبا، عندما ايقظه هاتف عامل الفندق الذي قال انه يفضّل تفقد الزبائن اذا تأخروا في النزول. كان صوت العامل مختلفا عن رجل المساء الذي انتهت نوبته فارتاح ايليا لانه لم يعد مضطرا للالتقاء به ولبذل الجهد للتهرّب من التزامات العشية التي فرضها على نفسه. نزل الى ردهة الفندق، نظر الى الخارج من زجاج النافذة العريضة فهاب المواجهة. تمنى لو يرجع الى غرفته، يبقى فيها مثل المسافر الذي قرأ عنه في احدى روايات الخيال والذي بقي عالقا خارج الزمن في مدينة كان يعبرها فلم يتمكن من مغادرتها.

خرج بعض النزلاء، دخل غيرهم، امرأة وابنتها ورجل عجوز وشاب أسود. جلس قليلا، الوقت الكافي ليكتب رسالة قصيرة بخط اليد، لفتة خاصة اراد ان يفاجئ بها صديقته الأخيرة هيذر بولوك، ابنة القس هنري بولوك الابن الذي اشتهر بعظاته في مناسبة اقتراب الالفية الثالثة والتي كانت تنقلها مباشرة احدى محطات التلفزة المحلية. ركز انتباهه قليلا، حاول تذكر اشياء قالها لها ولمعت عيناها افتتاناً بسماعها، فنبهها في البداية الى ان رسالته هذه ستصلها وعليها طابع بريدي كما في الأيام الغابرة. هذه المرة ستجد على الأقل ما تقرأه في علبتها البريدية، شيء غير اعلانات الحسومات وكوبونات الاشتراك في مجلات الموضة تسارعين الى رميها في أقرب

سلة مهملات. اليك رسالة بخط اليد ومشاعر بخط اليد أيضا، كتب لها، وأضاف ان الربيع هذا العام جاء مبكرا في بلاده فلم يتسن له عند وصوله الى بلدته ان يتمتع بمنظر زهر اللوز الابيض. اما أمه فانها لم تعد تبصر جيدا ويعتقد انها مصابة بمرض وراثي سينتقل اليه في أي وقت، وها هو قد عاد يتوق الى رؤيتها والى دعوتها مجددا الى *لو روليه داركاشون*.

دفع المترتب عليه ووقف في الباب الخارجي المفضي الى الجادة المزدحمة. مرة أخرى ما ان خطا خطوة واحدة خارج الباب حتى كاد للحظة يعود أدراجه. وقف يتفرج على نهر المشاة، خاف. أمسكته غصة في حلقه. خاف من المشاة أن يجرفوه، كالعادة كانوا كأنهم يسيرون معا، متراصين كما صفوف الجيش في معارك الزمن الماضي، قاصدين وجهة واحدة ومسرعين للوصول في الموعد المحدد. لا مناص من المواجهة. وضع رجله على طرف الرصيف كما يضع السابح رجله في الماء أولا ليتأكد من برودتها وتعويد جسمه تدريجا على تحمّل هذه البرودة قبل ان يدخل الى الماء. قطع مسافة قصيرة لكنه كاد يختنق فقرر دون تفكير ان ينعطف يمينا ويدخل الى محل لبيع الثياب. كان بحاجة الى بذلة جديدة. وقف طويلا أمام المرآة، جرّب وجرّب حتى رضي بحلته. اقتصر اختياره على اللونين الاسود والابيض. اطال الاهتمام بالتفاصيل، حرص على المقاس الصحيح والقصّة المناسبة، اختار ربطة عنق وجوارب، لكن بقي في ثيابه التي كان يختارها كما في كل مرة، كما في لهجته الفرنسية المتسرعة وفي لكنته الانكليزية الملحّنة، كما في حياته السابقة، في دروسه الجامعية المتعرجة والمتقطعة وقصص الغرام المتسلسلة والمتكررة التي عاشها وفي المهن الصغيرة التي تقلّب فيها، كما في عودته المفاجئة الى أمه والى بلدته وما رجع به من رحلته هذه، بقي فيها كلها نقص صغير على الدوام، عنصر مفقود، طريقة مختلة في الوقوف، تفرس غير مألوف في العينين، فراغ، مجرى هواء بين ما يسعى اليه وما يبذله من جهد، كوة كان دون أن يدري يصر على ابقائها مشرعة للهروب. كان ايليا أبن يوسف الكفوري انجازا لم يكتمل.

توقف لحظة في باب محل الثياب، تحسنت قدرته على المواجهة، عادت اليه فجأة طعمة جبنة الماعز، رائحة الماعز المكسو بالشعر الاسود الطويل، تمنطق بالاكورديون النبيذي اللماع، أخذ نفسا عميقاً كالسابح المستعد للغطس في مياه عميقة ودخل بين المارة مستسلما للمسيرة، حاول في بداية انطلاقه ان يجد لنفسه حيّزا حيوياً خصوصا وان المارة خلفه كانوا يلمسونه كلما تأخر في ايقاعه وأعاق تقدمهم، فكان ينحرف صوب الشارع حيث تعبر السيارات، حيث تكون جهة من الجهات الاربعة مفتوحة امامه تسمح له بهامش من الحرية. لكنه سرعان ما فقد الحاجة الى التنفس، نسي جسمه وانطلق في نهر المشاة، وسط الرصيف، دون توقف.